دين الفطرة

كما بينته سورة البقرة
عقيدة وعبادة ومعاملة

تأليف
عبد العظيم بن بدوي الخلفي

الجزء الأول

دار الكتاب المنير
للطبع والنشر والتوزيع

دين الفطرة

كما بينته سورة البقرة

عقيدة وعبادة ومعاملة

تأليف

عبد العظيم بن بدوى الخلفى

شركة علوم الحاسب

كمبيوساينس

المركز الرئيسى : ٤٩ ش الحجاز- أمام دار المناسبات – مصر الجديدة

ت/ف: ٢٤٠٥٣٣٠ - ٦٣٩١٢٩٥ - ٦٣٩٠٦٣٣

مدينة نصر : ١ ش عبد الحكيم الرفاعى من عباس العقاد (أمام الحديقة الدولية)

ت/ف : ٦٧٠٢٢٦٣-٢٨٧٤٧١١

E-mail:info@compuscience.com.eg

www.compuscience.com.eg

دار الكتاب المنير

الجزء الأول

الطبعة الأولى

٢٠٠٣م - ١٤٢٣ هـ

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/٥١٦١

I. S. B. N : 977-5735-81-5

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره،ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(١٠٢)﴾ [آل عمران] .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء].

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا(٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(٧١) ﴾ [الأحزاب].

أما بعد: فإنَّ أصدقَ الحديث كلامُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

وبعد: فهذه هي " الأربعون المنبرية (السابعة) و(الثامنة) " تخرج في ثوب واحد سمَّيْتُه :

ديــن الفطــرة

كما بيّنتــه سورة البقرة

عقيــدة، وعبــادة، ومعــاملة

وقد بدأت الخطابة بها في مسجدنا العامر مسجد النــور بالشــين مركــز قطور، في يوم الجمعة (٢/١/١٤٢١هـ الموافق ٧/٤/٢٠٠٠م) وانتهيت منهـا في يوم الجمعة (٨/١/١٤٢٣هـ الموافق ٢٢/٣/٢٠٠٢م).

ومن المعلوم أَنَّ سورة البقرة قد طال فيها حديث رب العالمين عن بنــي إسرائيل حتى استغرق نحوًا من ثلثها، فأفردت هذا الحديث بخطبه فــي كتــاب مستقل، سوف أُعدّه للطباعة عقب هذه الأربعين إن شاء الله.

وأسأل الله سبحانه وتعالى أَنْ ينفع بكل كلمة قُلتُها أو كتبتها، وأَنْ ينفعنــي بها في الدنيا والآخرة، إِنَّه وليّ ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أَنْ الحمد لله رب العالمين

وكتبــه

عبد العظيم بن بدوي الخلفيّ (لقباً)

بعد العصر من يوم الثلاثاء

١٣/١٠/١٤٢٣هـ

١٧/١٢/٢٠٠٢م

القرآن هو الحل

إنَّ القُرآنَ الكريم هو حبلُ اللهِ المتين، وهو النُّـورُ المبـين، والصِّـراطُ المُستقيم، عِصْمةٌ لمنْ تمسَّك به، ونَجاةٌ لِمَنِ اتبعه، ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُـهُ ثُـمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**(١) ﴾ [هـود] ﴿**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ**(٤١) **لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِـلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**(٤٢) ﴾ [فصلت]،

فيه نبأُ ما قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحُكمُ ما بينكم، هو الفصلُ ليْس بالهزل، مَنْ تركهُ مِنْ جبَّارٍ قَصَمَهُ الله، ومَنِ ابتَغى الهُدَى في غيره أضلَّهُ الله، وقد تكفَّلَ اللهُ تعالى لمَنْ قرأ القُرآنَ وعَمِلَ بما فيه ألا يضلَّ فــي الــدُّنيا ولا يشــقى فــي الآخرة، قال تعالى:﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَــلاَ يَضِـــلُّ وَلاَ يَشْــقَى**(١٢٣) **وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** (١٢٤) **قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا** (١٢٥) **قَالَ كَــذَلِكَ أَتَتْــكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى** (١٢٦)**وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَــمْ يُــؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى**(١٢٧) ﴾[طــه]،

والمُرادُ بالهُدَى القرآنُ الكريم، فقد سمَّاه اللهُ هُدَىً في مواضعَ كثيرةٍ منهــا قولُه تعالى :﴿ **الم** (١) **ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**(٢) ﴾

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِـي الصُّـدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**(٥٧) ﴾[يونس] وقولُه تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُـدًى وَشِفَاءٌ** (٤٤)﴾ [فصـلت]، وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُـوا إِذْ جَـاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُـولاً** (٩٤) ﴾[الإسـراء]، وقولــه تعــالى: ﴿ **وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًــا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**(٥٧) ﴾[القصص]،

فالهُدى كلُّه في القرآن الكريم، ولذلك قال تعالى:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(١٦)﴾ [المائدة] .

ولما سمعت الجنُّ رسولَ الله ﷺ يقرأ القرآنَ استمعوا إليه، ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ(٣٠) ﴾ [الأحقاف].

فالقرآنُ يهدي إلى الحقِّ في كُلِّ ما اختلف فيه الناس، ويهدي إلى الطريق المستقيم من بين سائر الطُّرقِ التي سلكها الناس،قال تعالى:﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ(٩)﴾ [الإسراء] .

((هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم. فيشمل الهُدى أقواماً وأجيالاً بلا حدودٍ من زمانٍ أو مكانَ،ويشمل ما يهديهم إليه كلُّ منهجٍ وكلُّ طريق، وكلُّ خيرٍ يهتدي إليه البشرُ في كلِّ زمانٍ ومكان))(١) .

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ(٩)﴾ في العقيدة، فقد بَيَّنَ بما لم يدع مجالاً للشَّكِّ أنَّ اللهَ واحدٌ، ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾[البقرة]، وأنَّ هذا الإلهَ لم يلد ولم يولد، ولم

(١) في ظلال القرآن (٥/٣٠٨).

يكن له شريكٌ في الملك، ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)﴾ [المؤمنون]،

فهو وحده المُستَحقُّ للعبادة دون غيره، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٢)﴾ [البقرة].

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ(٩)﴾ "في عالم الضَّميرِ والشُّعورِ بهذه العقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيدَ فيها ولا غُموض.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ(٩)﴾ في التَّنسيق بينَ ظاهرِ الإنسان وباطنِه، وبينَ مشاعره وسُلوكه، وبينَ عقيدتهِ وعمله، فإذا هي كلُّها مشدودةٌ إلى العُروةِ الوُثقى التي لا تنفصم، متطلعةٌ إلى أعلى وهي مستقرَّةٌ في الأرض، وإذاً العملُ عبادةٌ يتوجَّهُ به الإنسانُ إلى اللهِ ولو كان هذا العملُ متاعاً واستمتاعاً بالحياة.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ(٩)﴾في عالم العبادة بالمُوازنةِ بينَ التَّكاليفِ والطَّاقة، فلا تشقُّ التكاليفُ على النَّفسِ حتى تملَّ وتيأسَ من الوفاء، ولا تسهلُ وتترخَّصُ حتى تشيعَ في النفس الرَّخاوةُ والاستهتار، ولا تتجاوزُ القصدَ والاعتدالَ وحدودَ الاحتمال.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ(٩)﴾في علاقات النَّاسِ بعضهم ببعض: أفراداً وأزواجاً، وحكوماتٍ وشُعوباً، ودُولاً وأجناساً، ويُقيمُ هذه العلاقاتِ على الأُسس الوطيدةِ الثابتةِ التي لا تتأثر بالرَّأيِ والهوى، ولا تميلُ مع المودَّةِ والشَّنآن، ولا تُصرِّفُها المصالحُ والأغراض، الأسسِ التي أقامها العليمُ الخبيرُ

لخلقه، وهو أعلم بِمَنْ خلق، وأعرفُ بما يصلح لهم في كلِّ أرضٍ وفي كلِّ جيل فيهديهم للتي هي أقومُ في نظام الحكم، وفي نظام المال، ونظام الاجتماع، ونظام التَّعاملِ الدوليِّ الَّلائقِ بعالم الإنسان))(١) .

وبذلك يظهر لنا جلياً أنَّ الْحَيْرَةَ التي يتردَّدُ فيها العالَمُ، والظُّلُمَاتِ التي يتخبَّطُ فيها، والضَّنْكَ الذي سُلِطَ عليه إنَّما سَبَبَهُ الأوحدُ هو الإعراضُ عن القرآن، فإنْ صَدقَتِ النَّوايا في الخُروجِ من هذه الحيْرةِ وهذه الظُّلماتِ، والتَّخلُّصِ من هذا الضَّنكِ فإنَّ الحلَّ الأوحدَ هو الإقبالُ على القُرآنِ تلاوةً وتدبُّراً وفَهْماً وعملاً وتعليماً، كلُّ ذلك بعدَ الإيمانِ بأنَّهُ كلامُ اللهِ ربِّ العالمين، نزل به الرُّوحُ الأمين، على قلب محمدٍ ﷺ ليكون من المُنذِرين، بلسانٍ عربيٍّ مبين، وبعدَ الإيمانِ الذي لا يُخالِطُهُ شَكٌّ، واليقينِ الذي لا يُصاحِبُهُ تردُّدٌ أنَّ سعادةَ البشريَّةِ وصَلاحَها في أخْذِهَا أنفُسَها بهَدْيِ هذا القرآن،فإنَّ القرآنَ لا يهدي الكافرين، ولا يهدي الظالمين، ولا يهدي الفاسقين، إنَّمَا القُرآنُ يَهدي المؤمنينَ المتَّقينَ المحسنين، القرآنُ لا يهدي مَنْ أقبلَ عليه للتَّجْرِبَة، إنَّما يهدي مَنْ أقبل عليه وهو من المؤمنين بأنَّهُ الهُدَى نفسُه، وأن لا هُدى في غيره.

ولقد رأيتُ بعد أن قطعنا شَوْطاً في رحاب وصايا الرسولِ ﷺ أن نعود إلى القرآن الكريم نهتدي بهديه، ونستضيء بنوره، وننهل من علمه، فشرح اللهُ الصَّدرَ لنعيش في رحابِ أطولِ سُورةٍ من القرآن الكريم سورةِ البقرة، فاستخرتُ اللهَ عند ذلك فهداني ربِّي لذلك، وزادني طُمأنينةً لهذه السُّورةِ أنَّها أوَّلُ سُورةٍ أُنزِلَتْ على رسولِ اللهِ ﷺ بعد الهجرة وهانحنُ نبدأ في شَرحها واسْتخراج كُنُوزِهَا وأسرارِها في أوَّلِ جُمُعَةَ من العام الهجري الجديد الحادي والعشرين بعدَ المائة الرابعة والألف ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا** (٣٨)﴾ [الأحزاب].

---

(١) في ظلال القرآن (٥/٣٠٩).

ولقد هاجر المؤمنون إلى المدينة بإذنِ رسولِ الله ﷺ وبَقِيَ هو ﷺ ينتظرُ إذنَ ربِّهِ، حتى إذا أجمع المُشركون أمرَهم على قتله أذِنَ اللهُ له في الهجرة، فخرج ﷺ إلى المدينة ثانيَ اثنين اللهُ ثالثُهما، وكان بالمدينة العربُ الوثنيُّون، واليهودُ الكتابيُّون، فنزلت سُورةُ البقرةِ على رسولِ الله ﷺ مُسْتَفْتَحةً بالحديثِ عن طوائفِ النَّاسِ الثلاثة: المؤمنين، والكافرين، والمنافقين، ثم دعتهم جميعاً إلى عبادة الله وحده: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (٢١) ﴾[البقرة] ثم تحدَّثتْ عنِ النُّبُوَّةِ والوَحْي، واستشهدت على صدق محمدٍ ﷺ فيما يُبلِّغُ عن ربِّهِ بِعَجْزِ خُصُومِهِ مُجْتَمِعينَ عن الإتيانِ بمثل ما أتى به.

ثم تحدَّثتْ عن خَلْقِ الإنسانِ الأوَّلِ آدمَ عليه السلام وما كان بيْنَهُ وبيْنَ عَدُوِّهِ إبليسَ حتى هبطوا جميعاً إلى الأرض ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ثم تحدَّثتْ عن بني إسرائيلَ في مساحةٍ تزيدُ على ثُلُثِ السُّورة، وسَمَّتْهُمْ شياطين، لما يقومُون به من الفسادِ في الأرض، ثم تحدَّثتْ عن إبراهيمَ الخليل وبنائه الكعبةَ التي هي القبلة، وموقفِ السُّفَهاءِ من النَّاس من تحويل القبلةِ من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، واشْتملَتِ السُّورةُ الكريمةُ على كَمٍّ هائلٍ من التَّشريعاتِ في العبادات والمُعاملات، فتحدَّثتْ عنِ الصلاة، والصيام، والزكاة والحج، وفي الأحوالِ الشَّخْصيَّةِ والشُّئونِ الأُسريَّةِ تحدَّثتِ السُّورةُ الكريمةُ عنِ الخِطبة والنكاح، والعلاقةِ الزَّوجيَّةِ وما يحلُّ للرَّجلِ مِنَ امرأتِهِ وما يحرُم، وعنِ الطلاق والخُلع، والرِّضاعِ والعِدَّةِ، والمُحرَّماتِ من النساء،والحقوقِ الواجبةِ لكُلٍّ من الزَّوجيْنِ على الآخر، كما تحدَّثتْ عن الحلالِ والحرام من الأطعمةِ والأشربة والأموال، وحَمَلَتْ حملةً شديدةً على المُرابين، وحَثَّتْ على القَرْضِ الحَسَنِ، ودَعَتْ إلى حُسْنِ القضاء والوفاء.

كما تحدَّثتِ السُّورةُ عن الجهاد في الإسلامِ وأهدافه، وتحدَّثتْ عن القِصاص، والوَصيَّة، وتضمَّنتِ السُّورةُ قَصَصاً وأمثلةً واقعيةً تدلُّ على أنَّ الله يُحْيِ الموتَى ويبعثُ من في القبور ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى(٣١)﴾[النجم] ولذلك كانت آخرُ آيةٍ نزلت في القرآن هي قولُهُ تعالى في سورة البقرة:﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ(٢٨١)﴾ [البقرة].وخُتِمَتِ السُّورةُ الكريمةُ بآيتين "من قرأهما في ليلة كفتاه"[1] كما قال ﷺ .

لذلك عَظُمَ شأنُ هذه السورة وعَظُمَ فضلُها:

عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلابِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: « يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ قَالَ: كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا »[2].

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ »[3].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ »[4].

---

(١)متفق عليه خ(٥٠٠٩/٥٥/٩)، م(٨٠٨/٥٥٥/١)، ت(٣٠٤٣/٢٣٤/٤)،د(١٣٨٤/٢٧٤/٤)، جه(١٣٦٩/٤٣٦/١).

(2) م(٨٠٥/٥٥٤/١)، ت(٣٠٤٥/٢٣٥/٤).

(3) م(٨٠٤/٥٥٣/١).

(4) م(٧٨٠/٥٣٩/١)، ت(٣٠٣٧/٢٣٢/٤).

وَعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِأَلْفَيْ عَامٍ أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَلا يُقْرَأَانِ فِي دَارٍ ثَلاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ "[١].

وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ "[٢].

نسألُ اللهَ تعالى أن يُوفقَنا في هذه السُّورة،وأن يفتح لنا كنوزها،ويُوقفنا على أسرارها،إنَّه وليٌّ ذلك والقادر عليه،﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ[٨٨]﴾ .

* * *

---

(١) صحيح:[ص.ت:٢٨٨٢]، ت(٣٠٤٤/٢٣٥/٤).

(٢) م(٨١٠/٥٥٦/١).

القرآن كلام الله رب العالمين

قال الله تعالى: ﴿ الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ (٢) ﴾[البقـرة] .

اختلف العلماءُ في الحُروفِ المُقطَّعةِ التي استفتح اللهُ تعالى بهـا بعـضَ السُّور وأصحُّ الأقوال أنَّ اللهَ تعالى أراد بها إثباتَ أنَّ هذا القرآنَ كلامُه، بـدليل أنَّهُ مؤلفٌ من هذه الحروف التي يتألَّفُ منها كلامُ العرب ومع ذلك عجزوا عـن الإتيان بمثله مع ادعائهم القُدرةَ على ذلك قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَـا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٣١) ﴾[الأنفال] فقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(٨٨) ﴾[الإسراء]،

ثم أمر رسولَهُ ﷺ أن يطلب منهم الإتيـانَ بمـا ادَّعـوه فقـال تعـالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَـهُ بَـلْ لاَ يُؤْمِنُـونَ (٣٣)فَلْيَـأْتُوا بِحَـدِيثٍ مِثْلِـهِ إِنْ كَـانُوا صَادِقِينَ(٣٤)﴾[الطور] ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِـهِ مُفْتَرَيَـاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(١٣)﴾ [هـود] ﴿ أَمْ يَقُولُـونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْـتَطَعْتُمْ مِـنْ دُونِ اللَّـهِ إِنْ كُنْـتُمْ صَادِقِينَ(٣٨)﴾ [يونـس] ،

وكان هذا الطلبُ في مكة فلما هاجر ﷺ إلى المدينة وبها اليهودُ وهم أهل كتاب نزل عليه ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٢٣)﴾ [البقـرة] فتحدَّى الأمِّيِّـين والكتابيِّين على حدٍّ سواء .

والدليل على رُجحان هذا القول أنَّك لا تجد سورةً استُفتِحتْ بهذا الاستفتاح إلا رأيت الله بعد هذا الاستفتاح يُشيد بكتابه ويَنتصر له، ويَذكر أنَّه تنزيلُه، ففي سورة البقرة قال تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ(٢)﴾، وفي آل عمران قال تعالى:﴿ الم (١) اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ (٣)﴾ ، وفي الأعراف قال تعالى: ﴿المص (١) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٢)﴾، وفي الرعد قال تعالى:﴿ المر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ(١) ﴾، وفي السجدة قال تعالى : ﴿ الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾[1].

وقولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ أتى باسم الإشارة ﴿ذَلِكَ﴾ الذي يفيد البُعد إشادةً بهذا الكتاب وإشارةً إلى عُلوِّ مكانته وارتفاع شأنه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ(٤)﴾ [الزخرف].

والكتاب هو القرآن،سمَّاه الله كتاباً لما جمَعهُ من العلوم المختلفة : قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا(١)﴾ [الكهف]، وقال تعالى:﴿ الر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(١)﴾[يوسف]، وقال تعالى: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ(١)﴾ [الزمر].

وقد سمَّى اللهُ هذا الكتاب بأسماءَ كثيرةٍ، وكثرةُ الأسماء تدل على شرف المسمَّى :

ومن أسمائه القرآن قال تعالى:﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ(٧٨) ﴾ [الواقعة]، وقال

١-تفسير ابن كثير(١/٣٨).

تعالى:﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ (١٨٥)﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا (٢)﴾[يوسف]، وقال تعالى:﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ(٩)﴾[الإسراء].

ومنها الفرقان، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا(١)﴾ [الفرقان].

ومنها النور، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا(١٧٤)﴾ [النساء].

ومنها الروح، قال تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا(٥٢)﴾ [الشورى].

ومنها الهدى والشفاء قال تعالى:﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ(٤٤)﴾ [فصلت]

ومنها حبل الله، قال تعالى:﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا(١٠٣)﴾ [آل عمران].

عن أبي سعيدٍ الخُدري قال: قالَ رسولُ الله ﷺ : "كِتَابُ اللهِ هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَمْدُودُ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ "[١]

ومنها أحسنُ الحديث، قال تعالى:﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ(٢٣)﴾ [الزمر].

ومنها أحسنُ القصص قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ(٢)﴾ [يوسف] ومنها البيان، قال تعالى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ(١٣٨)﴾ [آل عمران].

ومنها البصائر، قال تعالى﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ(١٠٤)﴾ [الأنعام]

---

(١)صحيح :[ص.ج:٤٣٤٩]، ابن جرير (٤/٣١).

ومنها البرهان، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ(١٧٤)﴾[النساء]

ومنها كلام الله، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ(٦)﴾ [التوبة] .

ومنها: الذكر قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ(٩)﴾ [الحجر] [١].

وقولُه تعالى: ﴿ لَارَيْبَ فِيهِ ﴾أي لا شكَّ في كونه كلامَ الله ربِّ العالمين، فثبُوتُ ذلك من الوضوح بمكانٍ وإن جَحدهُ الجاحدون وكذَّب به المكذِّبون،والدليل على ذلك أمور :

منها: أنه لم يدَّعِ نُزولَهُ عليه إلا أصدقُ الناس حديثاً محمدٌ ﷺ وقد عُرِفَ بينهم بالصدق والأمانة قبل أن يدَّعِ ما ادَّعاه، والعقلُ يشهد بأنَّ الذي يَدَعُ الكذبَ على الناس لا يُمكنُ أبداً أن يكذبَ على ربِّ الناس، وهذا ما صرَّح به هِرَقْلُ لأبي سُفيانَ حين سأله عن محمدٍ ﷺ، وكان ﷺ كتب كتاباً إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام فأمر جنوده أن يأتوه بمن عنده من العرب، فتوافق وُجودُ أبي سفيانَ في قافلةِ تجاريةٍ، فسأله عِدَّةَ أسئلةٍ أراد بها الوقوفَ علىِ أحوال هذا الذي بعث إليه يدعوه إلى الإسلام، وكان منها قولُ هِرَقْل " **هَلْ جَرَّبْتُمْ عَلَيْهِ كَذِباً؟:قَالَ:لا. فَقَالَ هِرَقْلُ:مَا كَانَ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَكْذِبَ عَلَى الله**"[٢].ولذلك قال تعالى:

﴿ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ**

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيميه (١/١٤)، تفسير الرازي(١٥-٢/٢٠).

(٢) خ(١/٣١/٧).

عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ(١٧)﴾[يونس].

ومنها:إخبارُ القرآنِ الكريم بما لا يعرفه البشرُ من الغيبيَّاتِ ممَّا كان،وممَّا سيكون،قال تعالى:﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا(٦) ﴾ [الفرقان]

ومن الأسرار إخبارُ القرآن بنبأ قوم نوح، قال تعالى:﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ(٤٩)﴾[هود].وإخبارُه بنبأ يوسف وإخوته، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ(١٠٢)﴾[يوسف]. وإخبارُه بنبأ مريم قال تعالى:﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ(٤٤)﴾[آل عمران].

وإخبارُه بنبأ موسى قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٤٦)﴾ [القصص]. وإخبارُه بانتصار الرُّوم بعد هزيمتها، قال تعالى:﴿ الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ (٤)﴾ [الروم] :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى﴿ الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ ﴾

لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ الأَوْثَانِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ لأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، فَذَكَرُوهُ لأَبِي بَكْرٍ فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ، فَذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ لَهُمْ فَقَالُوا: اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَجَلاً فَإِنْ ظَهَرْنَا كَانَ لَنَا كَذَا وَكَذَا، وَإِنْ ظَهَرْتُمْ كَانَ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا، فَجَعَلَ أَجَلاً خَمْسَ سِنِينَ فَلَمْ يَظْهَرُوا فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ أَلاَ جَعَلْتَهُ إِلَى دُونَ قَالَ أُرَاهُ الْعَشْرَ، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: وَالْبِضْعُ مَا دُونَ الْعَشْرِ، قَالَ ثُمَّ ظَهَرَتِ الرُّومُ بَعْدُ، قَالَ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ الم غُلِبَتِ الرُّومُ﴾إِلَى قَوْلِهِ:﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾(1)

وإخبارُه النبيَّ ﷺ بما عزم عليه المشركون من قتله،قال تعالى: ﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ(٨٠)﴾ [الزخرف]،وقال تعالى:﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٣٠)﴾ [الأنفال]،وإخبارُه النبيَّ ﷺ بتظاهُرِ نسائه عليه،قال تعالى:﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ(٣)﴾ [التحريم]

ومنها : تضمُّنُ القرآنِ الكريم آياتِ عتابٍ كثيرةً للنبيِّ ﷺ على بعض تصرُّفاتٍ صدرت منه ﷺ وكانت خلافَ الأَوْلى،**كعتابه** على إعراضه عن ابن أُمِّ مكتومٍ الأعمى لما جاءه مسترشداً متعلِّماً وكان النبيُّ ﷺ مشغولاً بدعوة نفرٍ من أكابر قريشٍ يرجو إسلامهم،فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى (٢)وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤)أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥)

---

(١) صحيح:[ص.ت:٣١٩٣]، ت(٣٢٤٥/٢٣و٥/٢٤).

فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) ﴾ [عبس]، **وعتابه** على الإذن للمنافقين بالقعود عن الخروج معه إلى تبوك،قال تعالى: ﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥)** ﴾ [التوبة]، **وعتابه** على العفو عن أسرى بدر مُقابل الفدية،قال تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩)** ﴾ [الأنفال] **وأشدُّ العتاب** عتابُه ﷺ على إخفاء ما أعْلمهُ اللهُ به من طلاق زيد بن حارثة لزينب بنت جحشٍ وزواجه ﷺ منها،قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧)** ﴾ [الأحزاب] **عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لَكَتَمَ هَذِهِ الآيَةَ"**(١)

ومنها : سُكوتُ القرآنِ عمَّا يحتاجُهُ النبيُّ ﷺ ويتطلَّعُ إليه،كسكوته عن التصريح ببراءة أُمِّ المؤمنين عائشةَ شهراً كاملاً والمُرجفون في المدينة يخوضون في الإفك، والنبيُّ ﷺ وأهلُ بيته، وأبو بكرٍ وأهلُ بيته، وصفوان بن المعطَّلِ وأهلُ بيته، وسائرُ المؤمنين في همٍّ وغمٍّ من هذا الحديث ولا يستطيعون

---

(١) م(١٧٧-٢٨٨-/١٦٠/١)، ت(٣٢٦٠و٣٢٦١/٣١و٣٢/٥).

له تكذيبا، وبعد شهرٍ كاملٍ من العناء والتعب،والهمِّ والحـزن، نزلـت الآيـات بالفرج، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْـرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِـنْهُمْ لَـهُ عَـذَابٌ عَظِيمٌ (١١) ﴾ إلى قوله تعـالى:﴿ الْخَبِيثَـاتُ لِلْخَبِيثِـينَ وَالْخَبِيثُـونَ لِلْخَبِيثَـاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُـمْ مَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)﴾ [النور] فلو كان القرآنُ من عند محمدٍ فلماذا انتظر كـلَّ هـذه المُدَّة دون إعلان البراءة ؟

ومنها : تضمُّنُ القرآنِ الكريم التهديدَ الشديدَ للنبيِّ ﷺ على خيانة الأمانـة بالزيادة في الوحي أو النقص منه،قال تعـالى:﴿ وَلَـوْ تَقَـوَّلَ عَلَيْنَـا بَعْـضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤)لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(٤٧)﴾ [الحاقة]

ومنها : إنَّ محمداً بشرٌ مثلهم، لغته لغتهم، ولسانه لسانهم، وقد تحداهم أن يأتوا بمثل ما أتى به فعجزوا، مع كثرة التحدي، وشدة الخصومة بينـه وبيـنهم التي تدفع الخصم غالباً إلى محاولة نفي التهم عنه من العجز والضعف، فلو كان من عند محمد لم يفقدوا من فصحائهم وبلغائهم من يأتي بما يضاهي ما جاء بـه محمد أو يعلوه ، فلما لم يفعلوا دل على عجزهم جميعاً ومحمد معهم أن يفتـروا هذا القرآن من عند أنفسهم كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْءَانُ أَنْ يُفْتَـرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٣٧)﴾ [يونـس].

فإذا علم هذا تبين أن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً وأنزله علـى رسوله وحياً وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر وقد ذمه الله

وعابه وأوعده بسقر حيث قال : ﴿ **سَأُصْلِيهِ سَقَرَ** [٢٦] [المدثر] فلما أوعد الله بسقر لمن قال: ﴿ **إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ** [٢٥] ﴾[المدثر]علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشـــر ولا يشبه قول البشر [١] .

* * *

١-العقيدة الطحاوية : تعليق الألباني(٢٤).

التقوى وثمراتها العاجلة والآجلة

قال تعالى: ﴿ الم(1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2) ﴾[البقرة] "والمتقين جمعُ مُتَّقٍ، اسمُ فاعلٍ من وقاه فاتَّقى، والوقايةُ لُغةً: الصيانةُ مطلقاً، وشرعاً: صيانةُ المرء نفسَهُ عمَّا يضرُّ في الآخرة"[1].

ولقد وصَّى اللهُ تعالى عبادَه بالتقوى فقال: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ(131) ﴾[النساء]، وأخبر أنَّه بعث رُسلَه وأنزلَ عليهم وحيه ليأمروا الناسَ بتقواه، فقال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ(2) ﴾[النحل]، وقد قام الرُسلُ بذلك خير قيام، وأمروا أقوامهم بتقوى الله، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ(105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(110) ﴾[الشعراء]، وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ(123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ(124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(126) ﴾[الشعراء]، وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ(141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ(142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(144) ﴾ [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ(160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ(161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(163) ﴾[الشعراء]، وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ(176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ(177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(178) فَاتَّقُوا اللَّهَ

---

(1) روح المعاني(1/108)،

وَأَطِيعُونِ(١٧٩) ﴾[الشعراء]، وقال تعالى:﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ(١١) ﴾[الشعراء]،وقال تعالى:﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ(٦٣) ﴾[الزخرف].

فلما بعث اللهُ تعالى خاتمَ النبيِّينَ محمداً ﷺ وأنزل عليه الذكرَ الحكيم أكثر فيه من أمر عبادَه بالتقوى،ومن ذلك قولُه تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٢١) ﴾،وقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(١) ﴾ [النساء]، وقوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(١) ﴾[الحج]، وأكثر النبيُّ ﷺ نفسُه من وصيته لأصحابه بالتقوى:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :"اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»(١)

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ يَقُولُ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»(٢)

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: جَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَشْكُو، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»(٣)

---

(١) حسن [ص.ت:١٩٨٧]، ت(٢٠٥٣و٢٠٥٤/٢٣٩/٣و٢٤٠/٣)، حم(٣٦/١٨٥/١٩).

(٢) صحيح [ص.ت:٦١٦]، ت(٦١١/٦٢/٢)، ك(٩و٣٨٩/١).

(٣) خ(٧٤٢٠/٤٠٣/١٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُسَافِرَ فَأَوْصِنِي. قَالَ: عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ»[١]

وقد اختلفت عباراتُ العلماء في حدَّ التقوى « فعن أبي هريرةَ أنَّ رجلاً سألهُ عن التقوى فقال: هل أخذتَ طريقاً ذا شوك؟ قال نعم. قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيتُ الشوكَ عدلتُ عنه أو جاوزتُه أو قصرتُ عنه، قال: ذاك التقوى. وقال طلقُ ابنُ حبيبٍ: التقوى أن تعملَ بطاعة الله،على نورٍ من الله، ترجو رحمةَ الله، وأن تتركَ معصيةَ الله، على نورٍ من الله،تخشى عقابَ الله. وقال أبوالدرداء: تمامُ التقوى أن يتقيَ اللهَ العبدُ حتى يتقيَه من مثقال ذرَّة، وحتى يترك بعض ما يرى أنَّهُ حلالٌ خشيةَ أن يكون حراماً،يكون حجاباً بينه وبين الحرام. وقال ابنُ مسعودٍ في قول الله تعالى: ﴿ **اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِه**(١٠٢) ﴾[آل عمران]: أن يُطاعَ فلا يُعصى، وأن يُذكرَ فلا يُنسى، وأن يُشكرَ فلا يُكفر »[٢]

وإذا كانت التقوى صيانةَ المرء نفسَه عما يضرُّ في الآخرة فأصلُها صيانة المرء نفسَه عن الشرك فإنَّهُ أعظمُ ما يضرُّ في الآخرة، قال تعالى:﴿ **إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**(٧٢)﴾ [المائدة]، ويلي ذلك صيانة النفس عن كبائر الذنوب، فقد سمَّاها رسولُ الله ﷺ مُهلكاتٍ فقال« **اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: "الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاتِ**»[٣]، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ**

---

(1) حسن[ص.ت:٣٤٤٥]،ت(٥/١٦٣/٣٥٠٨)،جه(٢/٩٢٦/٢٧٧١)،حب(٥٩١/٢٣٧٨).

(2) جامع العلوم والحكم(١٣٨).

(3) متفق عليه:خ(٥/٣٩٣/٢٧٦٦)، م(١/٩٢/٨٩)، د(٨/٧٧/٢٨٧٥)، ن(٦/٢٥٧).

إلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا(٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(٣٠) إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا(٣١)﴾ [النساء]، وقال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا(٦٩) إِلاَّ مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(٧٠)﴾ [الفرقان]

فإذا وحَّد العبدُ ربَّه وآمن به وحده، وفعل ما به أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، فقد حصَّل أصلَ التقوى، ثُمَّ هو بحاجةٍ إلى المزيد منها وذلك بأن يفعلَ مع الواجبات المستحبَّات، ويترك مع المحرَّمات المكروهات، وفي هذا يقولُ القائل:

خَلِّ الذُّنوبَ صغيرَها وكبيرَها ذاك التُّقى
واصنع كماشٍ فوقَ أرض الشوك يحذرُ ما يرى
لا تحقِرنَّ صغيرةً إنَّ الجبال من الحصى(١)

وللتقوى ثمراتُها العظيمة وفوائدُها الجليلة في الدُّنيا والآخرة،وقد ذكرَ اللهُ تعالى أصلَها في الآية الكريمة فقال:﴿ **هُدىً لِلْمُتَّقِينَ**﴾ يهديهم إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيم،فلا يهتدي بهدي القرآن إلاَّ المتَّقون،أمَّا الكافرون الظالمون فلا يهتدون بهدْي القرآن ولا يستضيئون بنوره،والهدايةُ إلى الصِّراط المستقيم هي الغايةُ التي شمَّر لها المشمِّرون،وتنافس فيها المتنافسون،وما قام قائمٌ في الصلاة

---

(١) جامع العلوم والحكم(١٣٨).

إلاَّ قال: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**(٦) ﴾[الفاتحة]،والله سبحانه يشهدُ للمتقين بالهدى فيقول: ﴿ **أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**(٥)﴾ [البقرة]، فمن أراد الهدايةَ فعليه بتقوى الله.

ومن ثمراتها: تفريجُ الكروب وتيسيرُ الأمور، قال تعالى:﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا**(٢) ﴾[الطلاق]، وقال تعالى:﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**(٤) ﴾ [الطلاق]

ومن ثمراتها: توسعةُ الرِّزق وزيادتُه مع البركة فيه، قال تعالى:﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا**(٢) **وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ**(٣) ﴾ [الطلاق]، وقال تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**(٩٦) ﴾ [الأعراف]، بركاتٍ لا يحُدُّها حدٌّ، ولا يوصفها وصف، « فهي البركاتُ بكلِّ أنواعها وبكلِّ صُورها وأشكالها،بركاتُ في الأشياء،وبركاتٌ في النفوس،وبركاتٌ في المشاعر،وبركاتٌ في طيِّباتِ الحياة، بركاتٌ تُنمِّي الحياة وترفعها في آن، وليست مجرَّدَ وفرةٍ مع الشَّقوة والتردِّي والانحلال»(١).

لقد ضلَّ قومٌ فطلبوا الوفرةَ والزيادةَ والكثرةَ من غير طريق التقوى فنمت أموالهم،وكثرت مشاريعُهم،وازدادت أموالهم، ولكنها زيادةٌ لا بركةَ فيها،فلم يجنوا منها إلاَّ البؤسَ والشقاء، والهمَّ والغمَّ، والنكدَ والحزن، ولقد فرحوا بكثرة الأموال وزيادتها، وظنُّوا أنَّها ستُحقِّق لهم السعادة، فلم يجنوا منها إلاَّ الشقاوة، لأنَّه شتَّان بين كثرةٍ مباركةٍ وكثرةٍ غير مباركة، بل شتَّان بين قليلٍ مباركٍ وكثيرٍ لا بركةَ فيه. فالكثرةُ المباركةُ هي الفتحُ الذي وعد اللهُ به المتقين، كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ**

---

(١) في ظلال القرآن (٥٨٧ـ٣/٥٨٩).

وَالأَرْضِ(٩٦) ﴾ [الأعراف]، والكثرةُ غيرُ المباركةِ هي الفتح الذي وعد اللهُ به الضَّالِّين المكذِّبين، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ(٤٢) فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٥) ﴾ [الأنعام]

فانتبه أيُّها الإنسان!وانظر ما فُتح عليك من الدُّنيا،هل هو فتحٌ مباركٌ أم لا؟ والفتحُ المباركُ هو ما كان نتيجةَ التقوى والطاعة، هو الذي تصحبهُ البركةُ والسعادة وهدُوءُ الأعصاب وراحةُ البال، والفتحُ غيرُ المبارك هو ما كان نتيجةَ المعصيةِ والكسبِ الحرام، هو الذي يصحبه البُؤسُ والشقاءُ والهمُّ والغمُّ، فإن وجدتَ ما فُتح عليك من النَّوع الأوَّلِ فاحمدِ اللهَ واشكرْه حتى يزيدَك، وإن كان من النوعِ الثاني فبادرْ بالتَّوبةِ والإنابةِ قبل أن ينزل بك عذابُ الله، قال تعالى: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ(١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٩٧) ﴾ [آل عمران]، وقال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٢٦) ﴾ [البقرة].

ومن ثمرات التقوى أنَّها سببُ حياة القلوبِ وتمييزها بين الحقِّ والباطل، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢٩) ﴾ [الأنفال]،وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٢٨) ﴾ [الحديد].

ومن ثمراتها أنَّها جُنَّةٌ من الأعداء،قال تعالى:﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ(١٢٠) ﴾ [آل عمران].

ومن ثمراتها أنَّها سببُ مدد الله لعباده، قال تعالى: ﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ(١٢٥) ﴾[آل عمران].

ومن ثمراتها أنَّها سببُ التَّمكين في الأرض،قال تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(٥٦) وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(٥٧) ﴾ [يوسف]،ولمَّا عرَّف يوسفُ إخوتَهُ بنفسه تعجَّبوا من حاله و﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(٩٠) ﴾ [يوسف].

ومن ثمراتها أنَّها سببُ معيَّةِ الله،قال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ(١٢٨) ﴾ [النحل]،وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(١٢٣) ﴾ [التوبة].

ومن ثمراتها أنها سببُ محبَّةِ اللهِ للعبد،قال تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ(٤)﴾ [التوبة]

ومن ثمراتها أنَّ أهلها أولياءُ الله،كما قال تعالى:﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٦٤) ﴾ [يونس]

ومن ثمراتها النَّجاةُ من النارِ والفوزُ بالجنة، قال تعالى:﴿ **وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا** (٧١) **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** (٧٢)﴾[مريم] وقال تعالى:﴿ **وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ** (٦٠) **وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**(٦١)﴾[الزمر] وقال تعالى:﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ**(١٥) ﴾[الذاريات] وقال تعالى:﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ**(٥٤)﴾ [النجم] وقال تعالى:﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ**(١٧)﴾[الطور] وقال تعالى:﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ**(٤١) ﴾ [المرسلات]

وهكذا ظهر لنا أن التقوى هي سبب الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة وهذا ما أجمله ربنا سبحانه في قوله :﴿ **أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**(٥) ﴾ [البقرة]

* * *

الإيمَـــانُ باللــه

قال تعالى:﴿ **الم(١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ(٣)**﴾ [البقرة]، وأصلُ الغيبِ كلُّ ما غاب عنك ولم تـره عينُـك، وأصـلُ الإيمانِ التَّصديق بكلِّ ما سمعتَ عنهُ ولم تره. والمرادُ بالإيمـانِ بالغيـبِ فـي الشرع الإيمانُ باللهِ وملائكتهِ وكتُبهِ ورُسلهِ واليومِ الآخرِ وما فيهِ مـن حسـابٍ وجزاءٍ وجنَّةٍ ونار، والإيمانُ بالقدر،كما قال ربُّنا سبحانهُ في سورةِ البقرةِ نفسِها: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ(١٧٧)**﴾ [البقرة].

والإنسانُ لا يُؤمنُ بما غاب عنهُ إلا إذا قامت الأدلَّةُ والبراهينُ والشواهدُ على وجودِ هذا الغيب،فأنتَ مثلاً إذا سمعتَ من المذياعِ أنَّ فلاناً من الملوكِ والرؤساءِ زار بلدَ كذا آمنتَ به وصدَّقت، وحصل عندك يقينٌ بأنَّ فلاناً زار ذاك البلد،وأنتَ لم تره حين دخلَ ولا حين خرج،وأنتَ كذلك حين تدخلُ بيتَك فترى شيئاً في غير محلِّهِ أو ترى شيئاً جديداً تُبادرُ بالسؤال: من نقل هذا من موضعه؟ ومن أحضر هذا الشيء الجديد؟ لأنَّك تعلمُ علمَ اليقين أنَّ هذا الشيءَ لا يمكنُ أن ينتقلَ بنفسه داخلَ البيت من مكانٍ لآخر، كما تعلمُ أنَّ هذا الشيء الجديدَ لا يمكنُ أن يدخلَ البيتَ بنفسه بل لا بُدَّ أن يكونَ وراءهُ إنسانٌ أحضرهُ لهذا المكان.

وإذِ الأمرُ كذلكَ فنحنُ نقول: أَصلُ الإيمانِ بالغيبِ الإيمانُ بالله،وهو علـى أربعِ مراتب:الإيمانُ بوجوده،والإيمانُ بربوبيَّتـه،والإيمانُ بألوهيَّتـه، والإيمـانُ بأسمائه وصفاته.

أمَّا الإيمانُ بوجودِ اللهِ تعالى فإنَّ العلماءَ استدلُّوا عليهِ بأربعةِ أنواعٍ من الأدلّة هي: العقلُ والشَّرع، والفطرةُ والحسُّ.

أمَّا الاستدلالُ بالعقلِ والشَّرع فإنَّ النَّاظرَ في ملكوت السَّموات والأرضِ يرى فيهما الكثيرَ والكثيرَ من الآياتِ الدَّالَّةِ على وجودِ اللهِ تعالى، فهذه السَّمواتُ بارتفاعها وشدَّة بنائها وما فيها من كواكبَ ونُجومٍ تسيرُ بانتظام بلا خللٍ ولا صِدام، ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٤٠) ﴾ [يس] هذه السَّمواتُ بارتفاعها وإمساكها عن الوقوع على الأرض تدلُّ على أنَّ لهذا الكون مدبِّراً، لأنَّ العقلَ السليم يُحيل أن توجدَ هذه السمواتُ وما فيها بنفسها كما تُحيلُ أن توجد من غير موجد، وهذا هو ما قرَّره اللهُ سبحانه بقوله ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ(٣٥)﴾[الطور]؟ والجوابُ على طرفي السؤال بالنَّفي: أم خُلقوا من غير شيء؟ لا، لأنَّهُ لا يُمكن للعدم أن يخلق، أم هم الخالقون؟ أيضاً لا، لأنَّ العدمَ ليس له من نفسه وجودٌ ولا عدم، فلا بُدَّ إذنْ من خالق، ذلك الخالقُ هو الله سبحانه وتعالى.

هذه الأرضُ وما فيها وما عليها، هذه الأرضُ باتِّساعها وطولها وما عليها من جبال وما يجري فيها من بحار وأنهار، وما يخرج منها من زروع وثمار كلُّ ذلك من صُنْعِ مَن؟ كلُّهُ من صنع ربي،﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ(٨٨)﴾ [النمل]

والمتأمِّلُ في كتاب ربِّنا يجد الربَّ عزَّ وجلَّ كثيراً ما يُشير إلى هذه الآيات ويأمر بالنَّظر المتأمِّلِ فيها :

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨)هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩)﴾ [البقرة] ﴿ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ

السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧)رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩)وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا(٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا(٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا(٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ(٣٣) ﴾ [النازعات]، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣)ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ(٤)﴾ [الملك]، ﴿ وَءَايَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤)لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ (٣٦) وَءَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧)وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٣٨)﴾ [يس]، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧)وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨)وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩)وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(٢٠) ﴾[الغاشية]، أفلا ينظرونَ ويتأمّلونَ ويتدبّرون فيعلمونَ أنَّ لهذا الكونِ إلهاً؟ فبهذا كان العربُ قديماً يستدلُّونَ على اللهِ سبحانهُ وتعالى، ولذا أُثرَ عن بعضهم أنَّهُ قيل له: بمَ عرفتَ ربَّك؟ فقال: إنَّ البعرَ يدلُّ على البعير، وإنَّ الأثرَ يدلُّ على المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراج، وأرضٌ ذاتُ فجاج،وبحارٌ ذاتُ أمواج، أفلا يدلُّ ذلك على وجودِ اللطيف الخبير؟

ورُوي عن الإمامِ أبي حنيفةَ رضي اللهُ عنهُ: أنَّ قوماً من أهلَ الكلام أرادوا البحثَ معهُ في تقريرِ توحيد الألوهية، فقال لهم:أخبروني قبل أن نتكلّمَ في هذه المسألةِ عن سفينةٍ في دجْلةَ، تذهبُ وتمتلئُ من الطعام والمتاعِ وغيره بنفسها، وتعودُ بنفسها، فترسي بنفسها، وتفرغُ وترجعُ، كلُّ ذلك من غيرِ أن

يُدبِّرَها أحدٌ؟! فقالوا: هذا مُحالٌ لا يُمكنُ أبدا! فقال لهم: إذا كان هذا مُحالاً في سفينةً فكيفَ في هذا العالمِ كلِّه، عُلْوِه وسُفْله!![1]، قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٢٥٨)** ﴾ [البقرة].

وأمَّا الاستدلالُ بالفطرةِ والحسِّ على وجودِ اللهِ فإنَّ كلَّ إنسانٍ إذا نزلت بهِ نازلةٌ وعجز عن دفعها وجد نفسَهُ مندفعاً إلى النداءِ والاستغاثةِ باللهِ وحدهُ دون سواه، فيقولُ مضطَّراً: يا الله! يا الله! فإذا به يُجابُ إلى ما سأل، فيُكشف عنهُ ما سألَ كشفَهُ أو يُعطى ما طلبه، وهذا شيءٌ محسوسٌ ومُجرَّبٌ، دعتْ إليهِ الفطرةُ التي فطر اللهُ النَّاسَ عليها، وهو دليلٌ على وجودِ الله السَّميع البصير، اللطيفِ الخبير، وفي ذلك يقولُ اللهُ تعالى: ﴿ **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ(٦٢)** ﴾ [النمل]

وهكذا يجدُ الإنسانُ نفسَهُ مضطَّراً إلى الإيمانِ بوجودِ الله، وهو أوَّلُ مرتبةٍ من مراتب الإيمان .

أمَّا المرتبةُ الثانية فهي الإيمانُ بربوبيَّةِ اللهِ تعالى، ومعناه الإيمانُ بأنَّ اللهَ وحدهُ هو الخالقُ الرازق، المحيي المميت، مالكُ الملك ومُدبِّر الأمر، قال تعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ(١)** ﴾ [الملك]، ﴿ **فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٣)** ﴾ [يس]، ﴿ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ(٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(٥٠)** ﴾ [الشورى]، ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ**

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية(٨٣).

تؤتي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾ [آل عمران]

فاللهُ وحدهُ هو خالقُ الخلق، ومالكُ الملك،لا خالقَ غيرُه، ولا مالكَ سواه، ومن مَلكَ من المخلوقينَ شيئاً فإنّما هو مُلْكُ عيرةٍ لا مُلْك حقيقة، لأنَّهُ إذا مات ترك كلَّ شيءٍ ونُزعتْ ملكيتُهُ، ثمَّ يُبعثُ يومَ القيامة وحدهُ لا شيءَ معه،كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ (٩٤) ﴾ [الأنعام]، ويومَ القيامة يطوي اللهُ تعالى السمواتِ والأرضينَ ثُمَّ يقولُ: أنا الملك! أينَ ملوكُ الأرض؟ ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]،

واللهُ سبحانهُ هو الذي يُدبِّر أمرَ كلِّ شيء، فما شاء كان وإن لم يشأ العباد، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء العباد، وبهذا استدلَّ عقلاءُ العرب على ربوبية الله، قيل لأعرابيٍّ: بمَ عرفتَ ربَّك؟ قال:بنقضِ العزائمِ وصرفِ الهمم.كثيراً ما يهمُّ الإنسانُ بأمرٍ ما ثمَّ يرجعُ عن همِّهِ من غير سببٍ ظاهر، وكثيراً ما يعزمُ على فعلِ شيءٍ ثمَّ يتركهُ، وهذا دليلٌ على أنَّ لهذا الإنسانِ ربًّا يُدبِّر أمرهُ وفقَ مشيئته.

المرتبةُ الثالثة: الإيمانُ بألوهيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ومعناهُ الاعتقادُ والإقرارُ بأنَّ اللهَ وحدهُ هو المستحقُّ للعبادةِ دون غيره، فكما خلق وحدهُ يجبُ أن يُعبدَ وحده، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾[البقرة]

وقال تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩) ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ(٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ(٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٦٤) هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٦٥) ﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(٤٠) ﴾ [الروم].

وبهذا التوحيد أرسل الله الرُّسلَ وأنزل الكتب،قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون(٢٥) ﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ(٢) ﴾ [النحل]، ولذلك اتفقت كلمةُ الأنبياء على: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ(٥٩) ﴾[الأعراف].

وهذا التوحيدُ هو سببُ النجاة، وتركهُ سببُ الهلاك،قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا(١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا(١٧٣) ﴾[النساء]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ

يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا(٤٨) ﴾ [النساء]، وقال تعالى:﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ(٧٢) ﴾ [المائدة]

وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الْمُوجِبَتَانِ؟ فَقَالَ : «مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ» (١)

المرتبةُ الرابعةُ: الإيمانُ بأسماء اللهِ تعالى وصفاته، فاللهُ سبحانهُ ذات، وكلُّ ذاتٍ لا بُدَّ لها من أسماءَ وصفات، وأسماءُ اللهِ تعالى وصفاتهُ توقيفيَّةٌ، لايجوز لأحدٍ أن يُسمِّيَ اللهَ تعالى أو يصفَهُ إلاَّ بما سمَّى اللهُ به نفسَهُ أو سمَّاهُ به رسلُه، وكلُّ ما سمَّى اللهُ به نفسَهُ وجب الإيمانُ به من غير تمثيلٍ ولا تعطيل، ولا تكييفٍ ولا تحريف، وقوفاً عند قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**(١١) ﴾ [الشورى]

* * *

---

(١)م(١/٩٤/٩٣).

الإِيمَـانُ بِالْمَلائِكَـةِ

ورد ذكرُ الملائكةِ في سُورة البقرة في تسع مواضع، قال تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً(٣٠)﴾ ، وقال تعالى﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ(٣١)﴾،، وقال تعالى﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ(٣٤)﴾ ،وقال تعالى﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)﴾ ، وقال تعالى﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٦١)﴾ ، وقال تعالى:﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ (١٧٧)﴾ ، وقال تعالى﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ(٢١٠)﴾ ، وقال تعالى:﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَى وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ(٢٤٨)﴾ ، وقال تعالى﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ(٢٨٥)﴾ .

والإيمانُ بالملائكة ركنٌ من أركان الإيمان، كما قال تعالى﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ(١٧٧)﴾ [البقرة]، وقال:النبي ﷺ : "**الإيمَانُ أَنْ تُـؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** "(١)، فمن أنكر وجودَ الملائكة فقد كفر، قال تعالى﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا(١٣٦)﴾ [النساء]، ومن عاداهم أو أحدَهم فقد كفر، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ(٩٨)﴾ [البقرة]،

---

(١) سبق تخريجه قريباً .

عَنِ ابْنِ عَبَاسٍ أَنَّ الْيَهُودَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ : "مَنْ صَاحِبُكَ مِنَ الْمَلاَئكَةِ؟ قَالَ:جِبْرِيل.قَالُوا: ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ وَالْقِتَال وَالْعَذَاب عَدُوُّنَا، لَوْ كَانَ مِيكَائِيلَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّبَاتِ وَالْقَطْرِ لَكَانَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الآيَة "(١)

وعالمُ الملائكةِ من عوالمِ الغيبِ التي لا سبيلَ إلى معرفتها إلاَّ بالوحي، ومن تكلَّم عن الملائكةِ بغير ما قال الوحيُ فيهم فقد احتمل بُهتاناً وإثماً مُبينا، وقد عرفنا من الوحيِ أصلَ خِلقتهم، وصفاتهم الخِلْقيَّة والخُلُقيَّة، وعلاقتَهم باللهِ تعالى، وبالكون، وعلاقتَهم بالإنسان عموماً وبالمؤمنين خصوصا.

أمَّا عن أصل خِلقتهم: فإنَّهم خُلقوا من نور:

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ "(٢).

وأمَّا صفاتهم الخِلقيَّة: فهم خَلقٌ عظيم، ذووا أجنحةٍ مثنى وثلاث ورباع وأكثر من ذلك، قال تعالى:﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١) ﴾[فاطر]، وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(٦) ﴾[التحريم] **عَنِ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ زِرًّا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى﴿** فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى(٩) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى(١٠) ﴾ [النجم] **قَالَ: "أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ "(٣).**

---

(١) حسن :[أسباب النزول:٢و٣] : حم (١٦٥/٧٣و٧٤/١٨)، طب(١٢٤٢٩/٤٥و٤٦/١٢).

(٢) م(٢٩٩٦/٢٢٩٤/٤).

(٣) متفق عليه:خ(٣٢٣٢/٣١٣/٦)،م(١٧٤/١٥٨/١)،ت(٣٣٣١/٦٨و٦٩/٥).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ "(١)

وهم مع عظمة خَلقهم أجسامٌ لطيفة، جميلة كريمة، ذاتُ صورةٍ حسنة، كما قال تعالى عن جبريلَ عليه السلام: ﴿**ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى**(٦) ﴾ [النجم]، قال ابنُ عباس: "**أي ذو منظرٍ حسن** "(٢)

وجمالُ الملائكةِ مُقرَّرٌ عند الناسِ مغروسٌ في نفوسهم،حتى إنَّهم إذا أرادوا المبالغةَ في وصف جمالِ أحدٍ شبَّهوه بالملائكة، كما حكى اللهُ تعالى عن صواحب يوسف عليه السلام، ﴿**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ**(٣١) ﴾ [يوسف] .

وللملائكةِ القدرةُ على التشكُّل بأشكالٍ مختلفة، كما قال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا**(١٦) **فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**(١٧) ﴾ [مريم]

وَعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَايَقُولُ"(٣)

أمَّا صفاتهم الخُلُقيَّةُ فإنَّ اللهَ سبحانه وصفهم بأنَّهم﴿**كِرَامٍ بَرَرَةٍ**(١٦) ﴾ [عبس]

---

(١)صحيح :[ص.د:٣٩٥٣]،د(١٣/٣٦/٤٧٠١).

(٢) جامع البيان(٢٧/٤٢).

(٣)متفق عليه :خ(١/١٨/٢)،م(٤/١٨١٦/٢٣٣٣)،ت(٥/٢٥٨/٣٧١٣)،ن١٤٦و٢/١٤٧).

ومن أخصِّ صفاتهم الحياء: **عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقَيْهِ فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ فَتَحَدَّثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَوَّى ثِيَابَهُ. فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ؟! فَقَالَ أَلاَ أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلاَئِكَةُ "**[1].

والملائكةُ لا يوصفون بذكورةٍ ولا أنوثة، ولقد ضلَّتِ العربُ إذ جعلت الملائكةَ إناثاً، فكذَّبهم اللهُ تعالى وأخبر أنَّهم سيُسألون عن قولهم الإثم ، فقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى**(٢٧) **وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**(٢٨) ﴾[النجم]، وقال تعالى:﴿ **وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ**(١٩) ﴾[الزخرف] .

والملائكةُ لا يأكلون ولا يشربون، قال تعالى:﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ**(٢٤) **إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ**(٢٥) **فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ**(٢٦) **فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ**(٢٧) **فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ**(٢٨) ﴾ [الذاريات] .

وأمَّا عن علاقة الملائكةِ باللهِ عزَّ وجلَّ: فالملائكةُ خلقٌ من خلقِ الله، وعبادٌ من عباده، مخلوقون مملوكون مربوبون، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا، قال تعالى:﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ**(٢٦)

---

(١) م(٤/١٨٦٦/٢٤١).

لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ(٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ(٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَـهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٢٩)﴾ [الأنبياء] .

فهم عبادٌ لله، فطرهم على طاعته، وعصمهم من معصيته، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(٦) ﴾[التحريم]

وهم مشغولون بعبادةِ الله بالليل والنهار، لا يكلُّون ولا يملُّون، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ(٢٠)﴾[الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ(٣٨) ﴾[فصلت] .

ومن عبادتهم الصلاة، كما حكى اللهُ تعالى عنهم : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ(١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ(١٦٦) ﴾[الصافات]، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ(٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(٥٠) ﴾[النحل]. وهم يهتمُّون بتسوية صفوفهم في الصلاة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ(١٦٥) ﴾ [الصافات]، وقوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا(١) ﴾[الصافات]، قال مسروق : هي الملائكة[١] ،

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَآنَا حَلَقًا فَقَالَ : "مَالِي أَرَاكُمْ عِزِينَ" قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: "أَلا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا " فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: "يُتِمُّونَ

---

(١) جامع البيان(٢٣/٣٣).

الصُّفُوفَ الأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ »(١) .

ومن عبادتهم الحجُّ إلى البيت المعمورِ في السماء السابعة، كما قال النبيُّ ﷺ في حديث المعراج: « **ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السابعة فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام قِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ. قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ .قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْه. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ »**(٢).

أمَّا علاقتهم بالكون: فهم الذين يُدبِّرون حركته ويرعون شئونَه، بتكليفٍ من اللهِ لهم، كما قال تعالى: ﴿ **فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا**(٥) ﴾ [النازعات] ، وقال تعالى : ﴿**فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا**(٤) ﴾ [الذاريات]، والمرادُ الملائكة، تُدبِّر أمرَ المخلوقات بإذن الله، طاعةً له، لا ابتداءً من أنفسهم، فإنَّهم كما وصفهم اللهُ، ﴿**لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**(٢٧) ﴾ [الأنبياء].

وقد وكَّل اللهُ تعالى بالسموات ملائكةً، وبالجبال ملائكة، وبالسحاب ملائكة، وبالمطر ملائكة، ووكَّل بالوحي ملائكة، وبالموت ملائكة، وبالجنَّة ملائكة، وبالنار ملائكة، قال تعالى: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**(١١) ﴾ [السجدة]، وقال تعالى:﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**(٥٠) ﴾ [الأنفال] ، وقال تعالى: ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ**(٧١)

---

(1) م(١/٣٢٢/٤٣٠)،د(٢/٣٦١/٦٤٧)،ن(٢/٩٢)،جه(١/٣١٧/٩٩٢).

(2) م(١/١٤٥/١٦٢_١/١٤٧).

قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ(٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ(٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(٧٤) وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٧٥) ﴾ [الزمر] .

وأمَّا علاقةُ الملائكةِ بالإنسانِ فإنَّها تبدأُ من حين تقع النُّطفةُ في الرَّحم حتى يخرج بشراً سوياً، ثمَّ لا يُفارقونه حتى يستقرَّ في القرار الأبديِّ، في الجنة أو النار .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا يَقُولُ يَا رَبِّ نُطْفَةٌ! يَا رَبِّ عَلَقَةٌ! يَا رَبِّ مُضْغَةٌ! فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ قَالَ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ وَالْأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ »(١).

فإذا بلغ الإنسانُ مبلغَ الرجالِ،وصار مكلَّفاً بالأعمال،وكَّل اللهُ به ملائكةً تحفظ أعمالَه،قال تعالى:﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ(١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ(١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ(١٢) ﴾[الانفطار]، وقال تعالى:﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ(١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(١٨) ﴾ [ق] .

فإذا انتهى أجلُ الإنسانِ توفتهُ الملائكة،كما قال تعالى:﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ(٦١) ﴾[الأنعام]، فإن كان مؤمناً بشَّرتْهُ الملائكةُ بالجنَّة،وإن كان كافراً بشَّرتهُ بالنار،قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ

(١) متفق عليه:خ(٣١٨/٤١٨/١)،م(٢٦٤٦/٢٠٣٨/٤).

التي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ(٣٢) ﴾[فصلت]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ(٩٣) ﴾[الأنعام]، فإذا دُفنَ « أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ. فَيَقُولانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ دِينِيَ الإِسْلامُ، فَيَقُولانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَقُولانِ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا الآيَةُ(٢٧) ﴾[إبراهيم] فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، قَالَ فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا ، وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ،

وَأَمَّا الْكَافِرَ فَيَقُولانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ هَاهْ لا أَدْرِي، فَيَقُولانِ لَهُ مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي، فَيَقُولانِ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا ، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاعُهُ، ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا ، فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ فَيَصِيرُ تُرَابًا ، ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ »(١).

فإذا نُفخ في الصور، وبُعثر ما في القبور، تلقَّت الملائكةُ المؤمنينَ مبشِّرين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ(١٠١) لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ(١٠٢)

---

(١) صحيح: [ص.د:٣٩٧٩]، د(٤٧٢٧/٨٩_١٣/٩٢).

لايَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(١٠٣) ﴾ [الأنبياء]، فإذا جاء الربُّ سبحانه لفصلِ القضاء، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا(٢٢) ﴾[الفجر]، ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ(٢١) ﴾[ق]، فإذا قُضي بينهم بالحق، ودخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ، تولَّت الملائكةُ إكرامَ أهل الجنة، وتعذيب أهل النار.

وأمَّا علاقةُ الملائكةِ بالمؤمنين فإنَّها علاقةُ مودَّةٍ ومحبَّة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ "(١).

ومن شدَّة المحبة أنَّهم يستغفرون اللهَ للمؤمنين، ويسألونه الجنةَ لهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٩) ﴾[غافر]

ومن محبتهم أنَّهم يحضرون معهم الطاعات، ويشهدون الجمعةَ والجماعات:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ،

---

(١) متفق عليه:خ(٧٤٨٥/٤٦١/١٣) مختصراً،م(٢٦٣٧/٢٠٣٠/٤)،ت(٥١٧١/٣٧٨/٤).

وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ »[١]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :« إِنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، قَالَ فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا »[٢] .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الْفَجْرِ وَصَلاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[٣].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَقَفَتِ الْمَلائِكَةُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ يَكْتُبُونَ الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ، وَمَثَلُ الْمُهَجِّرِ كَمَثَلِ الَّذِي يُهْدِي بَدَنَةً، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي بَقَرَةً، ثُمَّ كَبْشًا، ثُمَّ دَجَاجَةً، ثُمَّ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ طَوَوْا صُحُفَهُمْ وَيَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ»[٤].

ومن علامات كمال محبَّة الملائكة للمؤمنين أنَّهم يُقاتلون معهم الكافرين، كما حدث في بدرٍ وأحد،قال تعالى:﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ(١٢) ﴾[الأنفال]

---

(١) م(٤/٢٠٧٤/٢٦٩٩)،ت(٤/٢٦٥/٤٠١٥)،جه(١/٨٢/٢٢٥).

(٢) متفق عليه:خ(١١/٢٠٨/٦٤٠٨)،م(٤/٢٠٦٩/٠٢٦٨٩)،ت(٥/٢٣٧/٣٦٧٠).

(٣) متفق عليه:خ(٢/٣٣/٥٥٥)،م(١/٤٣٩/٦٣٢)،ن(١/٢٤٠و٢٤١).

(٤) متفق عليه :(٢/٤٠٧/٩٢٩)، م(٢/٥٨٧/٨٥٠).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِنِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ! كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ. قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ وَأَسَرُوا سَبْعِينَ»[١].

* * *

(٢)م(١٧٦٣/١٣٨٣-١٣٨٥/٣).

الإيمان بالنبيين والكتب المنزلة على المرسلين

قال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ(١٧٧) ﴾ [البقرة]، وقال تعالى في حق المتقين: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ(٤) ﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ(٢٨٥) ﴾ [البقرة] ، وقَالَ النَّبِيِّ ﷺ « الإِيمَانِ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ »(١) .

وحاجةُ الناس إلى الرُّسلِ والكتبِ فوق كلِّ حاجة، وضرورتُهم إليهم فوق كلِّ ضرورة، فهم الذين يُعرِّفون النَّاسَ بفاطرهم وبارئهم، وأسمائه وصفاته، والطريقِ الموصِّلَة إليه، وما يجب له عليهم وما أوجبه لهم عليه، فمن اتَّبعهم فقد هُدي إلى صراط مستقيم، وفاز بسعادة الدنيا وكان في الآخرة من ورثة جنة النعيم، ومن كذَّبهم وخالفهم فقد ضلَّ سواءَ السبيل وهو في الآخرة من الخاسرين قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ(١٢) ﴾ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ(٦٩) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠)

---

(١) م(١/٣٦/٨)، ت(٤/١٢١-١١٩/٢٧٣٨)، د(١٢/٤٦٤-٤٥٩/٤١٧٠)، جه(١/٢٤/٦٣).

إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ(٧١)فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ(٧٢)﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾[هود]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)﴾[هود]، وقال تعالى:﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً(١٠)﴾[الحاقة]، وقال تعالى:﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (٤٢)﴾[النساء]، وقال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ (٦٧) رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا(٦٨)﴾[الأحزاب].

والإيمانُ بجميع المرسلين واجبٌ، والكفر ببعضهم كفر بجميعهم، ولذلك قال اللهُ تعالى على لسانِ رسوله والمؤمنين:﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه(٢٨٥)﴾ [البقرة]، وجعل التفريقَ بينهم كفراً فقال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا(١٥١)﴾[النساء].

وقد بعث اللهُ مائةً وأربعةً وعشرينَ ألفَ نَبِيّ، وأرسل منهم ثلاثمائةٍ وخمسةَ عَشَرَ رسُولاً .

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: "قُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله! أَيُّ الأَنْبِيَاءِ أَوَّلُ؟ قَالَ: آدَمُ عَلَيْهِ السَّلام، قَالَ:قُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله! أَوَ نَبِيٌّ كَانَ آدم؟ قَالَ: نَعَمْ، نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ، خَلَقَهُ الله بِيَدِهِ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِه، ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا آدَمُ قِبَلاً قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله! كَمْ وَفَّى عَدَدُ الأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ مِائَةُ أَلْف وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفاً، الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلاثُمِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ، جَمّاً غَفِيرًا "(١)

فالإيمانُ بهذه الجملةِ على العمومِ واجب، والإيمانُ بمن سُمِّي منهم في القرآن على الخصوص واجب، قال اللهُ تعالى لرسوله محمدٍ ﷺ :﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (٧٨)﴾[غافر]، وممَّنْ سَمَّى اللهُ تعالى المذكورونَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا(١٦٤)﴾[النساء]، وقال تعالى:﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ(٨٦)﴾ [الأنعام].

ومن الإيمانِ بالرسل الإيمانُ بأنَّهم أفضلُ الخَلقِ على الإطلاق،وأكثرُهم علماً، وأحسنُهم عملاً، وأصدقُهم حديثاً، وأكملُهم أخلاقاً، وبأنَّ اللهَ خصَّهم بفضائلَ

---

(١) صحيح: [س.ص:٢٦٦٨]، حب(٢٠٨٥/٥٠٩)، طب(٧٥٤٥/١٣٩و١٤٠/٨)، طس (٤٧٢١/١٥٣/٥).

لا يُحصِّلُها غيرُهم، وأنَّ اللهَ لم يخصَّهم بطبائعَ غيرِ طبائعِ البشر، إنَّما اختارهم رجالاً يأكلونَ ويشربون، يبولونَ ويتغوَّطون، ويتزوَّجون ويتناسلون، ويمشون في الأسواق يبيعونَ ويشترون، **﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ(٣٤)﴾**[الأعراف]، قال تعالى:**﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ(٢٠)﴾**[الفرقان]، وقال تعالى:**﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً (٣٨)﴾**[الرعد]، وقال تعالى: **﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ (٧٥)﴾**[المائدة]، فالواجبُ احترامُهم وتوقيرُهم من غير إفراطٍ ولاتفريط، وإنزالُهم منازلَهمُ التي أنزلهموها اللهُ عزَّ وجل، عبادٌ مُكرمون، لايملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وهم من جملة البشر، تعتريهم الأسقامُ والأوجاع، وينالهم الأذى من الأعداء، ويموتون كما يموت سائرُ النَّاس وربَّما يُقتلون .

ومن الإيمانِ بالرسل الإيمانُ بأنَّ الرسولَ أفضلُ من النَّبيِّ، وأنَّ أفضلَ الرسل أولو العزم منهم، وهم خمسةٌ ذكرهم اللهُ تعالى في قوله:**﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧)﴾**[الأحزاب]، وقال تعالى:**﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ(١٣)﴾**[الشورى]، وأفضلُ أولي العزمِ الخليلانِ إبراهيمُ ومحمدٌ، وأفضلُ الخليليْنِ محمدٌ ﷺ .

قال تعالى:**﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ(٢٥٣)﴾**[البقرة]، **وقال ﷺ : "أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"**(١)

---

(١) متفق عليه :خ(٤٧١٢/٣٩٥/٨)، م(١٩٤/١٨٤/١)، ت(٢٥٥١/٤٣/٤).

ومن الإيمانِ بالرُّسلِ الإيمانُ بأنَّ محمدا ﷺ خاتم النبيين كما قال تعالى: ﴿مَاكَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ(٤٠)﴾[الأحزاب]،

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ! فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ »[1] .

فمن ادَّعى النُّبُوَّةَ بعد محمدٍ ﷺ فقد افترى على اللهِ الكذب، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ(٩٣)**﴾ [الأنعام].

وَعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلاَثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي "[2] .

وفي حديث أبي أُمامةَ ما يدلُّ على الفرق بين النبيِّ والرسول ، حيثُ ذكر ﷺ أنَّ الأنبياءَ مائةٌ وأربعةٌ وعشرونَ ألفاً، وأنَّ الرسلَ منهم ثلاثمائة وخمسةَ عشر، وللعلماء في الفرقِ بين الرسولِ والنبيِّ أقوال، أرجحُها قولُ الزمخشريِّ ومن وافقه أنَّ الرسولَ من جمعَ إلى المعجزةِ الكتابَ المنزَّلَ عليه، والنبيَّ من لم يُنزَّل عليه كتاب، وإنَّما أُمِرَ أن يدعو الناسَ إلى شريعةِ من قبله، كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا فيما بين موسى وعيسى عليهما السلام، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا(٤٤)** ﴾[المائدة][3]

---

(١) متفق عليه:خ(٦/٥٥٨/٣٥٣٥) ، م(٤/١٧٩٠/٢٢٨٦).

(٢) صحيح:[ص.د:٣٥٧٧]، د(١١/٣٢٢/٤٢٣٢)،جه(٢/١٣٠٤/٣٩٥٢).

(٣) السلسلة الصحيحة(٢٦٦٨).

والإيمانُ بالكتبِ المنزّلةِ على المرسلينَ رُكنٌ من أركانِ الدين، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ(١٧٧) ﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ(٤) ﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٢٨٥) ﴾ [البقرة]

وقال النبيُّ ﷺ «**الإيمَانِ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**» (١)

وقد أمرنا اللهُ تعالى بالإيمانِ بالكتبِ المنزّلةِ على المرسلين فقال: ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(١٣٦) ﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿ وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(٤٦) ﴾[العنكبوت]

وكذلك أمر اللهُ تعالى أهلَ الكتابِ بالإيمانِ بما أُنزلَ إلينا،فقال تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ(٤٠) وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ(٤١) ﴾ [البقرة]، وعلّق هدايتَهم على

---

(١) سبق قريبا.

الإيمانِ بما آمنّا به،فقال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٣٧) ﴾ [البقرة]

والإيمانُ بالكتبِ معناهُ الإيمانُ بكلِّ ما أنزلَ اللهُ من كتابٍ على وجهِ الإجمال،كما قال اللهُ تعالى لرسولهِ ﷺ : ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ(١٥) ﴾ [الشورى]

ثمَّ الإيمانُ بما سمَّى الله تعالى من الكتبِ في القرآن، كالتوراة، والإنجيل ، وزبور داود ، وصحف إبراهيم وموسى،قال تعالى : ﴿الم(١) اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ(٢)نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ(٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ(٤) ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى:

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا(١٦٣) ﴾[النساء] ،وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى(١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى(١٩) ﴾[الأعلى]

ومن الجدير بالذِّكرِ أنَّ أهلَ الكتابِ قد غيَّروا كُتبهم وحرَّفوها،وزادوا فيها ونقصوا منها،كما أخبرنا ربُّنا سبحانه بذلك،قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(٧٥) ﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ(٧٩) ﴾[البقرة]. لذلك لا يجوزُ الجزمُ بأنَّ شيئاً ما بعينه مما يُنسبُ إلى تلك الكتب لا يجوز الجزمُ بأنه كلام الله،وإن كنا نؤمن بعموم الكتاب.

أما القرآنُ الكريم فهو محفوظٌ بحفظ اللهِ من التغيير والتبديل،قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(٩) ﴾[الحجر]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ(٤١) لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(٤٢) ﴾[فصلت]. ومن يكفر بالقرآنِ فهو كافرٌ بالله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ(٩٩) ﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ(٩٠) ﴾[البقرة].

ومن الإيمانِ بالقرآنِ اتِّباعهُ،والعملُ به، والتحاكمُ إليه،قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٢١) ﴾[البقرة].

نسألُ اللهَ تعالى أن يُعيننا على ذلك . آمين .

* * *

الإيمانُ بِالْيَوْمِ الآخِرِ

قد جاءَ ذِكرُ اليومِ الآخرِ في سورةِ البقرةِ في سبعةِ مواضع :

قال تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ(٨) ﴾ ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢) ﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ(١٢٦) ﴾ ، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ(١٧٧) ﴾ ، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ(٢٢٨) ﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ(٢٣٢) ﴾ ، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ(٢٦٤) ﴾.

واليومُ الآخرُ هو يومُ القيامة، وقد جاء ذكرُه كذلك في سورةِ البقرةِ في أربعةِ مواضع :

قال تعالى : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ(٨٥) ﴾ ، وقال تعالى:﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ

يَخْتَلِفُونَ(١١٢) ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّـهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّـهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٤) ﴾ ، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ(٢١٢) ﴾ .

فاليومُ الآخرُ هو يومُ القيامة، واليومُ الأوّلُ هو الدُّنيا، وقد جمع اللهُ تعالى بين الدُّنيا والآخرةِ في سورة البقرةِ في موضعين، فقال تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢١٧) ﴾ ، وقال تعالى:﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّـهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ(٢٢٠) ﴾ ، يعني لعلّكم تتفكرون في زوالِ الدُّنيا وفنائها، وإقبالِ الآخرة وبقائها، لتعلموا فضلَ الآخرة على الدُّنيا، وأنَّ الدنيا دارُ بلاءٍ ثُمَّ دارُ فناء، وأنَّ الآخرةَ دارُ جزاءٍ ثُمَّ دارُ بقاء[١]، فتؤثروا ما يبقى على ما يفنى، وتكونوا من أبناء الآخرةِ ولا تكونوا من أبناء الدنيا، كما قال عليٌّ رضي الله عنه:**إنَّ الدُّنيا قد ارتحلَتْ مُدبرة، وإنَّ الآخرةَ قد ارتحلت مُقبلة، ولكُلٍّ منهما بنون، فكونوا منْ أبناء الآخرة ولاَ تكونوا من أبناءِ الدُّنيا، فإنَّ اليومَ عملٌ ولاَ حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل**[٢] .

والإيمانُ باليوم الآخرِ ركنٌ من أركانِ الإيمان، كما قال تعالى في مطلع السورة:﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤)﴾ ، وقال تعالى:﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ

---

(١) ابن كثير(١/٢٥٦).

(٢) فتح الباري(١١/٢٣٥).

وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ(١٧٧)﴾ [البقرة]،

وقال النبيُّ ﷺ :" **الإيمانُ أنْ تُؤمنَ باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليومِ الآخر**»(١).

والإيمانُ باليومِ الآخرِ من أهمِّ أركان الإيمان،ولذلك قُرن بالإيمان بالله كما في الآيات السابقة،وحكمَ اللهُ تعالى على الكافرين باليوم الآخرِ بالكُفرِ به سبحانه فقال: ﴿**وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٥)** ﴾ [الرعد]

ولقد بعث اللهُ الرسُلَ إليهِ داعين، وبلقائه منذرين، قال تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ(٧١)** ﴾[الزمر]، وهذا اعترافٌ من أصنافِ الكافرينَ الدَّاخلينَ جهنَّمَ أنَّ الرُّسلَ أنذرتهم لقاء يومهم هذا، قال اللهُ تعالى لآدمَ وإبليسَ عند نزولِهم من الجنة: ﴿**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ(٢٥)** ﴾[الأعراف]، وكان آدمُ نبيًّا مُكلَّماً فأنذر أولادَه لقاءَ يومهم هذا حتى استقرَّ في نفوسهم الإيمانُ باليوم الآخر وما فيه من بعثٍ وحسابٍ، وثوابٍ وعقاب وجنَّة ونار، ولذلك لما أغوى إبليسُ أحدَ بني آدمَ بقتل أخيه قال لهُ أخوهُ: ﴿**لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ**

---

(١) سبق تخريجه قريباً .

الْعَالَمِينَ(٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ(٢٩) ﴾[المائدة]، ولما أغوى الشيطانُ بعضَ أبناءِ آدمَ فأخرجهم من النُّورِ إلى الظلمات بعث اللهُ تعالى نوحاً عليه السلام يدعوهم إلى العودةِ إلى نور الإيمانِ، وينذرهم لقاءَ الرحمن، قال تعالى حكايةً عن نوحٍ عليه السلام أنَّه قال لقومه: ﴿مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا(١٣)وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا(١٤)أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا(١٥)وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا(١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا(١٧)ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا(١٨) ﴾[نوح]،

وقال تعالى حكايةً عن الخليلِ إبراهيمَ عليه السلام أنَّه قال لقومه: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ(٧٥)أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ(٧٦)فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ(٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(٧٨)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(٧٩)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(٨٠)وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ(٨١)وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ(٨٢) ﴾[الشعراء]، ولما اختار اللهُ تعالى موسى عليه السلام لحمل الرسالة ناداه: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى(١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى(١٣)إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي(١٤) إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى(١٥) فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى(١٦) ﴾[طه]، ولما تكلَّم عيسى في المهدِ صبيًّا: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا(٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا(٣١)وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا(٣٢)وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا(٣٣) ﴾[مريم]، ولمَّا كان نبيُّنا محمدٌ ﷺ خاتمَ النَّبيِّينَ، وكان هو الحاشرَ الذي يُحشَرُ النَّاسُ على عقبه، حتى قال ﷺ: "**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَضَمَّ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى**"(١)، لما كان كذلك فقد بيَّن ﷺ أحوالَ الآخرة وأهوالَها بياناً لم

---

(١) م (٢/٥٩٢/٦٨٧)، ن(١٨٨و٣/١٨٩)، جه (١/١٧/٤٥) ، حم (٨٦/١٥٨٥و٦/٨٧) .

يسبق له نظيرٌ في الكتبِ السابقة، حتى إنَّ الله تعالى أخبر أنَّ الحكمةَ من الإيحاء إلى محمد ﷺ هي إنذارُ النَّاسِ لقاءَ الله، فقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ(٧) ﴾[الشورى]، وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ(١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(١٧) ﴾[غافر] .

ولمَّا جادل المشركون النبيَّ ﷺ فيما أنذرهموه من البعث بعد الموت، ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا(٤٩) ﴾[الإسراء]، أمره ربُّهُ أن يُقسمَ لهم على وقوعِ ما كذَّبوه، فقال تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ(٥٣) ﴾[يونس]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ(٣) ﴾[سبأ]، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(٧) ﴾[التغابن] (١)، ولم يكتفِ ربُّنا سبحانهُ بقسم نبيِّه ﷺ فأقسم هو فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا(٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا(٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا(٧٠) ﴾[مريم]، فمنْ كذَّب اللهَ ورسولَهُ بعد ذلكَ فالنَّارُ أولى به،كما قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا(١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا(١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا(١٣) لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٤٥٨).

ثُبُورًا كَثِيرًا(١٤) ﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا(٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا(٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا(٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ(٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ(٦٧) رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا(٦٨) ﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا(٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا(٩٨) ﴾[الإسراء].

ومع ذلكَ فقد أزاح ربُّنا سبحانهُ كلَّ إشكال، وأزال كلَّ شُبهة، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ(٤٢) ﴾[الأنفال] :

قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ(٧) ﴾ [الحج] .

وقال تعالى:﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا(٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا(٩٩)﴾[الإسراء] .

وقال تعالى: ﴿ق وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ(١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ(٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ(٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ(٤) ﴾[ق]، فلمَّا استبعدوا البعثَ بعد موتهم وتمزُّق أجسامهم، واختلاطها بالترابِ اختلاطًا يصعب تمييزُها في نظرهم، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ من لحومهم وعظامهم وأشعارهم، ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ(٢٩) ﴾[الشورى].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ لأَهْلِهِ إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ ثُمَّ اذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ"(١)، اقرؤوا إن شئتم: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ(٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ(٤) ﴾[القيامة]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ(٣٩) ﴾[النحل]، وذلك لكمال حكمته سبحانه، حيثُ جعل الدُّنيا دارَ عملٍ لا دارَ جزاء، فمنهم الصالحون ومنهم دون ذلك، ومنهم الظالمون ومنهم المظلومون، ومنهم المسلمون ومنهم القاسطون، ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون، والموتُ يعمُّهم، فلو أُهملوا بعد الموت ولم يُبعثوا لاستووا، وقد نفى اللهُ تعالى التسويةَ بينهم فقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ(١٨) ﴾[السجدة] ، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٦) ﴾[القلم] ، وقال تعالى:

---

(١)متفق عليه :خ (٧٥٠٦/٤٦٦/١٣)، م(٢٧٥٦/٢١٠٩و٢١١٠/٤) .

﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ(٢٨) ﴾ [ص] ، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(٢١) ﴾ [الجاثية].

فحكمةُ اللهِ إذن تقتضي أن يرجعَ الناسَ إليه ليجزيَهم بما كانوا يعملون ويقضيَ بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ(٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ(٣١) ﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(٢٥) ﴾ [السجدة]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ(١٥)أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(١٦) أَوَءَابَاؤُنَا الأَوَّلُونَ(١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ(١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ(١٩) وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ(٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ(٢١) ﴾ [الصافات].

ولقد أرى اللهُ تعالى السابقينَ من الآياتِ والبراهينِ التي تشهدُ للهِ بالقدرةِ على إحياءِ الموتى الكثيرَ الكثير، وذكر في سورةِ البقرة وحدها خمساً من هذه الآيات، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ(٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٥٦)﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ(٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٧٣)﴾ .

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ(٢٤٣) ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٥٩) ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٦٠) ﴾.

هذا، وإنَّ للإيمانِ باليومِ الآخر تأثيرًا كبيرًا في سلوكِ الإنسانِ وانضباطه، وشتانَ بين رجليْنِ يؤمنُ أحدُهما بالبعثِ والحساب والجزاء، ويكفرُ الآخرُ بذلك، فالثاني ضابطهُ هواه، وقائدُه شهوته، ومركبُهُ لذَّته، يفعلُ ما يشاء من غير خوفٍ من حسابٍ أو جزاء، والأوّلُ ضابطهُ الإيمان، وقائدُهُ الخوفُ، ومركبُهُ الطاعة، إذا همَّ بسوءٍ تذكّر أنَّهُ مجزيٌّ بهِ فأقلع عنه، وإذا أقدم على ظلم إنسانٍ تذكّر أنَّهُ سيقتصُّ منهُ يوم القيامةِ فرجع عن ظلمه، وهكذا .

وقد فرّق القرآنُ الكريمُ بيْنَ الرَّجلين، قال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ(١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ(١٨) ﴾[التوبة]، وقال تعالى: ﴿لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ(٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ

يَتَرَدَّدُونَ(٤٥)﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا(٥)عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا(٦)يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا(٧)وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا(٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا(٩)إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا(١٠)فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا(١١) ﴾[الإنسان] وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ(٤٠)عَنِ الْمُجْرِمِينَ(٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(٤٤)وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(٤٥)وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(٤٦)حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(٤٧)فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(٤٨) ﴾ [المدثر] .

وقال تعالى:﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(٢) وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(٣) ﴾ [الماعون] ،

فهنيئًا لمن أيقن بلقاءِ الله واستعدَّ له،والويلُ كلُّ الويلِ لمن كذَّب بلقاء الله ولم يستعدَّ له،قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ(٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(٨) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٠) ﴾ [يونس].

* * *

أَهْوَال يَوْمِ القِيَامَةِ

قال تعالى:﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ(٢٨١)﴾ [البقرة]،

هذه الآيةُ الكريمةُ هي آخرُ ما نزل من القرآنِ الكريم على الإطلاق، يأمر اللهُ تعالى فيها عبادَهُ باتِّقاء اليوم الآخر، "واليومُ الآخـرُ عبـارةٌ عـن زمـانٍ مخصوص، وذلكِ لا يُتَّقى، وإنَّما يُتَّقى ما يحدث فيه من الشدَّةِ والأهـوال"[١]، من حينِ يبدأُ إلى أن يستقرَّ أهلُ الجنَّةِ في الجنة وأهلُ النَّار في النـار، وبدايتُـهُ تكونُ بالنَّفخِ في الصُّور، وهو خلقٌ عظيمٌ مثلُ البوق ينفخُ فيه إسرافيلُ نَفختَـيْن: نفخةَ الفزعِ والصَّعق، ونفخةَ البعث، قال تعالى:﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَـزِعَ مَنْ فِـي السَّـمَوَاتِ وَمَـنْ فِـي الأَرْضِ إِلاَّ مَـنْ شَـاءَ اللَّـهُ وَكُـلٌّ أَتَـوْهُ دَاخِرِينَ(٨٧)﴾ [النمل]، وإنَّما يفزعُ الخلائقُ من شدَّةِ النَّفخةِ وقُوَّةِ الصَّيحة، شأنُهم في ذلك اليوم شأنُهم في الفزع من أيِّ صوتٍ قويٍّ شديدٍ يسـمعونه وخاصَّـةً مـع المفاجأة، ولا سيِّما وأنَّ هذه النفخةَ تنفطرُ بها السـماء، وتنشـقُّ بهـا الأرض، وتسيرُ بها الجبال، وتتأجَّجُ بها البحار كما قال تعالى:﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِـي الصُّـورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ(١٣)وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِـدَةً(١٤)فَيَوْمَئِـذٍ وَقَعَـتِ الْوَاقِعَةُ(١٥)وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ(١٦)وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِـلُ عَرْشَ رَبِّـكَ فَـوْقَهُمْ يَوْمَئِـذٍ ثَمَانِيَـةٌ(١٧)يَوْمَئِـذٍ تُعْرَضُـونَ لاتَخْفَـى مِـنْكُمْ خَافِيَةٌ(١٨)﴾ [الحاقة]، وقال تعالى:﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ(١)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَـا كَاذِبَـةٌ(٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(٣)إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا(٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّـا(٥)فَكَانَـتْ هَبَـاءً مُنْبَثًّا(٦)﴾ [الواقعة].

---

(١) تفسير الرازي (٧/١١٣).

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ »(١).

وتنتهي هذه الأهوالُ بصعق الخلائق أجمعين إلاَّ من شاء اللهُ ربُّ العالمين، قال تعالى:﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ(٦٨)**﴾ [الزمر].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ : « يَطْوِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ »(٢)،

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ" قَالُوا يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ أَبَيْتُ. قَالُوا أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ أَبَيْتُ. قَالُوا أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ أَبَيْتُ. ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، قَالَ وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »(٣) ،

وقد وصف اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ يومَ الخُروجِ وما يُصاحبهُ من أهوالٍ وشدائدَ، قال تعالى:﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ(٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ**

---

(١) صحيح :[ص.ت:٣٣٣٣]، ت(٥/١٠٤/٣٣٨٩).

(٢)م(٤/٢١٤٨/٢٧٨٨)واللفظ له، د(١٣/٥٨و٥٧/٤٧٠٦)،وقال:(بيده الأخرى)ولم يقل بشماله

(٣) متفق عليه :خ(٨/٥٥١/٤٨١٤)، م(٤/٢٢٧١و٢٢٧٠/٢٩٥٥).

الْمُرْسَلُونَ (٥٢)إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ(٥٣) ﴾ [يس].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ(١٥)أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ(١٦)أَوَءَابَاؤُنَا الأَوَّلُونَ(١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ(١٨)فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ(١٩)﴾[الصافات]، وقال تعالى: ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ(٤١)يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ(٤٢)إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ(٤٣)يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ(٤٤)نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ(٤٥) ﴾[ق]، وقال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ(٤٢)يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ(٤٤)﴾ [المعارج]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ(٦)خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ(٧)مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ(٨)﴾[القمر]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ(١٠٤)﴾[الأنبياء]، وقال تعالى:

﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ(٦٧)﴾[الزمر]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥)وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا(٨٦) [مريم]. وقال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا(١٠٥)فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦)لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا(١٠٧)يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا(١٠٨) ﴾[طه]، وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا(٩٧)﴾[الإسراء].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ فَقَالَ: « إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ(١٠٤) ﴾ [الأنبياء] »(١)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَيَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا وَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا »(٢).

وَعَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ رِجَالاً وَرُكْبَانًا وَتُجَرُّونَ عَلَى وُجُوهِكُمْ »(٣).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: « أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »(٤).

وقال تعالى ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(٤٨) ﴾ [إبراهيم].

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ لَيْسَ فِيهَا عَلَمٌ لأَحَدٍ »(٥).

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ

---

(١) متفق عليه: خ(١١/٣٧٧/٦٥٢٦)، م(٢٧٦٠-٥٨-/٢١٩٤و٤/٢١٩٥)، ت(٤/٣٨/٢٥٣٩).

(٢) متفق عليه: خ(١١/٣٧٧/٦٥٢٢)، م(٤/٢١٩٥/٢٨٦١)، ن(١١٥و٤/١١٦).

(٣) صحيح: [ص.ت:٢٤٢٤]، ت(٤/٣٩/٢٥٤١).

(٤) متفق عليه: خ(١١/٣٧٧/٦٥٢٣)، م(٤/٢١٦١/٢٨٠٦).

(٥) متفق عليه: خ(١١/٣٧٢/٦٥٢١)، م(٤/٢١٥٠/٢٧٩٠).

الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً» قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه! النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ! قَالَ ﷺ : يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ»(١).

وَعَنْ الْمِقْدَاد بْنِ الأَسْوَدِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ ﷺ يَقُولُ: « تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ» قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللَّه مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ؟ قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا، وَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ »(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ ﷺ قَالَ: « إِنَّ الْعَرَقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيَذْهَبُ فِي الأَرْضِ سَبْعِينَ بَاعًا، وَإِنَّهُ لَيَبْلُغُ إِلَى أَفْوَاهِ النَّاسِ أَوْ إِلَى آذَانِهِمْ »(٣) .

والسُّعداءُ في ظلِّ عرشِ الله يومَ لا ظلَّ إلاّ ظلُّه كما قال ﷺ : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»(٤).

---

(١) متفق عليه :خ(٦٥٢٧/٣٧٧/١١)، م(٢٨٥٩/٢١٩٤/٤)، ن(٤/١١٤).

(٢) م(٢٨٦٤/٢١٩٦/٤)، ت(٢٥٣٦/٣٧/٤).

(٣) متفق عليه : خ(٦٥٣٢/٣٩٢/١١)، م(٢٨٦٣/٢١٩٦/٤).

(٤) متفق عليه :خ(٦٦٠/١٤٣/٢)، م(١٠٣١/٧١٥/٢)، ت(٢٥٠٠/٢٤/٤)، ن(٨/٢٢٢).

يقومُ الناسُ في أرض الموقف خاشعينَ خاضعين صامتين، ﴿وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا(١٠٨)﴾[طه]، وقال تعالى:﴿وَعَنَت الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ(١١١)﴾[طه]، وتذكَّر كلُّ إنسانٍ ما سعى، ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى(٣٦)﴾[النازعات] فانشغل كلُّ إنسانٍ بنفسه عن غيره، كما قال تعالى:﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ(٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ(٣٤)وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ(٣٥)وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ(٣٧) ﴾[عبس]. وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا(٣٣)﴾[لقمان].

ولا يُنْجي من هذه الأهوال إلاَّ التقوى، ولذلك قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(٢)﴾[الحج]، وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٥٤)﴾[البقرة]، والمعنى: اشتروا أنفسكم من الله في الدنيا وأنتم قادرون على ذلك، من قبلِ أنْ يأتيَ يومٌ لا ينفعكم فيه بيعٌ ولا شراء، ولا يسأل حميمٌ حميماً، ولا تنفعهم شفاعة، كما قال الله تعالى في سورة البقرة لبني إسرائيل: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ(٤٨)﴾ والمراد ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ(٤١)﴾[البقرة] فإنَّ من مات كافراً لا يُجزي عنه أحد ولو كان ذا قربى، ولا تنفعه شفاعةُ ، ولا يُؤخذ منه فداءٌ ولو كُثر، قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ

الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِـهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ(٩١)﴾ [آل عمران]، وقال تعالى في المنافقين:﴿ فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٥)﴾ [الحديد].

عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ نَعَمْ. فَيَقُولُ قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ، أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِي وَلاَ أُدْخِلَكَ النَّارَ فَأَبَيْتَ إِلاَّ الشِّرْكَ"(١)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ(٢١٤)﴾ [الشعراء] "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا! يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا! يَا عَبَّاسَ ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا! يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا! يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ سَلِينِي مَا شِئْتِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا" (٢) .

ولقد استجاب المؤمنون لما أُمروا به فباعوا أنفسَهم وأموالَهم لله، وقَبِلَ اللهُ البيعَ وبشَّرهم بالقبول فقال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١١١)﴾ [التوبة]. فهنيئًا لهم .

* * *

(١)متفق عليه :خ(٦/٣٦٣/٣٣٣٤)، م(٤/٢١٦٠/٢٨٠٥).

(٢)متفق عليه :خ(٨/٥٠١/٤٧٧١)، م(١/١٩٢/٢٠٦)، ت(٥/١٩/٣٢٣٧).

وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ

قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(٢٨١) ﴾ [البقرة]، وقد تحدَّثنا عَنْ شَطر هذه الآية وقلنا: يوماً منصوبٌ على الظرفيَّة لا على المفعوليَّة، لأَنَّ اليومَ نفسَهُ لا يُمكن اتقاؤه لأَنَّه آتٍ لا محالة، فالمعنى: واتَّقوا الأهوالَ والشدائدَ التي تكون يومَ تُرجعون إلى الله. كما تحدَّثنا عن صفةِ الحشر في القرآن والسنة، وتحدَّثنا عَنْ الأهوالِ والشدائد التي في ذلك اليوم، وعرفنا أَنَّ النَّاسَ يُحشرون في أرضٍ بيضاءَ نقيّة، حُفَاةً عُراةً غُرْلاً، وأَنَّ الشّمسَ تُدنى منهم مقدارَ ميل فتصهرهم حتى يكثُرَ منهم العرقُ ويذهبَ في الأرض سبعينَ ذراعاً:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ»(١).

ماذا ينتظرونَ بهذا القيام؟ ينتظرونَ مجيءَ الربِّ سبحانه لفصلِ القضاء، قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلاَئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ(٢١٠) ﴾ [البقرة]، ولا يأتي اللهُ تعالى لفصلِ القضاءِ إلاَّ بعد شفاعة سيِّد الأنبياء، إظهاراً لفضلِه وشَرفه، وتحقيقاً لوعْدِ ربِّه حيث قال له: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(٧٩)﴾ [الإسراء]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ: « أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ

---

(١)متفق عليه : خ(٤٩٣٨/٦٩٦/٨)، م(٢٨٦٢/٢١٩٥/٤)، ت(٣٣٩٢/١٠٥/٥).

تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَمَا لاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ! فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ يَا آدَمُ! أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ! أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلاَ يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُونَ يَا مُوسَى! أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالاَتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى ﷺ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ يَا عِيسَى! أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ

فِيهِ؟ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى ﷺ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ! أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي! فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ! أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى »(١).

ثُمَّ يجيءُ الرَّبُّ سبحانه لفصلِ القضاء،قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ(٢١٠)﴾[البقرة]

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً(٢٥)الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا(٢٦)﴾[الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ(٦٨)وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(٦٩) ﴾[الزمر] ، وقال تعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا(٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا(٢٢)﴾[الفجر]

---

(١) متفق عليه خ(٤٧١٢/٣٩٥/٨)، م(١٩٤/١٨٤-١٨٦/١)، ت(٢٥٥١/٤٣-٤٥/٤).

ومجيء الرَّبِّ سبحانهُ وإتيانهُ صفةٌ من صفاتِ الأفعال كالاستواء والنزول، والرِّضى والغضب، والضحكِ والفرح، والقولُ في هذه الصفاتِ وصفاتِ الذَّاتِ كاليدِ والقدمِ والسَّاقِ،كالقولِ في الذَّاتِ نفسها،كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١١) ﴾[الشورى]، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ في ذاته،ولا في صفاته،ولا في أفعاله.وأوّلُ الآيةِ ردٌّ على المشبِّهة، وآخرها ردٌّ على المعطِّلة، وسبيلُ الحقِّ بينهما لأهل السُّنَّة إثباتٌ بلا تمثيلٍ ولا تعطيل، ولا تكييفٍ ولا تحريف، فنقول :

يجيءُ الرَّبُّ سبحانهُ وتعالى يومَ القيامةِ ويأتي لفصلِ القضاء بين عبادهِ كيف يشاء، لا نُحرِّفُ الكلمَ عن مواضعهِ ونقولُ يجيءُ أمرُه ويأتي عذابُه، وإنما نقول كما قال الإمامُ مالكٌ وقد سئل عن الاستواء فقال: الاستواءُ معلوم،والكيفُ مجهول، والسؤالُ عنه بدعة، والإيمانُ به واجب[١]، ونقولُ كما قال الإمامُ الشافعيُّ: آمنتُ بالله، وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنتُ برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله. ونقولُ كما قال الإمامُ الزُّهري:من الله الرِّسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم. فهؤلاء سلفنا الذين اتَّبعوا الرسولَ ﷺ وأصحابَه، ونحنُ بهم مُقتدون، وبهُداهم مُهتدون، ولا نُحرِّف الكلمَ كاليهودِ الذين قيل لهم ادخلوا البابَ سُجَّدًا وقولوا حِطَّةٌ، فدخلوا يزحفون على أستاههم ويقولون حنطة، حبَّةٌ في شعيرة[٢]، فقال اللهُ تعالى: ﴿**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(٥٩)** ﴾[البقرة].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٣١٣) .

يجيءُ الرَّبُّ سبحانهُ يومَ القيامة لفصل القضاء كيف يشاء، ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ(١٧)﴾[الحاقة]،عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ" (١)، ويضعُ الرَّبُّ سبحانهُ كُرْسِيَّهُ حيثُ يشاء: عَنْ جَابِرٍ قَالَ: لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ قَالَ: "أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ"؟ قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ، فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ثُمَّ دَفَعَهَا، فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ! إِذَا وَضَعَ اللَّهُ الْكُرْسِيَّ وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا! قَالَ: يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "صَدَقَتْ صَدَقَتْ! كَيْفَ يُقَدِّسُ اللَّهُ أُمَّةً لَايُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟!" (٢) .

قال تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا(٦٩) ﴾[الزمر]، يعني حين جاء لفصل القضاء، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ أي كتابُ الأعمال الذي أحصى اللهُ فيه أعمالَ عباده كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ(١٢) ﴾[يس]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ(٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ(٥٣) ﴾[القمر]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ(٢٧) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨) هَذَا كِتَابُنَا

---

(١) صحيح: [ص.د:٣٩٥٣]،د(٤٧٠١/٣٦/١٣).

(٢) حسن : [ص.جه:٣٢٣٩]،جه(٤٠١٠/١٣٢٩/٢).

يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٩) ﴾[الجاثية]، وقال تعالى: ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(٤٩)** ﴾[الكهف]

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: "يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ" (١).

ثُمَّ يُؤتى بالشهداء، كما قال تعالى: ﴿**وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ(٦٩)** ﴾[الزمر] وقال تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا(٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا(٤٢)** ﴾[النساء]، وقال تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(٤٧)** ﴾[يونس]، فكلُّ أمَّةٍ تُعرضُ على اللهِ تعالى بحضرةِ رسولِها، وكتابُ أعمالها من خيرٍ أو شرٍّ موضوعٌ شاهدٌ عليهم، وحفَظتُهم من الملائكةِ شهودٌ أيضًا، أمة بعد أمة، وهذه الأُمةُ الشريفةُ وإن كانت آخرَ الأُممِ في الخلق إلاَّ أنَّها أوَّلُ الأُمم يوم القيامةِ يفصل بينهم ويقضى لهم، كما قال ﷺ: " **نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلاَئِقِ(٢)** "(٣).

ومن الشهداءِ عُلماءُ أُمَّةِ محمد ﷺ ، كما قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا(١٤٣)** ﴾[البقرة]

---

(١) م(٢٥٧٧/١٩٩٤/٤).

(٢) م(٨٥٦/٥٨٦/١)،ن(٣/٨٧).

(٣) ابن كثير(٢/٤١٩).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: " يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَة فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ! فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ. فَيُقَالُ لأُمَّته هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ. فَيَقُولُ مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ" (١).

فإذا وُضع الكتابُ،وجيء بالنَّبيِّين والشهداء، استُدعِيَ العبادُ فردًا فردًا للعرضِ على اللهِ عزَّ وجلَّ، ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ(٢١) ﴾[ق]

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : "مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ ،وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ » (٢)

وَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ الْمَازِنِيِّ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّهُ عَنْهمَا آخِذٌ بِيَدِه إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْه كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ! حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِه، وَرَأَى فِي نَفْسِه أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاته، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ﴿هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّه عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٣)

---

(١) خ(٤٤٨٧/١٧١/و١٧٢٨)،ت(٤٠٤٠/٢٧٥/٤).

(٢)متفق عليه : خ (٧٥١٢/٤٧٤/١٣)، م(١٠١٦-٦٧-/٧٠٣/٢)، ت(٢٥٢٩/٣٥/٤)، جه(١٨٥/٦٦/١).

(٣)متفق عليه :خ(٢٤٤١/٩٦/٥)،م(٢٧٦٨/٢١٢٠/٤).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك قَالَ: "كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قَالَ: قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قَالَ: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ يَا رَبِّ! أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ بَلَى! قَالَ: فَيَقُولُ فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي! قَالَ: فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ انْطِقِي! قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ، قَالَ: فَيَقُولُ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ » (١)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاَتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنِ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ » (٢)

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُود عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « لاَ تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟(٣) » .

فهنيئًا لمن اغتنمَ حياتَه قبلَ موته، وشبابهُ قبلَ هرمه، وصحَّتَهُ قبلَ مرضه، وأعدَّ الجوابَ قبلَ السُّؤال، وحاسبَ نفسَهُ قبلَ يومِ الحساب، فمنْ حاسبَ نفسَهُ في الدُّنيا خفَّ عليهِ الحسابُ في الآخرة، ومنْ أهملَ مُحاسبةَ نفسه في الدُّنيا نوقش الحسابَ في الآخرة، والنَّبيُّ ﷺ يقول: « مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ(٤) »

نسألُ الله تعالى أن يُدخلنا الجنَّةَ بلا حسابٍ ولا عذابٍ بكرمهِ ومنِّه.

---

(١) م(٢٩٦٩/٢٢٨٠/٤).

(٢) صحيح [ص.ت:٤١٣]،ت(٤١١/٢٥٨/١)،جه(١٤٢٥/٤٥٨/١)،ن(١/٢٣٢).

(٣) صحيح [ص.ت:٢٤١٦]،ت(٢٥٣١/٣٥/٤).

(٤) متفق عليه: خ(٦٥٣٦/٤٠٠/١١)، م(٢٨٧٦/٢٢٠٤/٤)، ت(٢٥٤٣/٣٩/٤)، د(٣٠٧٧/٣٥٥/٨).

وَاتَّقُوا النَّـارَ

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(٢٤)﴾[البقرة]

وقد جاء ذكرُ النَّارِ في سُورةِ البقرةِ في ثلاثةَ عشرَ موضعًا، في هذه الآية، وقولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٣٩)﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٨١)﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٢٦)﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ(١٦٧)﴾، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ(١٧٥)﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢١٧)﴾، وقولِه تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ

الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥٧) ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٧٥) ﴾.

والمُلاحظُ من هذه الآيات على كثرتها أنَّها قد اتَّفقت على أنَّ الكفَّارَ هم أصحابُ النار، ولذلك لمَّا أمر اللهُ تعالى عبادَه المؤمنينَ باتِّقاءِ النَّارِ أخبرهم أنَّها لم تُخلق لهم وإنَّما خُلقت للكفَّار، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٣٢) ﴾[آل عمران]، فمَنْ أطاعَ اللهَ من المؤمنينَ أنجاهُ اللهُ من النَّار، ومن عصاهُ ولم يشأ اللهُ أن يغفرَ لهُ ويعفوَ عنهُ دخل النَّارَ فكان فيها ما شاء الله، ثُمَّ يُخرجهُ اللهُ منها برحمته وشفاعةِ الشَّافعينَ من أهلِ طاعته، كما سبقَ في حديثِ الشَّفاعة، فإذا خرجَ آخرُ رجُلٍ من عُصاةِ المؤمنينَ أُغلقتِ النَّارُ على الذين هم أولى بها صليًّا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ(٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ(٩) ﴾ [الهمزة].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ! فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾وَهَؤُلاَءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٣٩) ﴾ [مريم] "(١) .

---

(١) متفق عليه: خ(٨/٤٢٨/٤٧٣٠)، م(٤/٢١٨٨/٢٨٤٩)، ت(٤/١٦/٢٦٨٣).

وقد سمّى الله تعالى النَّارَ دارَ البوار، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)﴾ [إبراهيم]

وهذه الدارُ لها سبعةُ أبواب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤)﴾ [الحجر].

وهي واسعةٌ جدًّا: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا »(١)

وعُمقها كبير، وقعرُها بعيد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ: «تَدْرُونَ مَا هَذَا» ؟ قَالَ: قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا »(٢).

وحرارةُ النار شديدةٌ جدًّا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ» قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً! قَالَ: «فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا »(٣) .

وهي دركاتٌ بعضُها تحتَ بعض، أعلاها أخفُّها عذابًا، وأسفلُها أشدُّها عذابًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾ [النساء]، ثمَّ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)﴾ [النساء]

---

(١) م(٢٨٤٢/٢١٨٤/٤)،ت(٢٦٩٨/١٠٣/٤).

(٢) م(٢٨٤٤/٢١٨٤و٢١٨٥/٤).

(٣) متفق عليه خ(٣٢٦٥/٣٣٠/٦)،م(٢٨٤٣/٢١٨٤/٤)،ت(٢٧١٥/١١٠/٤).

فأهلُ النار متفاوتون في العذاب، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ(١٦٣) ﴾[آل عمران]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ(١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ(١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أي: ولكلٍّ نصيبٌ من العذابِ بقدرِ عمله ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ(١٩) ﴾ [الأحقاف]

عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى حُجْزَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى تَرْقُوَتِهِ » (١)

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ" (٢)

وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلاَنِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِ الْمِرْجَلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا وَإِنَّهُ لأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا » (٣)

وهي بهم مُحيطةٌ حتى يأتيَهمُ العذابُ من كلِّ مكان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا(٢٩) ﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٤١) ﴾ [الأعراف]، وقال

---

(١) م(٤/٢١٨٥/٢٨٤٥).

(٢) م(١/١٩٦/٢١٢).

(٣)متفق عليه :خ(١١/٤١٧/٦٥٦٢)،م(١/١٩٦/٢١٣).

تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ(١٦)﴾[الزمر]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٥٥)﴾[العنكبوت]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ(٣٩)﴾[الأنبياء]، لأنَّهم مُقيَّدون بالسلاسلِ والأغلال، كما قال تعالى:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيرًا(٤)﴾[الإنسان]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا(١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا(١٣)﴾[المزمل]، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(٣٢) إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(٣٣)﴾[الحاقة]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٧٠) إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ(٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ(٧٢)﴾[غافر]

وحتى يشتدَّ بهم العذابُ وينالون منهُ الحظَّ الأوفرَ والنصيبَ الأكبرَ تعظُمُ أجسامُهم، وتفحشُ أبدانُهم :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «ضِرْسُ الْكَافِرِ أَوْ نَابُ الْكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ، وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلاَثٍ » (١)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا بَيْنَ مَنْكِبَي الْكَافِرِ مَسِيرَةُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ » (٢)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ غِلَظَ جِلْدِ الْكَافِرِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعًا وَإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ، وَإِنَّ مَجْلِسَهُ مِنْ جَهَنَّمَ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ » (٣)

---

(١) م(٤/٢١٨٩/٢٨٥١).

(٢) متفق عليه: خ(١١/٤١٥/٦٥٥١)، م(٤/٢١٨٩/٢٨٥٢).

(٣) صحيح: [ص.ت:٢٥٧٧]، ت(٤/١٠٥/٢٧٠٦).

ومع ذلك: ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**(٥٦) ﴾ [النساء]

وفي النار من العذابِ أشكالٌ وألوان من الألبسةِ والأطعمةِ والأشربة :

فمن الألبسة ما جاء في قوله تعالى: ﴿**سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ**(٥٠) ﴾[إبراهيم]، وقوله تعالى: ﴿**فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ**(١٩) ﴾[الحج]

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ " (١)

ومن الأطعمة الزَّقُّوم: قال تعالى: ﴿**إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ**(٤٣) **طَعَامُ الأَثِيمِ**(٤٤) **كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ**(٤٥) **كَغَلْيِ الْحَمِيمِ**(٤٦) ﴾[الدخان]، وقال تعالى: ﴿**أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ**(٦٢) **إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ**(٦٣) **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ**(٦٤) **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**(٦٥) **فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ**(٦٦) ﴾[الصافات]، وقال تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ**(٥١) **لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ**(٥٢) **فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ**(٥٣) ﴾[الواقعة] .

ومنها الغسلين، وهو ما يسيلُ من جراحات أهلِ النارِ من دمٍ وقيحٍ وصديد، قال تعالى في حقٍّ من أُوتيَ كتابَهُ بشماله: ﴿ **فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ**(٣٧) **وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ**(٣٨) ﴾[الحاقة] .

ومنها الضَّريع، وهو نباتٌ يُقالُ لهُ الشُّبرق، يُسمِّيه أهلُ الحجاز إذا يبُس الضريع وهو سُمّ(٢)، قال تعالى: ﴿**لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ**(٦) **لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ**(٧) ﴾ [الغاشية] .

---

(١) م(٩٣٤/٦٤٤/١).

(٢) خ (باب٨٨ (هل أتاك حديث الغاشية): ٧٠٠/٨).

وأما الأشربة فمنها الحميم، وهو الماءُ المغليُّ الذي اشتدت درجةُ غليانه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ(٦٧)﴾[الصافات]، وقال تعالى : ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ(١٥)﴾[محمد]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا(٢٩)﴾[الكهف] فهم يشربون من هذا الحميم تارةً، وتارةً تصبُّه الزبانيةُ فوق رؤوسهم، كما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ(٢٠)﴾[الحج]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ(٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ(٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ(٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ(٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ(٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ(٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ(٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ(٥٠)﴾[الدخان] .

ومنها الغسَّاق وهو الماءُ الباردُ جدًّا، كما قال تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ(٥٧) وَءَاخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ(٥٨)﴾[ص].

ومنها طِينةُ الخَبال: عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ » (١) .

وَعَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَجُلاً قَدِمَ مِنْ جَيْشَانَ، وَجَيْشَانُ مِنَ الْيَمَنِ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ شَرَابٍ يَشْرَبُونَهُ بِأَرْضِهِمْ مِنَ الذُّرَةِ يُقَالُ لَهُ الْمِزْرُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَوَ مُسْكِرٌ هُوَ؟ قَالَ نَعَمْ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، إِنَّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ

---

(١) حسن : [ص.ت:٢٤٩٢]، ت(٢٦١٠/٦٦و٦٧/٤)، حم(٦٠/٢٢٧/١٩).

وَجَلَّ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ أَوْ عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ »(١) .

وبعدُ، ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ(٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ(٤٤) ﴾[الرحمن]، ذكر اللهُ تعالى فيها من ألوانِ العذاب وأشكالهِ ما ذكر تخويفًا لعباده حتى يتقوه بفعلِ ما به أمر، وتركِ ما نهى عنهُ وزجر، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ(١٦) ﴾[الزمر]، ومع ذلك فقد غفلَ أكثرُ النَّاسِ عن النارِ وعذابها، فهم في نهارهم يلعبون، وفي ليلهم نائمون، وقد تعجَّب النبيُّ ﷺ ممَّن هذه حاله فقال: « مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا »(٢)، فالخوفُ من النار يُطيِّر النَّومَ من العين ويُؤرِّق الخائفين، ولذلك باتوا لربِّهم ساجدين، يرجون رحمتَهُ ويخافون عذابَه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا(٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا(٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا(٦٧) ﴾[الفرقان]، وقد فرَّق ربُّهم سبحانه بينهم وبين غيرهم فقال : ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ(٩) ﴾ [الزمر]، وهذا ديدنُهم بالليلِ والنهار، وفي السرِّ والعلانية، وفي الصلاةِ والحجِّ، يسألون اللهَ الجنَّةَ ويستعيذون به من النار :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ بَعْدَ التَّشَهُّدِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ،

---

(١) م(٢٠٠٢/١٥٨٧/٣)،ن(٨/٣٢٧).

(٢) حسن: [ص.ت:٢٦٠١]، ت(٢٧٢٨/١١٤و٤/١١٥).

وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ »[١]. وأمر ﷺ بذلك فقال: "إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»[٢]، وقال ﷺ لرجلٍ: "كَيْفَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟» قَالَ: أَتَشَهَّدُ وَأَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، أَمَا إِنِّي لاَ أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلاَ دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ "حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ»[٣].

وفي الحجِّ قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)﴾[البقرة]

"فيا أيُّها الغافلُ عن نفسه! المغرورُ بما هو فيه من شواغلِ هذه الدُّنيا المُشرفة على الانقضاء والزوال! دعِ التفكرَ فيما أنتَ مُرتحلٌ عنه، واصرف الفكرَ إلى موردك الذي لست على يقينٍ من الصدورِ منه، فقد جاءك الخبرُ اليقينُ أنَّ النارَ موردُ الجميع، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾[مريم]، فأنتَ من الورودِ على يقين ومن النَّجاةِ في شكٍّ، فاستشعر في قلبك هولَ ذلك المورد، فعساك تستعدُّ للنجاةِ منه، وتأمَّل حالَ الخلائقِ وقد قاسوا من دواهي القيامةِ ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفًا ينتظرونَ حقيقةَ أنبائها وتشفيعَ شُفعائها إذ أحاطت بالمجرمينَ ظُلماتٌ ذاتُ شُعب، وأظلَّت عليهم نارٌ ذاتُ لهب،

---

(١) حسن صحيح:[ص.د:٨٦٨]،د(٣/٢٧٥/٩٦٩).

(٢) م(١/٤١٢/٥٨٨)، د(٣/٢٧٣/٩٦٨)، ن(٣/٥٨)، جه(١/٢٩٤/٩٠٩).

(٣) صحيح: [ص.د:٧١٠]، د(٣/١٠و٩/٧٧٨).

وسمعوا لها زفيرًا وجرجرةً تُفصح عن شدَّة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب، وجثتِ الأممُ على الرُّكب، حتى أشفق البُرءاءُ من سوء المنقلب، وخرج المنادي من الزبانيَّةِ قائلاً أينَ فُلانُ بن فلانٍ المَسوِّفُ نفسه في الدنيا بطولِ الأمل، المُضيِّعُ عُمرَه في سوء العمل، فيُبادرونه بمقامعَ من حديد، ويستقبلونهُ بعظائمِ التَّهديد، ويسوقونهُ إلى العذابِ الشديد، ويُنكِّسونهُ في قعر الجحيم، ويقولون لهُ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ(٤٩)﴾ [الدخان]، فأُسكنوا دارًا ضيِّقةَ الأرجاء، مُظلمةَ المسالك، مُبهمةَ المهالك، يخلُدُ فيها الأسير، ويُوقدُ فيها السَّعير، شرابُهمُ فيها الحميم، ومُستقرُّهمُ الجحيم، الزَّبانيَّةُ تقمعهم، والهاويةُ تجمعهم، أمانيُّهم فيها الهلاك، وما لهم منها فكاك، قد شُدَّتْ أقدامهم إلى النَّواصي، واسودَّتْ وجوههم من ظُلمةِ المعاصي، يُكبُّون على وجوههم مغلولين، وهم مع ذلك يتمنَّون الموتَ فلا يموتون، ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ(٧٧)﴾ [الزخرف]، قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ(٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(٣٧) ﴾ [فاطر]. فانظرْ يا مسكينُ في هذه الأهوال! واعلم أنَّ اللهَ تعالى خلق النارَ بأهوالها وخلق لها أهلاً لا يزيدون ولا ينقصون، فالعجبُ منك حيثُ تضحك وتلهو ولست تدري بمَ سبق عليك القضاء! فإن قلتَ: فليتَ شِعري ماذا موردي وإلى ماذا مآلي ومرجعي؟ وما الذي سبق به القضاءُ في حقي؟ فلك علامةٌ تستأنسُ بها وتصدِّق رجاءك بسببها، وهي أنْ تنظرَ إلى أحوالكَ وأعمالك فإنَّ كُلاً ميسَّرٌ لما خُلقَ له، فإن كان يسَّر لك سبيلَ الخيرِ فأبشر، فإنَّك مُبعدٌ عن النار، وإنْ كنتَ لا تقصدُ خيرًا إلاَّ وتُحيط بك العوائقُ فتدفعه، ولا تقصدُ شرًّا إلاَّ وتتيسَّرُ لك أسبابُه، فاعلم أنك مقضيٌّ عليك، فإنَّ دلالةَ هذا على العاقبة كدلالة

المطر على النَّبات، ودلالةِ الدخان على النار، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ**(١٣) **وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**(١٤) ﴾ [الانفطار]، فاعرِضْ نفسكَ على الآيتين تعرِفْ مُستقرَّكَ في أيِّ الدَّارين» [١]

نسأل الله الجنة، ونعوذ به من النار.

* * *

---

(١)إحياء علوم الدين(٤/٥٣٠-٥٣٥)بتصرف واختصار.

وَبَشِّــــر الْمُؤْمِنِيــــنَ

قـــال تعـــالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ(٢٢٣)﴾[البقرة]. ولم يذكر المبشَّرَ بـــه هـــنا لتقدُّمه في أوَّلِ السُّورة في قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـــالِحَاتِ أَنَّ لَهُـــمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًـــا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥)﴾[البقرة].

وقد سمّى اللهُ الجنَّةَ دارَ السَّلام فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَـــنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٢٥) ﴾[يونس]، وأخبر أنَّه أعدَّها لأهل الإسلام فلا يدخلهـــا غـــيرُهم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَـــأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ(٧٢)﴾[المائدة]، **وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : مَنْ مَاتَ لاَ يُشْـــرِكُ بِاللَّـــهِ شَـــيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ**(١)، وقال ﷺ : **لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ** (٢) .

ولـــيس المـــرادُ بالمؤمنين مؤمني أُمَّةِ محمدٍ ﷺ فقط، بل المرادُ المؤمنون حقًّـــا من كلِّ الأمم، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَـــادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْـــرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢)﴾، وذلك في حقِّ من لم يُدرك خاتمَ النَّبيِّينَ محمدًا ﷺ أو لم تَبلغْهُ دعوتُه، أما من أدرك النبيَّ ﷺ أو بلغتْهُ دعوتُـــهُ مـــن وجهٍ صحيح ثابتٍ تقومُ به الحُجَّةُ فآمن به واتَّبعهُ على ما جاء به

---

(١) م(١/٩٤/٩٣).

(٢) صحيح:[ص.ن:٢٩٥٨]، ن(٥/٢٤٣)، مي(١/٣٩٤/١٩٢٥)، حم(١٥٨/٢٩٢و١٨/١٥٩).

فأولـــئك يؤتهـــمُ اللهُ أجرَهم مرَّتين، كما قال تعالى:﴿ **الَّذِينَ ءاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ** (٥٢)**وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ** (٥٣)**أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا**(٥٤)﴾ [القصص].

وأمـــا مـــن عـــاند واستكبر ﴿**فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾، كما قال تعـــالى: ﴿**يَـا بَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْـلَحَ فَـلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**(٣٥) **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**(٣٦) [الأعراف].

ولذلـــك كذَّب اللهُ اليهودَ والنصارى في ادِّعائهم أنَّهم أصحابُ الجنة، فقال تعـــالى:﴿ **وَقَـالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَـاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** (١١١)**بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْـرُهُ عِـنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**(١١٢)﴾ [البقرة]، وقال تعالى : ﴿**وَقَـالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّـهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** (٨٠)**بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِـهِ خَطِيئَـتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (٨١)**وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**(٨٢)﴾ [البقرة].

عَـنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْـمَعُ بِـي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ(١).

إلاَّ أنَّ مُؤمني هذه الأُمةِ هم أوَّلُ المؤمنينَ دُخولاً الجنَّة، وهم أكثرُ أهلها:

عَـنْ أَبِـي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ

---

(١) م(١/١٣٤/١٥٣).

الْقِيَامَةِ وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ(١) .

وَعَــنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الأُمَمِ(٢) .

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ بِكَ أُمِرْتُ لاَ أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ(٣) .

فمن أرادَ دُخولَ الجنَّةِ فليقتفِ أثرَ أوَّل مَنْ تُفتحُ له، فليقتفِ أثرَ محمدٍ ﷺ، وليتَّبع أثرَه، وليستمسك بسُنَّته، وليعمل بشريعته، فقد قال الإمامُ الجُنيد: الطُّرقُ كلُّها مسدودة إلاَّ طريقَ من اقتفى أثرَ محمدٍ ﷺ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال له: وعزَّتي وجلالي! لو أتوني من كلِّ طريق، واستفتحوا من كلِّ بابٍ ما فتحتُ لهم حتى يدخلوا خلفك (٤)، ومصداقُ ذلك قولُ النبيِّ ﷺ: **كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى** (٥)، وقال ﷺ: **مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي** (٦) .

وفي الجنَّةِ من النعيم ما يفوق الوصف، ولا يبلغه العقل:

---

(١) م(٨٥٥-٢٠-/٥٨٥/٢).
(٢) صحيح :[ص.ت:٢٥٤٦]، ت(٨٨/٢٦٧٠و٤/٨٩)، جه(٤٢٨٩/١٤٣٤/٢).
(٣) م(١٩٧/١٨٨/١).
(٤) طريق الهجرتين(٧).
(٥) خ(٧٢٨٠/٢٤٩/١٣).
(٦) م(٢٢٨٥/١٧٩٠/٤).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾(١) .

وللجنَّةِ ثمانيةُ أبواب :

عَنْ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ أَوْ فَيُسْبِغُ الْوَضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، إِلاَّ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ (٢) ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ (٣)

والجنَّةُ واسعةٌ جدًّا، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ(١٣٣) [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(٢١) ﴾[الحديد]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا(٢٠) ﴾ [الإنسان]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِي اللَّهِ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ

---

(١) متفق عليه: خ(٤٧٧٩/٥١٥/٨)، م(٢٨٢٤/٢١٧٤/٤)، ت(٣٢٤٩/٢٦/٥).

(٢) م(٢٣٤/٢٠٩/١).

(٣) خ(١٨٩٧/١١١/٤)، م(١٠٢٧/٧١١و٧١٢/٢)، ت(٣٧٥٦/١٧٦/٥)، ن(٢٢و٢٣/٦).

النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ كَبْوًا فَيَقُولُ اللَّهُ اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى! فَيَقُولُ اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى! فَيَقُولُ اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا، أَوْ إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: تَسْخَرُ مِنِّي أَوْ تَضْحَكُ مِنِّي وَأَنْتَ الْمَلِكُ! فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ. وَكَانَ يَقُولُ ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً (١) .

فإذا كان ذلك أدنى أهلِ الجنَّةِ منزلةً فكيف بأعلاهم منزلة، والنبيُّ ﷺ يقول: **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** (٢) .نسألُ اللهَ تعالى أن يرفعَ درجاتِنا.

وأهلُ الجنَّةِ قسمان: مقتصدونَ وسابقون، فالمقتصدونَ هم الذينَ فعلوا الواجباتِ وتركوا المُحرَّمات، ولم تكن لهم هِمَّةٌ في فعلِ المُستحبَّاتِ وتركِ المكروهات، والسَّابقونَ هم الذينَ تنافسوا في الطَّاعاتِ واستبقوا الخيرات، ففعلوا كلَّ ما يُحبُّهُ اللهُ من الواجباتِ والمستحبَّات، وتركوا كلَّ ما يكرههُ من المحرَّماتِ والمكروهات .

وفي ذلك يقولُ ربُّنا تعالى في الحديثِ القُدُسيِّ: **مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ** وهؤلاءِ هم المقتصدون **وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ** (٣) وهؤلاءِ هم السابقون .

---

(١)متفق عليه : خ(٦٥٧١/٤١٨و٤١٩/١١)،م(١٨٦/١٧٣/١)،جه(٤٣٣٩/١٤٥٢و١٤٥٣/٢)
(٢) خ(٢٧٩٠/١١/٦).
(٣) خ(٦٥٠٢/٣٤٠و٣٤١/١١).

فالمقتصدونَ جنَّتُهم من فضَّةٍ وكلُّ ما فيها من فضَّة، والسابقونَ جنَّتُهم من ذهبٍ وكلُّ ما فيها من ذهب :

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلاَّ رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ (١) .

ولذلك تقرأ القرآنَ الكريمَ فتسمعُ اللهَ تعالى يقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(٢٣)** ﴾ [الحج]، ثمَّ تقرأُ فتسمع اللهَ تعالى يقول : ﴿**عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا(٢١)** ﴾ [الإنسان]، فلا تظنَّ أنَّ أهلَ الجنَّةِ يُحلَّونَ بالذهبِ تارةً وبالفضَّةِ تارةً أُخرى، لا، الذينَ يُحلَّونَ بالذهبِ هم السَّابقون أصحابُ الدرجةِ العاليةِ الرَّفيعة، والذين يُحلَّون بالفضَّةِ هم المقتصدونَ أصحابُ اليمين .

وقد فرَّق ربُّنا سبحانهُ بين الجنَّتينِ في خواتيمِ سورةِ الرحمن وأوَّلِ الواقعة، فقال تعالى: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(٤٦)** ﴾ [الرحمن]، ثُمَّ وصفهما، ثُمَّ قال: ﴿**وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ(٦٢)** ﴾ [الرحمن]، ثُمَّ وصفهما، والفرقُ ظاهر:

فالأوليان: ﴿ **ذَوَاتَا أَفْنَانٍ(٤٨)** ﴾	والأُخريان: ﴿**مُدْهَامَّتَانِ(٦٤)** ﴾
﴿ **فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ(٥٠)** ﴾	﴿**فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ(٦٦)** ﴾
﴿**فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ(٥٢)** ﴾	﴿**فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ(٦٨)**﴾
﴿**مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ**	﴿**مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْـــــرٍ**

---

(١) متفق عليه : خ(٨/٦٢٤/٤٨٧٨)،م(١/١٦٣/١٨٠)،جه(١/٦٦/١٨٦و١/٦٧)،ت(٤/٨١/٢٦٤٨)

إستبرق وجنى الجنتين دان(٥٤) ﴾ وعبقري حسان(٧٦) ﴾

﴿فيهن قاصرات الطرف(٥٦) ﴾ ﴿حور مقصورات في الخيام(٧٢) ﴾

﴿كأنهن الياقوت والمرجان(٥٨) ﴾ ﴿فيهن خيرات حسان(٧٠) ﴾.

وفي سورة الواقعة قال تعالى: ﴿والسابقون السابقون(١٠) أولئك المقربون(١١) في جنات النعيم(١٢) ثلة من الأولين(١٣) وقليل من الآخرين(١٤) على سرر موضونة(١٥) متكئين عليها متقابلين(١٦) يطوف عليهم ولدان مخلدون(١٧) بأكواب وأباريق وكأس من معين(١٨) لا يصدعون عنها ولا ينزفون(١٩) وفاكهة مما يتخيرون(٢٠) ولحم طير مما يشتهون(٢١) وحور عين(٢٢) كأمثال اللؤلؤ المكنون(٢٣) جزاء بما كانوا يعملون(٢٤) لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما(٢٥) إلا قيلا سلاما سلاما(٢٦) وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين(٢٧) في سدر مخضود(٢٨) وطلح منضود(٢٩) وظل ممدود(٣٠) وماء مسكوب(٣١) وفاكهة كثيرة(٣٢) لا مقطوعة ولا ممنوعة(٣٣) وفرش مرفوعة(٣٤) إنا أنشأناهن إنشاء(٣٥) فجعلناهن أبكارا(٣٦) عربا أترابا(٣٧) لأصحاب اليمين(٣٨) ثلة من الأولين(٣٩) وثلة من الآخرين(٤٠) ﴾.

ومن هذه النصوص يظهر لنا أن لباس أهل الجنة الحرير، وحليهم الذهب والفضة واللؤلؤ، وطعامهم فاكهة ولحم طير، وشرابهم ﴿من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات(١٥) ﴾[محمد]، ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾فقيل لهم لا، ليس هو، وإنما يشبهه، ﴿وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة﴾من البول والغائط والبصاق والحيض والنفاس، ﴿وهم فيها خالدون(٢٥) ﴾[البقرة].

وحتى يتمتع أهل الجنة بهذا النعيم يزاد الرجل منهم قوة على قوته،

وصحَّةً على صحَّته، كما قال ﷺ : **إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجِمَاعِ** (١) .

ويُصرف عنهم النَّوم، لأنَّ **النَّومَ أخو الموتِ ولاَ يَمُوتُ أَهْلُ الجنَّة**(٢)، فيظلُّون هكذا مشغولينَ بما هم فيه من النَّعيم؛ كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ(٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ(٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ(٥٧)** ﴾[يس].

ويُعطى أهلُ الجنَّةِ جميعًا رجالاً ونساءً من الجمالِ والحُسنِ والبهاءِ ما يفوقُ الوصف، كما قال ﷺ : **لَوْ أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَ فَبَدَا أَسَاوِرُهُ لَطَمَسَ ضَوْءَ الشَّمْسِ كَمَا تَطْمِسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجُومِ** (٣) ، وقال ﷺ : **لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا** (٤) .

ثُمَّ هم دائمًا في زيادةٍ من هذا الجمال، كما قال ﷺ : **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالاً، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالاً، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً** (٥) .

ولمَّا كان جمالُ الباطنِ هو الجمالُ حقًّا، كما قال الشاعر:

---

(١) صحيح: [ص.ج:١٦٢٣]، مى (٢/٢٤١/٢٨٢٨) .

(٢) صحيح: [ص.ج:٦٦٨٤]، وانظر الصحيحة(١٠٨٧).

(3) صحيح: [ص.ت:٢٥٣٨]، ت(٤/٨٥/٢٦٦١).

(4)خ (١١/٤١٨/٦٥٦٨)، ت(٣/١٠٠/١٦٩٩).

(5) م (٤/٢١٧٨/٢٨٣٣).

ليس الجمالُ بأثوابٍ تُزيِّننا   إنَّ الجمالَ جمالُ العلمِ والأدبِ

فإنَّ اللهَ تعالى جمَّل باطنَ أهلِ الجنَّةِ كما جمَّل ظاهرَهم، فقال تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا(٢١)﴾ [الإنسان]، فطهَّر اللهُ تعالى قلوبَهم من كلِّ خُلُقٍ دنئ، فلم يبقَ فيها غلٌّ ولا حسدٌ ولا حقد، وإنَّما صاروا كما وصفهم اللهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ(٤٧)﴾[الحجر].

ذلك الذي وصفنا شيءٌ من نعيم الجنَّة، وما راءٍ كمن سمعا، ولكنَّه الترغيبُ والتشويق ، الذي يحدو الأرواحَ إلى بلادِ الأفراح ، فهل من مُشمرٍ للجنَّة ؟!

ولأهلِ الجنَّةِ فوقَ هذا النعيمِ نعيمُ الرُّؤية، رؤيةِ الرَّبِّ تعالى والنظر إليه، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(٢٣)﴾[القيامة]، وقال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ(٢٦)﴾[يونس]، والحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر، كما في الحديثِ **عَنْ صُهَيْبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ زَادَ فِي رواية: ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾**(١) .

اللهمَّ أدخلنا الجنَّةَ بغير حساب ولا عذاب، ومتِّعنا بالنظر إليك برحمتك يا أرحمَ الراحمين.

---

(١) م(١/١٦٣/١٨١)، ت(٤/٩٢/٢٦٧٦).

الإيمَــــانُ بالقَــــدَر

القَــدَرُ اســمٌ لما صدر مقدَّراً عن فعل القادر، يُقال:قدَرتُ الشيءَ وقدَّرتُه بالتخفيفِ والتثقيلِ بمعنىً واحــد، والقضاءُ في هذا معناه الخلق، كقوله تعالــى : ﴿ فَقَضَــاهُنَّ سَــبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ(١٢) ﴾[فصلت] أي خلقهنَّ، فلا فرقَ بين القضاء والقدر، بل كلٌّ منهما بمعنى الآخر، وإذا أُطلق أحدُهما شمل الآخر[١].

والإيمانُ بالقدر هو الرُّكنُ السادسُ من أركان الإيمان، وقد تظاهرت عليه الأدلَّةُ القطعيَّةُ من الكتاب والسنَّة وإجماع الصحابة وأهل الحلِّ والعقد من السلف والخلــف[٢]، قــال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ(٤٩) ﴾[القمر]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا(٢) ﴾[الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْــدُورًا(٣٨) ﴾[الأحــزاب]، وقــال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى(١) الَّذِي خَلَقَ فَسَــوَّى(٢) وَالَّــذِي قَدَّرَ فَهَدَى(٣) ﴾[الأعلى]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى(٤٠) ﴾[طه]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ(٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ(٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ(٢٣) ﴾[المرسلات].

وَعَــنْ عُمَــرَ بْــنِ الْخَطَّــابِ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ صَدَقْتَ.[٣]

وَعَــنْ عَــبْدِ اللَّــهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ [٤] .

(١و٢) صحيح مسلم بشرح النووي(١/١٥٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) م(٢٦٥٥/٢٠٤٥/٤).

وقد نفى النبيُّ ﷺ الإيمانَ عن من لم يؤمن بالقدر:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: **لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ** (١) .وَعَنْ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: **لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، وَيُؤْمِنُ بِالْمَوْتِ وَبِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ** (٢). وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً،وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَه، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَه** (٣). وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **ثَلاَثَةٌ لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُمْ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً: عَاقٌّ وَمَنَّانٌ وَمُكَذِّبٌ بِالْقَدَرِ** (٤) .

والإيمانُ بالقدرِ على أربعِ مراتب :

المرتبةُ الأولى: الإيمانُ بعلمِ اللهِ الشَّاملِ المحيطِ بكلِّ شيء، ومعناه أن يؤمنَ العبدُ أنَّ اللهَ تعالى قد أحاط بكلِّ شيءٍ علما، وأنَّ اللهَ تعالى قد عَلِمَ الموجوداتِ والمعدوماتِ والممكناتِ والمستحيلات، وعلِمَ ما كانَ وما يكونُ وما سيكون، وعلِم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(١٢)** ﴾ [الطلاق]، وقال تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ(٨)**

---

(١) **صحيح**[ص.ت:٢١٤٤]، ت(٣/٣٠٦/٢٢٣١).

(٢) **صحيح**[ص.ت:٢١٤٥]، ت(٣/٣٠٦/٢٢٣٢و٣/٣٠٧)، جه(١/٣٢/٨١).

(٣) **صحيح**[ص.ج:٢١٤٦]، حم(١/١٣٤/٢٣).

(٤) **حسن**:[ص.ج:٣٠٦٠]،ابن أبي عاصم في السنة(١/١٤٢/٣٢٣)،طب(٨/١٤٠/٧٥٤٧).

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ(٩) ﴾[الرعد]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٦) ﴾ [هود]

وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٥٩) ﴾[الأنعام]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٧) ﴾[المجادلة]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢٧) بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(٢٨) ﴾[الأنعام]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ(٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ(٢٣) ﴾[الأنفال].

وقد ذُكِرَ العلمُ في سورةِ البقرةِ في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩) ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٠) ﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣) ﴾، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ

وَاللَّـهُ يَعْلَـمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٢١٦) ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ(٢٥٥) ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّـهَ وَيُعَلِّمُكُـمُ اللَّـهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٨٢) ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ(٢٨٣) ﴾.

وَعَـنْ عِمْـرَانَ بْـنِ حُصَـيْنٍ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَعُلِمَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِـنْ أَهْـلِ الـنَّارِ؟ فَقَـالَ نَعَـمْ. قِيلَ: فَفِيمَ يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ؟ قَالَ كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ (١) .

وَعَنْ عَلِيٍّ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَنْكُتُ فِي الأَرْضِ، إِذْ رَفَـعَ رَأْسَـهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ قَدْ عُلِمَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَـدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ قَالُوا: أَفَلاَ نَتَّكِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ : لاَ،اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ (٢) .

وَعَـنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَوْلاَدِ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: اللَّهُ إِذْ خَلَقَهُمْ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ (٣).

المرتـبةُ الثانية: الإيمانُ بأَنَّ الله سبحانه قد كتب ما عَلِمَهُ من أحوال عباده فـي كتابٍ محفوظٍ عنده في سمائه كما قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِـكَ فِـي كِـتَابٍ إِنَّ ذَلِـكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(٧٠)﴾[الحج]، وقال تعالى:﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ

---

(١) م(٢٦٤٩/٢٠٤١/٤).

(٢) متفق عليه:خ(١٣٦٢/٢٢٥/٣)،م(٢٦٤٧/٢٠٣٩و٢٠٤٠/٤)،د(٤٦٦٩/٤٥٧-٤٥٩/١٢)، ت(٢٢١٩/٣٠١و٣٠٢/٣)، جه(٧٨/٣٠و٣١/١).

(٣) متفق عليه: خ(١٣٨٣/٢٤٥/٣)، م(٢٦٦٠/٢٠٤٩/٤)، د(٤٦٨٦/٤٨٢و٤٨٣/١٢)، ن(٥٩/٤).

قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(٢٢)﴾[الحديد]، وقال تعالى:﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ(١٢)﴾[يس]، وقال تعالى:﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٦١)﴾[يونس].

عَنْ عبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقُول : إنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (١).

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ: لَهُ اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ(٢).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ(٣) .

__المرتبةُ الثَّالثة:__ الإيمانُ بإرادةِ اللهِ تعالى ومشيئتِه: أَن يؤمنَ العبدُ أَنَّ كلَّ

---

(١) م(٢٦٥٣/٢٠٤٤/٤)،ت(٢٢٤٥/٣١١/٣).

(٢) صحيح [ص.ت:٣٣١٩]، ت(٢٢٤٤/٣١٠و٣١١/٣)، د(٤٦٧٥/٤٦٧و٤٦٨/١٢).

(٣) صحيح [ص.ت:٢٥١٦]، ت(٢٦٣٥/٧٦/٤)، حم(١٢/٢٦/١)، ك(٥٤١/٣).

(٤) العقيدة الطحاوية للألباني (٢١و٢٢).

شيءٍ يجري بتقدير اللهِ تعالى ومشيئتِه، ومشيئتَه تنفُذ، لا مشيئةَ للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن، يهدي من يشاء ويعصمُ ويُعافي فضلاً، ويُضِلُّ من يشاء ويخذلُ ويبتلي عدلاً، وكلُّهم يتقلبون في مشيئتِه بين فضلهِ وعدله، وهو مُتعالٍ عن الأضداد والأنداد، لا رادَّ لقضائه ولا مُعقِّبَ لحُكمه، ولا غالبَ لأمره، آمنا بذلك كلِّه وأيقنا أنَّ كلاًّ من عنده (٤)، قال تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٣)﴾ [السجدة]، وقال تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ(٤٨)﴾[المائدة]، وقال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً(١١٨)﴾ [هود]، وقال تعالى:﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(١٦)﴾[البروج]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ(١٤)﴾[الحج]، وقال تعالى:﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ(١٢٥)﴾[الأنعام].

ولذلك أدَّب اللهُ نبيَّهُ ﷺ بأدب الأنبياء فقال له: ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا(٢٣) إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ(٢٤)﴾[الكهف]، حتى يهتديَ بهدي السابقين من النَّبيين كما قال تعالى:﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ(٩٠)﴾[الأنعام]، ومن هديهم رَدُّ الأشياء كلِّها إلى مشيئة الله، فهذا نوحٌ عليه السلام لما قال له قومُه: ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ(٣٣)﴾[هود]، وشُعيْبٌ لما طلب منه قومُهُ أَنْ يعودَ إلى مِلَّتِهم قال:﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا(٨٩)﴾[الأعراف]، وإبراهيمُ قال لقومه:﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا(٨٠)﴾[الأنعام]، ولمَّا قال لإسماعيل: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ(١٠٢) ﴾[الصافات]،

وقال يوسفُ لأبويْهِ وإخوته: ﴿ ادْخُلُوا مصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ(٩٩) ﴾[يوسف]، وقال موسى للخَضر:﴿ ستَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا(٦٩) ﴾[الكهف]

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ : اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ (١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ (٢)

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ؟ فقَالَ: أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟ قُلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ (٣).

المرتبةُ الرابعة: الإيمانُ بأَنَّ اللهَ سبحانه هو خالقُ كلِّ شيء، لا خالقَ غيرُه، ولا شريكَ له في الخَلق قال تعالى: [الزمر]، وقال تعالى:﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(٦٢) ﴾[غافر]، وقال تعالى:﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ(١٠٢) ﴾[الأنعام] ومن الأشياءِ أعمالُ النَّاسِ فهي من خَلْقِ اللهِ تعالى:﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ(٩٦) ﴾ [الصافات].

---

(١) متفق عليه : خ(١٤٣٢/٢٩٩/٣)، م(٢٦٢٧/٢٠٢٦/٤)، د(٥١٠٩/١٤/٤٠:٠)، ت(٢٨١٢/١٤٨/٤)، ن(٧٨/٥).

(٢) م(٢٦٥٤/٢٠٤٥/٤).

(٣) حسن :[س.ص:١٣٩]، خد(٧٨٧)، جه(٢١١٧/٦٨٤/١)، والطحاوي في المشكل (٩٠/١)، هق(٢١٧/٣).

وهكـــذا تبيَّـــنَ لـــنا أهميةُ الإيمانِ بالقدر، وأنَّه الركن السادس من أركان الإيمان، وأَنَّ من أنكر القدرَ فقد كفر، فإنْ قيل: إنْ كان القدرُ بهذه الأهميَّةِ فلماذا لـــم يُذكـــرْ في القرآن ؟ فالجواب: أَنَّ الله تعالى قد ذكر للإيمان خمسةَ أركان، ذكـــرها فـــي ســـورة البقرة في قوله تعالى:﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْـــرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ(١٧٧)﴾ ، وقوله:﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَـــنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِه(٢٨٥)﴾، وذكرها أيضا في سورة النساء في قو ـــله:﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِـــيدًا (١٣٦)﴾، ولـــم يذكـــر الركنَ السادسَ وهو الإيمانُ بالقدر لأَنَّهُ بعدَ الشَّرحِ والبيان لمعنى الإيمانِ بالقدر يتبيَّنُ لنا أَنَّ الإيمانَ بالقدر مُتعلِّقٌ بالإيمانِ بالله عزَّ وجـــلَّ وبأسمائه وصفاته، فهو إذن داخلٌ في عموم الإيمانِ بالله، ثمَّ إِنَّ النبيَّ ﷺ بيَّن ذلك وفصَّله، وعدَّ الإيمانَ بالقدر الركنَ السادسَ من أركان الإيمان، وصدَّقَهُ جـــبريلُ على ذلك، وقد قال تعالى:﴿ وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْـــتَهُوا(٧)﴾[الحشـــر]، وقال تعالى:﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى(٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى(٤)﴾[النجم].

ولـــيس معنى القدرِ الإكراهَ والإجبارَ ونفيَ قُدرةِ الإنسانِ وإرادتهِ ومشيئته فللإنســـان قُدرتُـــهُ واختيارُهُ ومشيئتُه، قال تعالى:﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَـــاجٍ نَبْتَلِـــيهِ فَجَعَلْـــنَاهُ سَـــمِيعًا بَصِيرًا (٢)إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُـــورًا(٣)﴾[الإنسان]، وقال تعالى:﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَـــاءَ فَلْـــيَكْفُرْ(٢٩)﴾[الكهف]، وقال تعالى:﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧)لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ(٢٨)﴾[التكوير]، ولكنَّ مشيئةَ العبدِ تابعةٌ لمشيئةِ الله، غلبت مشيئتُه المشـــيئاتِ كلَّهـــا، وغلب قضاؤه الحيلَ كلَّها، يفعلُ ما يشاءُ وهو غيرُ ظالمٍ أبداً

﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ(٢٣)﴾[الأنبياء] (١)

قال الخطابي: وقد يحسب كثيرٌ من الناس أنَّ معنى القضاءِ والقدرِ إجبارُ اللهِ سبحانه وتعالى العبدَ وقهرُه على ما قدَّره وقضاه، وليس الأمرُ كما يتوهَّمُونه وإنَّما معناه الإخبارُ عن تَقَدُّمِ عِلْمِ اللهِ سبحانه وتعالى بما يكونُ من اكتسابِ العبدِ وصدُورُها عن تقديرٍ منه وخلقِ خَيْرِها وشَرِّها(٢).

وقد يردُ سُؤالٌ: هل الدُّعاء يرفعُ القدر؟ والجواب نعم.

عَنْ سَلْمَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لاَ يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلاَّ الدُّعَاءُ (٣)

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مِرَارٍ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ إِلاَّ عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ (٤).

فالدُّعاء يرفع القدرَ الذي نزل، ويردُّه أحياناً قبل نزوله، قال تعالى:﴿ **فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(٩٨)** ﴾ [يونس].

وَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَأَى مِنَ النَّاسِ إِدْبَارًا قَالَ: اللَّهُمَّ سَبْعٌ كَسَبْعِ يُوسُفَ، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَكَلُوا الْجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ وَالْجِيَفَ، وَيَنْظُرَ أَحَدُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى الدُّخَانَ مِنَ الْجُوعِ فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ! إِنَّكَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنَّ

---

(١) الطحاوية (٥٥).

(٢) شرح مسلم للنووي (١/١٥٥).

(٣)حسن [ص.ت:٢١٣٩]، ت(٢٢٢٥/٣٠٣/٣و٣٠٤/٣).

(٤)صحيح : [ص.د:٢٦٦٣]، د(٣٠٩٠/٣٧١/٨)، ت(٢١٦٥/٢٧٧/٣).

قَوْمَـكَ قَـدْ هَلَكُـوا فَادْعُ اللَّهَ لَهُمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَـانٍ مُبِينٍ (١٠)﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ(١٦) ﴾ [الدخان][1]

وللإيمـان بـالقدر فوائـد، منها: الرضا والطمأنينة والتسليم قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِـيمٌ(١١)﴾ [التغابـن]، وقـال تعالى:﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِـيبَةٌ قَـالُوا إِنَّـا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة]

وَعَـنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَـيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ [2].

فيجبُ على كل مؤمنٍ أَنْ يوطِّنَ نفسَهُ على الرضا بالقضاء حتى يكون شعارُه: يا ربّ :

ما مسَّني قـدرٌ بكـرهٍ أو رضـا ... إلاَّ اهتديتُ به إليك طريقـا

أمضِ القضاءَ على الرضا منِّي به ... إني علمتُك في القضاء رفيقا

* * *

(١) متفق عليه :خ ١٠٠٧/٤٩٢/١و٤٩٣/٢ ، م(٢٧٩٨/٢١٥٥و٢١٥٦/٤) .
(٢) م(٢٩٩٩/٢٢٩٥/٤)

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلَامُ

إنَّ الإيمان ليس مجرد كلمات تنطق ولا حروف يترجمها اللسان، ولكن الإيمان عقيدة وعمل، عقيدة صالحة سليمة من شوائب الشرك، وعمل صالح سليم من شوائب البدعة، قال الحسن: "ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال"[1]، وهذه حقيقة قررها ربّ العالمين في مطلع سورة البقرة فقال تعالى: ﴿الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)﴾ وهذا السياق كقوله تعالى في سورة النساء : ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (162)﴾ وقد شهد الله تعالى للموصوفين بهذه الصفات بالهداية فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)﴾[البقرة] كما شهد لهم بالصدق في قولهم آمنا بالله واليوم الآخر فقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)﴾[البقرة]، وشهد لهم ببلوغ حقيقة

---

(1) اقتضاء العلم العمل (56/177).

الإيمان فقال تعالى:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(٣)أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا(٤)﴾[الأنفال]، فالإيمان الحق إذا تمكن من القلوب أصلحها، وإذا صَلَحتْ القلوب بالإيمان صَلُحَت الأجسام بالإسلام»[1]

عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ»[2]، وإنَّما تصلح القلوب بالإيمان، فإذا صَلُحَت القلوب بالإيمان انقادت الجوارح وهانت عليها الأعمال كما قال تعالى:﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(٤٦)﴾[البقرة]، ولمَّا كان المنافقون يراءون الناس بالأعمال الصالحة ولا يذكرون الله إلاَّ قليلاً ثَقُلت عليهم الأعمال فكانوا كما وصفهم الله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً(١٤٢)﴾[النساء]، وقال تعالى:﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ(٥٤)﴾[التوبة]،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «لَيْسَ صَلاَةٌ أَثْقَلَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ الْمُؤَذِّنَ فَيُقِيمَ ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً يَؤُمُّ النَّاسَ ثُمَّ آخُذَ شُعَلاً مِنْ نَارٍ فَأُحَرِّقَ عَلَى مَنْ لاَ يَخْرُجُ إِلَى الصَّلاَةِ بَعْدُ»[3]. والشاهد أَنَّ الإيمان في القلب والإسلام دليله وعنوانه

---

(١) الإيمان لابن تيمية (١٦).

(٢)متفق عليه :خ(١/١٢٦/٥٢)، م(١٢١٩/١٥٩٩و٣/١٢٢٠)، جه(٢/١٣١٨/٣٩٨٤).

(٣)متفق عليه :خ(٢/١٤١/٦٥٧)، م(٦٥١-٢٥٢-/٤٥١و١/٤٥٢).

ولذلك قيل الإسلام علانية والإيمان في القلب، وقد اختلف في الإسلام والإيمان هل هما بمعنى واحد أم مختلفان والراجح أنَّهما واحد عند الإطلاق، ومختلفان عند الافتراق، فإنْ أُطلق الإسلام شمل الإيمان، وإنْ أُطلق الإيمان شمل الإسلام، وإذا جُمعا لم يسعنا تفسيرهما إلاَّ بما فسرهما به النبي ﷺ في حديث جبريل حيث جعل "**الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**" **وَالإِيمَانِ** "**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**"(١).

والإسلام لغة: الخضوع والانقياد والإخلاص والمتابعة.

وشرعاً: الإسلام هو توحيد الله وإسلام الوجه له بالإخلاص والإحسان والمتابعة لما جاء به النبي ﷺ ، وبذلك أرسل الله الرسل وأنزل الكتب قال تعالى:﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**(٢٥)﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى:﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**(٣٦)﴾ [النحل]، وقال تعالى:﴿ **يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ**(٢)﴾ [النحل]، ولذلك اتفقت كلمة الأنبياء أجمعين على﴿**يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**(٥٩)﴾ [الأعراف]، كما اتفقت كلمتهم على الدعوة إلى دين واحد وهو الإسلام الذي أساسه التوحيد: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ** (٧١) **فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ**

---

(١) سبق تخريجه .

الْمُسْلِمِينَ(٧٢)﴾ [يونس]، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ (١٢٨)﴾ [البقرة]، وقال يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ(١٠١)﴾ [يوسف]، وقال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ(٨٤)﴾ [يونس]، ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩٠)﴾ [يونس]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ(٤٤)﴾ [المائدة]، وقال تعالى في قصة سليمان مع ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ(٤٢)﴾ [النمل]، ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٥٢)﴾ [آل عمران]، ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ(٥٣)﴾ [القصص] ثمَّ جاء نبينا محمد ﷺ متبعاً لهؤلاء الأنبياء مهتدياً بهديهم كما قال له ربه﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٢٣)﴾ [النحل]، وأمره أنْ يبرىء نفسه من الابتداع فقال:﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ(٩)﴾ [الأحقاف]، وقال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٦١)﴾ [الأنعام]، وأمره

أَنْ يُعلنها صريحة أَنَّه من المسلمين فقال:﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٩١)﴾[النمل]، وإلى الإسلام دعا ﷺ قال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(١٠٨)﴾[الأنبياء]، وقال تعالى:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٦٤)﴾[آل عمران]، والمتأمل في أركان الإسلام الخمسة من التوحيد وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت يرى أَنَّ جميع الأنبياء دعوا أقوامهم إليها، أما التوحيد فقد سبق قول الله تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ(٢٥)﴾[الأنبياء]، وأما الصلاة والزكاة فقد قال الله تعالى:﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ(٧٣)﴾[الأنبياء]، وأما الصوم فقد قال الله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١٨٣)﴾[البقرة]، وأما الحج فقد قال الله تعالى:﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لاَ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(٢٧)﴾[الحج]، وهكذا اتحدت دعوة الأنبياء واتحد دينهم واتفقت كلمتهم على توحيد الله وإسلام الوجه له ولذلك قال الله تعالى:﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ(١٩)﴾[آل عمران]، وقال تعالى:﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ(١٣)﴾[الشورى]، وقال تعالى:﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(٨٣)﴾آل عمران]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٨٥)﴾[آل عمران]، وقال تعالى:﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٥)﴾[المائدة]، وحكم

للمسلمين بالهداية وعلق هداية غيرهم على الإسلام فقال تعالى:﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا(١٣٧) ﴾[البقرة]، ورد عليهم زعمهم الهداية فقال تعالى:﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٣٧) ﴾ [البقرة]، وأبطل زعمهم بأنَّ لهم الجنّة فقال رداً عليهم أنَّ الجنّة للمسلمين دونهم: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(١١٢) ﴾[البقرة]، وإنّما كان الإسلام دين الأنبياء جمعياً لأنَّه ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ(١٣٨) ﴾[البقرة] أيّ فطرة الله التي فطر الناس عليها كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٣٠) ﴾ [الروم] ،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾[الروم]"(١)،

فيا عباد الله **﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا(٣٤) ﴾**[الحج]، و**﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا**

---

(١) متفق عليه : خ (٣/٢١٩/١٣٥٨) ، م (٤/٢٠٤٧/٢٦٥٨) ، ت (٣/٣٠٣/٢٢٢٣) ، د (١٢/٤٨٧/٤٦٨٩) .

وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٦٤)﴾ [آل عمران]، ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ(٥٤)﴾ [الزمر]، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا(١٥)﴾ [الجن]، ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(١١١)بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(١١٢)﴾ [البقرة]

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ[١] .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: " وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ[٢].

* * *

(١) م(١٨٨٤/١٥٠١/٣)، ن(١٩و٢٠/٦)، د(١٥١٥/٣٨٨/٤).
(٢) م(١٥٣/١٣٤/١).

الركن الأول من أركان الإسـلام
الشـــــهادتان

الركن الأول من أركان الإسلام الشهادتان: أشهد أَنَّ لا إله إِلاَّ الله أشهد أَنَّ محمداً رسول الله ،

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّهُ عَنْهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ "[1].

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ جِبِرِيلَ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ فَقَالَ رَسُولُ ﷺ: "الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "[2].

فهاتان الشهادتان هما الركن الأعظم من أركان الإسلام، لا يدخل العبد في الإسلام إِلاَّ بهما، ولا يخرج منه إِلاَّ بنقضهما وهما العروة الوثقى التي قـــال الله فيها: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَــكَ بِــالْعُرْوَةِ الْــوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا** (٢٥٦)﴾[البقرة]، وهما العهد الذي قال الله فيه: ﴿**لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**(٨٧)﴾[مريم] قال ابن عباس: العهد هو شهادة أَنْ لاَ إله إِلاَّ الله وأَنَّ محمداً رسول الله[3]. وهما كلمة الحق الذي قال الله فيه: ﴿ **وَلاَ يَمْلِــكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**(٨٦)﴾[الزخرف]، وهما كلمة التقوى التي قال الله فيها: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَــا**

---

(١) متفق عليه:خ(١/٤٩/٨)، م(١/٤٥/١٦)، ت(٤/١١٩/٢٧٣٦)، ن(٨/١٠٧).

(٢) سبق تخريجه (   )

(٣) جامع البيان:(١٦/١٢٨).

وَأَهْلَهَا(٢٦)﴾[الفتح]، وهما الكلمة الطيبة التي قال الله فيها:﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ(٢٤)﴾[إبراهيم]، وهما القول الثابت الذي قال الله فيه: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآَخِرَةِ(٢٧)﴾ [إبراهيم]، وبهما تتعلق السعادة والشقاوة، وبهما تؤخذ كتب الأعمال باليمين أو الشمال، وبهما يثقل أو يخف الميزان، وبهما تتعلق النجاة من النَّار والفوز بالجنَّة، فمن أتى بهما دخل الجنَّة ونجى من النَّار، ومن لم يأتِ بهما فاتته الجنَّة وحكم عليه بالخلود في دار البوار .

ومن دلائل التوحيد في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(١٦٤)﴾ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٢)﴾ وقد كثر في القرآن الكريم الاستدلال بالآيات الكونية على التوحيد، ومما يشبه هذا السياق قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ(٣٤)﴾ [إبراهيم] ، وقال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا

شَجَرَهَا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ(٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ(٦٥)﴾[النمل]، وقوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ (٣٦) وَءَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ(٤٤)﴾ [يس]

ومن دلائل التوحيد في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ وبذلك غلَبَ إبراهيمُ عليه السلام النمرودَ في المناظرة

وألقمه الحجر قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٢٥٨)﴾، وقد جمع الله تعالى في الاستدلال بين الآيات الكونية والآيات الإنسانية فقال تعالى:﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧)مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨)مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩)ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠)ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١)ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣)فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦)فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧)وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨)وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩)وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠)وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١)مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ(٣٢)﴾[عبس]، وإلى هذه الآيات لفت نوح عليه السلام أنظار قومه فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨)وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩)لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا(٢٠)﴾[نوح]، وقال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ(١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاَتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧)بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ(١٨)﴾[الأنبياء]، وقال تعالى:﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ(١٦) أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾[الرعد].

أما رسالة محمد ﷺ فالدليل عليها من سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ(١١٩)﴾ ومما يشهد برسالة محمد ﷺ الوحي الذي أوحى إليه من ربه كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٢٣)﴾ ولقد عدّ الله من أركان الإيمان الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ(٤)﴾ وأثنى الله على رسوله والمؤمنين على إيمانهم بما أنزل الله فقال: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ(٢٨٥)﴾.

وقد شهد الله لرسوله بالرسالة في أكثر من آية قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ(٤٣)﴾[الرعد]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ(٢٩)﴾[الفتح]، وقال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا(١٦٦)﴾[النساء]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ(٢)﴾[محمد]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٩٧)﴾[البقرة].

وفرق سبحانه بين من شهد بذلك ومن كذبه وجعل المكذب أعمى فقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى(١٩)﴾[الرعد]،

وهكذا تبين لكل ذي لب أَنَّه لا إله إلاَّ الله وأَنَّ محمداً رسول الله، ومعنى لا إله إلاَّ الله أيّ لا معبود بحق إلاَّ الله فإِنَّ الآلهة التي اتخذها المشركون مع الله

آلهة باطلة لأنَّها لم تخلق ولم ترزق ولا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع فعبادتها باطلة، أما الله ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)**﴾ [الشعراء] فهذا هو الإله حقاً ولذلك أمر الله رسوله بأَنْ يقول للمشركين: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢)**﴾[يونس]،

فإذا علم أَنَّه لا إله إلاَّ الله أيّ لا معبود بحق إلاَّ الله وجب أَنْ يُعلمَ أَنَّ عبادة الله لا تكون إلاَّ بما شرع الله على لسان رسول الله ﷺ ، وهذا معنى الشهادة الثانية محمد رسول الله ﷺ ولذلك أمر الله بطاعة رسوله فقال تعالى: ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (٥٤)**﴾[النور]، وجعل طاعة الرسول طاعة له فقال تعالى: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (٨٠)**﴾[النساء]، وجعل اتباع الرسول عنوان محبة العبد له فقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ (٣١)**﴾ [آل عمران]، وجعل طاعته واتباعه أعظم موجبات الهداية فقال تعالى: ﴿**وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا (٥٤)**﴾[النور]، وقال تعالى: ﴿**وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)**﴾ [الأعراف]، ونفى الإيمان عمن لم يسلم لرسوله فقال تعالى: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)**﴾[النساء].

فهما توحيدان لا نجاة للعبد إلاَّ بهما توحيد المُرسِل بالعبادة، وتوحيد الرسول بالمتابعة فلا سبيل للوصول من غير طريق الرسول كما قال الإمام الجنيد: "الطرق كلها مسدودة إلاَّ طريق من اقتفى أثر محمد ﷺ فإِنَّ الله عزّ

وجلّ قال له: وعزتي وجلالي لو أتوني من كل طريق واستفتحوني من كل باب ما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك»(١).

ولهاتين الشهادتين فضلُ عظيم :

فهما سبب النجاة من النّار بعد ورودها كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾[مريم]، والمتقون هم المؤمنون، والكافرون هم الظالمون،

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ »(٢)،

وهما سبب الفوز بالجنّة: **عَنْ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ (٣)،**

وبهما يثقل ميزان العبد يوم القيامة : **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَام لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَعَا ابْنَيْهِ فَقَالَ: إِنِّي قَاصٍ عَلَيْكُمَا الْوَصِيَّةَ آمُرُكُمَا بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكُمَا عَنِ اثْنَتَيْنِ أَنْهَاكُمَا عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ، وَآمُرُكُمَا بِلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فَإِنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَوُضِعَتْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ فِي الْكِفَّةِ الأُخْرَى كَانَتْ أَرْجَحَ وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا حَلْقَةً فَوُضِعَتْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ عَلَيْهَا**

---

(١) طريق الهجرتين (٧).

(٢) م(٢٩/٥٧و٥٨/١)، ت(٢٧٧٥/١٣٢/٤).

(٣) متفق عليه: خ(٣٤٣٥/٤٧٤/٦)، م(٢٨/٥٧/١).

لَفصَمَتْهَا أَوْ لَقَصمَتْهَا وَآمُرُكُمَا بِسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ» (١).

وعَنْ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاً كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ فَيَقُولُ بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ فَقَالَ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ قَالَ فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كَفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ»(٢).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي! يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي! يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَتُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً »(٣).

---

(١) صحيح: [ص.خد:٤٢٦]، حم(١٩/٢٢٥/٥٥).

(٢) صحيح: [ص.ت:٢٦٣٩] ، ت(١٣٣/٢٧٧٦و٤/١٣٤)، جه(٢/١٤٣٧/٤٣٠٠)، ك(٦و١/٥٢٩)، حم(١٥١/٣٦٨و٢٤/١٥٢).

(٣) صحيح: [ص.ت:٣٥٤٠]، ت(٥/٢٠٨/٣٦٠٨).

والنصوص الواردة في فضل الشهادتين كثيرة وحسبك حديث شعب الإيمان : **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ أَوْ سَبْعُونَ بَابًا أَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَأَرْفَعُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ "**[١].

* * *

(١) م(٣٥-٥٨-/٦٣/١)، د(٤٦٥١/٤٣٢و٤٣٣/١٢)، ن(١١٠/٨)، جه(٥٧/٢٢/١)، ت(٢٧٤٦/١٢٣/٤).

الركن الثاني من أركان الإسلام
إقـــام الصـــلاة

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَـامِ الصَّـلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ »(١).

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَـاةَ، وَتَصُـومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً»(٢).

وقد تكرر ذكرُ الصلاة في سورة البقرة تسعَ مرات:

فأمر اللهُ بالمحافظة عليها فقال تعالى:﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّـلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ(٢٣٨) ﴾،وجعل إقامتها ركناً من أركان الإيمان فقـال تعالى:﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ يُنْفِقُـونَ(٣)﴾، وقال تعالى:﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِـنَّ الْبِـرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَـابِ وَأَقَـامَ الصَّلاَةَ(١٧٧)﴾،وأمر بإقامتها مرتين فقال تعالى:﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ(٤٣)﴾، وقال تعالى:﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ(١١٠)﴾،

---

(١) متفق عليه: خ(١/٤٩/٨)، م(١/٤٥/١٦)، ت(٤/١١٩/٢٧٣٦)، ن(٨/١٠٧).

(٢) م (١/٢٤/٨)، ت(٤/-١٢١-١١٩/٢٧٣٨)، د(١٢/٤٦٤-٤٥٩/٤٦٧٠)، ن(٨/٩٧) ، جه(١/٢٤/٦٣).

وبيَّن أنَّه فرَضها على من كان قبلنا فقال تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ(٨٣)﴾، وأمر بالاستعانة بها على أعباء الحياة مرتين فقال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ(٤٥)﴾، وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾، ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾ على حوائجكم كلِّها الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾ فإنَّ الصلاة صلةٌ بين العبد وربِّه، والصلاة تقرِّب العبدَ من ربِّه ﴿كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)﴾[العلق]، ويقول النبي ﷺ : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ »(١)، فاستعينوا على أموركم الدِّينيَّةِ بالصبر والصلاة، واستعينوا على ما ترجون من رحمة الله في الآخرة وما تخافون من عذابه بالصبر والصلاة، فإنَّ الصلاة من أعظم موجبات الجنَّة ومن أعظم المنجيات من النَّار و ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾ على ما يصيبكم في هذه الحياة الدنيا من نكدٍ وهمٍّ وغمٍّ وحزنٍ وبلاءٍ وشقاء فإنَّ الصلاة تطهر النفس من دنايا الأخلاق وقبيح الصفات وتوطد صلة العبد بربه فلا يكون المصلي إلاَّ راضياً قانعاً مستسلماً لله سبحانه وتعالى قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢)﴾[المعارج]، المصلي لا يجزع إذا مسه الشر ولا يمنع إذا مسه الخير، المصلي موصول بالله تعالى فهو راضٍ بقضاء الله مستسلم لقدره، واثق أَنَّ قضاء الله تبارك وتعالى خير له وأَنَّ تدبير الله تبارك وتعالى خير من تدبيره لنفسه، وأَنَّ اختيار الله عزَّ وجلَّ له خير من اختياره لنفسه فإذا أتته الدنيا كلها لم يفرح بها، وإذا تولت

---

(١) م(٣٥٠/٤٨٢/١)، د(٣/١٢٨/٨٦١)، ن(٢/٢٢٦).

عنه كلها لم يحزن على فواتها ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) ﴾ولكن أيُّ المصلين هم ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣)﴾ فبالصلاة تطمئن القلوب وتهدأ الأعصاب ويذهب الهمُّ والغمُّ والنكدُ والحزنُ ويذهب البؤس والشقاء ويتجدد في القلب الإيمان ويتجدد فيه الرضى والاستسلام لله رب العالمين ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ(٤٥)﴾[العنكبوت]، وكان ﷺ يَقُولُ: " يَا بِلالُ أَقِمِ الصَّلاَةَ أَرِحْنَا بِهَا "(١)، كان إذا همَّه نصبٌ أو همٌّ أو حزن قال: "أَرِحْنَا بِالصَّلاَةَ يَا بِلاَلُ" لأَنْ الحزين إذا قام في الصلاة ناجى الله وناجاه الله فاطمأن قلبه بذكر الله، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: " قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَمِدَنِي عَبْدِي وَإِذَا قَالَ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي وَإِذَا قَالَ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ مَجَّدَنِي عَبْدِي وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي فَإِذَا قَالَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قَالَ هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ فَإِذَا قَالَ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ قَالَ هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ "(٢) فيخرج الحزين من الصلاة فرحاً مسروراً، ويخرج القلق من الصلاة هادئاً مطمئناً، ولذلك كان ابن عباس في سفر فنُعي له ولد من أولاده وهو على الدابة فتنحى جانباً ونزل من على دابته وأقام الصلاة فسئل عن ذلك فقال: نعي إليّ ولدي والله تعالى يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ(٤٥)﴾[البقرة] فهذه الصلاة وأسأل الله أَنْ يرزقني الصبر،وأمّا الموضع التاسع الذي ذكر فيه الصلاة في سورة البقرة فقوله

---

(١) صحيح : [ص .د : ٤١٧١] ، د(١٣/٣٣٠/٤٩٦٤).

(٢) م(١/٢٩٦/٣٩٥)، د(٣/٣٨/٨٠٦)، ت(٤/٢٦٩/٤٠٢٧)، ن(٢/١٣٥).

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٧٧)﴾ فنفى الله تعالى عن المقيمين الصلاة الخوف فأوجب لهم الأمن ونفى عنهم الحزن فأوجب لهم الفرح والسرور، فالمقيمون الصلاة آمنون في الدنيا مطمئنون فرحون مسرورون ويوم القيامة يدخلون الجنَّة دار النعيم ليتم لهم النعيم وتتم لهم السعادة ويتم لهم الفرح والسرور، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ(٤٩)﴾[الأعراف]، ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ(٧٠)﴾[الزخرف]، ولذلك حكى الله تبارك وتعالى عن أهل الجنَّة أنَّهم لمّا دخلوها حمدوا الله عزَّ وجلَّ على ما أذهب عنهم من الهمَّ الحزن وأوجب لهم من الأمن والأمان والفرح والسرور فقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ(٣٥)﴾[فاطر]، فحَافِظوا عبادَ الله على الصلاة كما أمركم الله، وأعلموا أنَّ المحافظة على الصلاة من أعظم موجبات الجنَّة فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ(٣٥)﴾[المعارج]، وبيَّن سبحانه أنَّ منازل المقيمين الصلاة في الجنَّة هي أعلى المنازل، وأنَّ درجاتهم أعلى الدرجات فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(١١)﴾[المؤمنون]، فالمقيمون الصلاة في الجنَّة في أعلى درجاتها وأعلى منازلها في الفردوس الأعلى **والنبي ﷺ يَقُولُ:** **" خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يَنْتَقِصْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَهْدًا أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ قَدِ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ إِنْ**

شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»[١] ،

ولقد ذم الله تبارك وتعالى المصلين ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ الذين يسهون عن الصلاة حتى يخرج وقتها، الذين يسهون عن الصلاة يوماً ويومين وثلاثة، الذين يسهون عن الصلاة بحسب المشاغل وكثرة الأعمال، إذا كثر الشغل وكثر العمل سهوا عن الصلاة فلم يقيموها ذم الله هؤلاء المصلين وتوعدهم فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)﴾[الماعون]، فإذا كان قد توعد ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فما بالك بالذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١)﴾[الانشقاق] أولئك مأواهم سقر: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)﴾[المدثر]، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)﴾[المدثر].

فاتقوا الله عباد الله وأقيموا الصلاة كما أمركم الله ومروا بها أهليكم وأولادكم كما قال سبحانه : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا (١٣٢)﴾[طه]، وكما قال النبي ﷺ : «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ »[٢]، إِنَّ ترك الصلاة من أعظم أسباب النَّار، والله تعالى قد أمرك أيها الأب أن تعمل على إنجاء نفسك وولدك من النَّار فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]،

---

(١) صحيح : [ص.جه:١١٥٠]، جه(١/١٩٩/١٤٠١)، د(٢/٩٣/٤٢١)، حم(٢/٢٣٤/٨٢)، ن(١/٢٣٠).

(٢) حسن[ص.ج:٥٨٦٨]، د(٢/١٦٢/٤٩١) وهذا لفظه، حم(٢/٢٣٧/٨٤)، ك(١/١٩٧).

والملاحظ في هذه التسع المواضع أَنَّ الله تعالى ذكر الصلاة فيهـا بلفـظ الإقامة، يقيمون، أقاموا، أقيموا، وهكذا دائما في القرآن كله لا تذكر الصـلاة إلاَّ بلفظ الإقامة سواء بلفظ الفعل الماضي أو المضارع أو الأمر أو الاسم، فما معنى إقامة الصلاة ؟ إنَّما تقام الصلاة بالمحافظة على إسباغ وضوئها، والحرص على أول وقتها، وشهود الجماعة فيها، والخشوع ،

قال ابن القيم –رحمه الله-: والناس في الصلاة على مراتب خمسة:

أحدها: مرتبة الظَّالم لنفسِه المفَرِّط، وهو الـذي نقـص مـن وضـوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثاني: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظـاهرة ووضـوئها لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث: من يحافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوسـاوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد.

الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شيئاً منها، بل همُّه كله مصروف إلـى إقامتها كما ينبغي، وإكمالها وإتمامها، قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها .

الخامس: من إذا قام إلى صلاته قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عزَّ وجلَّ ناظراً بقلبه إليه، مراقباً له ممتلئاً مـن محبتـه وعظمته كأَنَّه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات، وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مِمَّا بـين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه عزَّ وجلَّ قرير العين به .

فالقسم الأول معاقب، والثاني محاسب، والثالث مكفر عنه، والرابع مثاب، والخامس مقرب من ربه عزَّ وجلّ(١).

إقامة الصلاة تكون بإسباغ وضوئها، أنْ تتوضأ نحواً من وضوء النبي ﷺ

وصفة وضوئه ﷺ بإيجاز :

أن يقول من أراد الوضوء: بسم الله ولا يشرع الكلام بغير التسمية في أول الوضوء، لا يشرع الكلام بالاستعاذة ولا بالتلفظ بالنية، لا يشرع عند إرادة الوضوء إلاَّ بسم الله فقد قال ﷺ : « **لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لاَ وُضُوءَ لَهُ وَلاَ وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ**»(٢)، ثمَّ يغسل كفيه إلى الرسغين، ويخلل بين أصابع يديه ويتعاهد أظافيره فلا يترك تحتها وسخاً، ومما ابتليت به نساء هذا العصر ما يضعنه على أظافيرهنَّ مما يسمى بالمناكير، وكفاك من قبح الشيء قبح اسمه، هذه المناكير مادة لاصقة بالظفر لها جرم، لا يصل الماء إلى الظفر وهذه المادة فوقه وبالتالي يبطل الوضوء وتبطل الصلاة، ثمَّ يتمضمض ويستنشق ثلاثاً على أي صفة كانت ، والأفضل أن يجمع بين المضمضة والاستنشاق من غرفة واحدة يفعل ذلك ثلاث مرات، ويستاك، فإنَّ النبي ﷺ قد أكد على الأمر بالسواك فقال: «**لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ مَعَ كُلِّ صَلاَةٍ**»(٣) ، ثمَّ يغسل وجهه من منبت الشعر إلى أسفل الذقن، وعرضاً ما بين الأذنين، يغسل وجهه ثلاثاً فإذا غسل وجهه ثلاثاً، أخذ حفنة من ماء فخلل بها لحيته هكذا فعل ﷺ **وَقَالَ: « هَكَذَا أَمَرَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ »**(٤)، ثمَّ يغسل يديه مبتدأً

---

(١) نضرة النعيم (٦/٢٥٣٨).

(٢) صحيح: [ص.د :٩٢] ، د(١/١٧٤/١٠١)، جه(١/١٤٠/٣٩٩).

(٣) صحيح: [ص.ج : ٥١٩٤] ، حم(١/٢٩٤/١٧١).

(٤) صحيح: [الإرواء:٩٢]، د(١/٢٤٣/١٤٥)، هق(١/٥٤).

باليمنى من رؤوس الأصابع إلى ما فوق المرفقين ظهراً وبطناً وجوانباً، لو ترك من هذا شيئاً بطل وضوءه وبطلت صلاته، ثمَّ يغسل يده اليسرى كذلك، ثمَّ يمسح رأسه ويستوعبها بالمسح يضع كفيه في مقدم رأسه ويذهب إلى الخلف ثمَّ يعود إلى حيث بدأ، ثمَّ يمسح بإصبعيه أذنيه بما مسح به الرأس فقد قال ﷺ: " **الأُذُنَانِ مِنَ الرَّأْسِ**"(١)، فيمسحان مع الرأس، ويجب استيعاب الرأس بالمسح ولا يجزئ مسح بعض الرأس إلاَّ أن تكون فوق رأسك عمامة أو نحوها وإن شئت نزعتها ومسحت على رأسك وإن شئت أخرتها ومسحت الناصية وأتممت عليها وإن شئت مسحت على العمامة كلها دون أن تكشف شيئاً من الرأس كل ذلك ثبت عن رسول الله ﷺ ، ثمَّ تغسل رجليك مبتدأ باليمنى وتتعاهد أصابعها أيضاً بالتخليل والتنظيف من رؤوس الأصابع إلى فوق الكعبين، ثمَّ تغسل اليسرى كذلك، فإن كنت لبست جورباً أو خفاً أو نعلاً على طهارة جاز لك المسح على ما في قدمك في الإقامة يوما وليلة وفي السفر ثلاثة أيام بلياليهن، فإذا فرغت من الوضوء أُستحب لك أن تقول " **أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**"(٢) "**اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ** "(٣)"**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لاَ إله إلاَّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك**"(٤)،

ومن الجدير بالذكر أَنَّ هذا الإسراف الذي يقع من المتوضئين في الوضوء إسراف قبيح مذموم لا يحب الله أهله فقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّهُ لا يُحِبُّ**

---

(١) صحيح: [ص.جه:٣٥٧]، جه(١/١٥٢/٤٤٣).

(٢) صحيح: [مختصر م:١٤٣]، م (١/٢٠٩/٢٣٤).

(٣) صحيح: [ص.ت:٤٨]، ت(١/٣٨/٥٥).

(٤) صحيح: [الترغيب:٢٢٠]، ك(١/٥٦٤).

الْمُسْرِفِينَ(١٤١)﴾[الأنعام]، أي يكرههم ويبغضهم ، وما أسـرف المسـلمون فـي شيء إسرافهم في الماء:ماء الوضوء وماء الغسل والنبي ﷺ "**كان يتوضأ بثلثي مـد**"[١]، والمد هو قدر ما يملأ حفنتي الرجل ، هذه الحفنة كان يتوضأ بثلثيهـا، لا يتمها، فانظر أيها المتوضئ كم حفنة تأخذ لغسل الوجه وحده، فـاتق الله ولا تسرف في الماء، لا يغرنَّك رخص المياه ﴿**إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**(١٤١)﴾[الأنعام]، ثمَّ إِنَّك بالوضوء تفعل طاعة فكيف تقرن الطاعة بالمعصية؟ فليوطن أحدكم نفسه على الاقتصاد في الماء، ثمَّ إِنَّ مجاهدتك نفسك على محاولة الاقتصاد في المـاء إِنَّما تثاب عليها لأنك تريد أن تفعل سنة فيزداد أجرك ويعظم ثوابك،

إقام الصلاة تكون بالحرص على أول وقتها :

فإذا نودي للصلاة فاسعَ ، كبر الله مع المنادي للصلاة، المؤذن يفتتح النداء بتكبير الله، الله أكبر الله أكبر أربعاً ويختم النداء بالتكبير مرتين، الله أكبـر يـا مسلم من كل شيء ، الله أكبر من هذا العمل، والله أكبر من هـذا الشـغل، والله أكبر من كل شيء فانفض يديك مما فيهما وكبر الله وأجب منـادي الله سـبحانه وتعالى فإِنَّ أفضل الأعمال الصلاة لأول وقتها.

إقام الصلاة تكون بشهود الجماعة فيها، فشهود الجماعـة فـرض لأَنَّ الله أمر بالجماعة في سورة البقرة فقال عزَّ وجلَّ: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَـاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**(٤٣)﴾ وأين يركع الراكعون؟ ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦)رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُـوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ**

---

(١) إسناده صحيح [ص.خز:١١٨/٦٢/١].

يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٣٨)﴾[النور] ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ يجب أن تصلي، ولا تجوز صلاة الرجل في غير الجماعة إلاَّ من عذر لقوله ﷺ: «مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَلَمْ يَأْتِهِ فَلاَ صَلاَةَ لَهُ إِلاَّ مِنْ عُذْرٍ»(١)، وما هي الأعذار؟ بل الإنسان على نفسه بصيرة، جَاءَ رَجُلٌ أَعْمَى فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّهُ لَيْسَ لِي قَائِدٌ يَقُودُنِي إِلَى الْمَسْجِدِ فَسَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ فَيُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ فَرَخَّصَ لَهُ فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ فَقَالَ: «هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلاَةِ قَالَ: نَعَمْ قَالَ فَأَجِبْ»(٢)، لم يرخص للأعمى فما بالك يا من متعك الله ببصرك تتخلف عن الجماعة، ما بال الأعمى يسعى إليها وتتخلف أنت عنها، إنَّ النبي ﷺ شدد النكير على المتخلفين عن الجماعة ودمغهم بالنفاق فقال ﷺ: «إِنَّ أَثْقَلَ صَلاَةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلاَةُ الْعِشَاءِ وَصَلاَةُ الْفَجْرِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلاَةِ فَتُقَامَ ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لاَ يَشْهَدُونَ الصَّلاَةَ فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ»(٣)، حافظ على الجماعة لا تضيعها فإن الله أمرك بها، وأمر بها في الحرب ساعة القتال وعند اللقاء قال لرسوله ﷺ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ(١٠٢)﴾[النساء] وقال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ(٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(٢٣٩)﴾[البقرة]، وشهود الجماعة

---

(١) صحيح [ص.جه:٦٤٥]، جه(٧٩٣/٢٦٠/١)، ك(١/٢٤٥)، هق(٣/١٧٤).

(٢) صحيح [مختصر م:٣٢٠]، م(٦٥٣/٤٥٢/١)، ن(٢/١٠٩).

(٣) متفق عليه خ(٦٥٧/١٤١/٢)، م(٦٥١/٤٥١/١).

عنوان الإيمان كما أَنَّ التخلف عنها عنوان النفاق والطغيان ، لا يتخلف عن الجماعة إلاَّ منافق كان هذا أمراً مسلماً به عند أصحاب رسول الله ﷺ حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه: "**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ**"(١).

ومن إقام الصلاة الطمأنينة في ركوعها وسجودها وأن يجتهد المصلي أن تكون صلاته أشبه ما تكون بصلاة النبي ﷺ ورسول الله ﷺ صلى أمام أصحابه وقال لهم: "**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**"(٢)، ونقل لنا الثقات من الرواة صفة صلاة النبي ﷺ بالأخبار الصحيحة الثابتة ومما نقل لنا في ذلك أَنَّه ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة استقبل القبلة واتخذ السترة، والسترة شيء مرتفع قدر نصف متر فما فوق، وجعل النبي ﷺ اتخاذ السترة من واجبات الصلاة فقال: "**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلِيصَلِ إِلَى سُتْرَةٍ**"(٣)، وقال ﷺ : "**لا يصلي أحدكم إلاَّ إلى سترة**"(٤)، فكان ﷺ يدنو من الجدار ليكون سترته يجعل بينه وبين الجدار وهو قائم مسافة متر ونصف، وإذا سجد كان بين رأسه وهو ساجد وبين الجدار ممر شاة، استقبل

---

(١) م(٦٥٤-٢٥٧-/٤٥٣/١)، جه(٧٧٧/٢٥٥/١)، ن(١٠٨/٢)، د(٥٤٦/٢٥٤/٢).

(٢) خ(٦٣١/١١١/٢).

(٣) صحيح [ص.ن.:٧٢٢]، ن(٦٢/٢) بلفظ: إذا صلى أحدكم إلى سترة...، ك(٢٥١/١) وهذا لفظه، د(٦٨١/٣٨٨/٢).

(٤) صحيح [صفة صلاة النبي ﷺ ٦٢]، خز(٨٠٠/٩/٢).

القبلة واتخذ السترة وقال الله أكبر رافعاً يديه حذو منكبيه أو إلى شحمتي أذنيه، ثم وضع يمينه على شماله على صدره وضع بطن اليمنى على ظهر اليسرى على الكف والرسغ والساعد، هذه هي الصفة الصحيحة الثابتة، ثم يرمي ببصره إلى موضع سجوده، وكان ينهى عن الالتفات في الصلاة **وَسُئِلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْتِفَاتِ الرَّجُلِ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ: " إِنَّمَا هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ"**(١)، وكان يستفتح الصلاة بما هو معروف بدعاء الاستفتاح **ومنه : " اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً"**(٢)،

ومنه : **"وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ"**(٣)،

ومنه : **" اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ "**(٤)، أيٌّ ذلك قرأت أجزأك، ثمّ يستفتح القراءة بالاستعاذة فيقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه، ثمّ يقرأ الفاتحة وكان يعد **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** آية منها لكنه كان يسر بها حتى في الجهرية ويجهر **بالْحَمْدُ لِلَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ** وكان يقطع القراءة آيةً آية ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** (١)**الْحَمْدُ لِلَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ** (٢)**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**(٣)﴾ وهكذا حتى يفرغ منها فإذا قال ﴿**وَلاَ الضَّالِّينَ**﴾ قال آمين ومد بها صوته وأخبر ﷺ أنّ الملائكة في السماء تُؤمن مَعَ تَأمِين الإِمَامُ " **فَمَنْ وَافَقَ**

---

(١) خ(٢/٢٣٤/٧٥١)، د(٣/١٧٨/٨٩٧)، ن(٣/٨).

(٢) م(١/٤٢٠/٦٠١)، ن(٢/١٢٥).

(٣) صحيح : [ص.ن:٨٩٦]، ن(٢/١٣١).

(٤) متفق عليه : خ(٢/٢٢٧/٧٤٤)، م(١/٤١٩/٥٩٨)، د(٢/٤٨٥/٧٦٦)، جه(١/٢٦٤/٨٠٥).

تأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »[١]، ثمّ كان يقرأ سورة ، وأكثر ما كان يقرأ من حزب المفصل الذي يبدأ بق وينتهي بالناس، ثمّ كان يكبر رافعاً يديه ويركع وكان ﷺ إذا ركع اعتدل وسوى رأسه وظهره حتى لو صب على ظهره ماء لركد من تسوية ظهره واعتداله، وكان يمكن يديه من ركبتيه مفرجاً أصابعهما ويقول وهو راكع "**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**»[٢]، وربما زاد "**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ** »[٣]، ثمّ يرفع قائلاً سمع الله لمن حمده رافعاً مع قيامه يديه إلى شحمتي أذنيه أو حذو منكبيه ثمّ يرسلهما ويقول إذا اعتدل "**رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ**»[٤] "**مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءُ الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**»[٥]، ثمّ يكبر للسجود ويضع يديه على الأرض قبل ركبتيه وكان يقول: "**إِذَا سَجَدَ أَحَدُكُمْ فَلاَ يَبْرُكْ كَمَا يَبْرُكُ الْبَعِيرُ وَلْيَضَعْ يَدَيْهِ قَبْلَ رُكْبَتَيْهِ**»[٦]، وكان يقول: "**أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ عَلَى الْجَبْهَةِ وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ وَالْيَدَيْنِ وَالرُّكْبَتَيْنِ وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ** »[٧]، وكان يقول: "**لا صلاة لمن لا يصيب أنفه من الأرض ما يصيب جبينه**»[٨]، وكان إذا سجد نحى يديه عن جنبيه وذلك يكون في صلاة المنفرد أو الإمام، وأما في صلاة الجماعة فلا يتمكن من هذه

---

(١) متفق عليه : خ(٢/٢٦٢/٧٨٠)، م(١/٣٠٧/٤١٠)، د(٣/٢١١/٩٢٤)، ت(١/١٥٨/٢٥٠)، جه(١/٢٧٧/٨٥١)، ن(٣/١٤٤).

(٢) صحيح :[ص.ن:١٠٠١]، ن(٢/١٩٠)، د(٢٣/١٢١/٨٥٧)، ت(١/١٦٤/٢٦١).

(٣) صحيح :[صفة الصلاة]، د(٣/١٢١/٨٥٦)، هق(٢/٨٦).

(٤و ٥) م(٤٧٧و٤٧٨/٣٤٧/١)، د(٣/٨٢/٨٣٢)، ن(٢/١٩٩).

(٦) صحيح :[ص.د:٧٤٦]، د(٣/٧٠/٨٢٥)، ن(٢/٢٠٧)، حم(٣/٢٧٦/٦٥٦).

(٧) متفق عليه :خ(٢/٢٩٧/٨١٢)، م(٤٩٠-٢٣٠-/٣٥٤/١)، ن(٢/٢٠٩).

(٨) قط(١/٣٤٨/٣). ذكر الألباني في « صفة الصلاة »ص(١٢٣).

الهيئة، **وكان** ﷺ "**إذا سجد ضمّ أصابعه**"(١)، واستقبل بها القبلة، "**ووضع رأسه بين كفيه**"(٢)، **ورفع رجليه وجعل أطراف أصابع الرجلين مستقبلة القبلة**، وكان يقول في سجوده "**سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى** "(٣)، وربما زاد ما كان يزيد في الركوع، وكان يقول "**فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا الرَّبَّ فِيهِ وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ** "(٤)، ثمّ يكبر فيجلس بين السجدتين يفرش رجله اليسرى يجلس عليها وينصب اليمنى ويجعل أطراف أصابعها نحو القبلة ويبسط يسراه على فخذه اليسرى ويمناه على فخذه اليمنى مفرجاً أصابعه وهما على أطراف ركبتيه بين السجدتين ويقول: "**رَبِّ اغْفِرْ لِي رَبِّ اغْفِرْ لِي**"(٥)، أو يقول: "**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاجْبُرْنِي وَارْزُقْنِي وَارْفَعْنِي**"(٦)، ثمَّ يسجد السجدة الثانية ويفعل فيها ما فعله في الأولى، ثمَّ يقوم إلى الركعة الثانية ولا ينهض حتى يستوي جالساً جلسة خفيفة يفرش رجله اليسرى يجلس عليها وينصب اليمنى ثمَّ يعتمد بيديه على الأرض كهيئة الذي يعجن ثمَّ يقوم ، والتكبير من السجود يكون حين رفعه من السجود لا حين يرفع من جلسة الاستراحة، ثمَّ يفعل في الثانية فعله في الأولى، فإن كانت الصلاة ثنائية افترش في التشهد وإن كانت ثلاثية أو رباعية أي ذات تشهدين افترش في التشهد الأول وتورك في التشهد الثاني، والافتراش أن تفرش رجلك اليسرى وتجلس عليها وتنصب اليمنى، وأما التورك فهو أن تجلس على فخذك الأيسر ثمَّ تخرج قدم اليسرى من

---

(١) صحيح [صفة الصلاة]، خز(١/٣٢٤/٦٤٢)، هق(٢/١١٢).

(٢) صحيح الإسناد: خز(١/٣٢٣/٦٤١).

(٣) سبق تخريجه في الصفحة السابقة.

(٤) م(١/٣٤٨/٤٧٩) ، د(٣/١٣٠-١٢٨/٨٦٢)، ن(٢/١٨٩)، جه (٢/١٢٨٣/٣٨٩٩) .

(٥) صحيح [ص.جه:٧٣١]، جه(١/٢٨٩/٨٩٧).

(٦) صحيح [ص.جه:٧٣٢]، جه(١/٢٩٠/٨٧٨)، ت(١/١٧٥/٢٨٣)، د(٣/٨٧/٨٣٥).

تحت ساقك اليمنى وتجعل أصابع اليمنى قائمة مستقبلاً بها القبلة وتجعل يسراك على أطراف ركبتك وتقبض الوسطى والإبهام من يدك اليمنى وترفع السبابة تحركها تدعو بها وكان ﷺ يقول في حركة السبابة "**لَهِيَ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنَ الْحَدِيدِ**"(١)،

ومن الجدير بالذكر أنَّ السلام على النبي ﷺ في التحيات يكون بعد وفاته بلفظ الغيبة لا بلفظ الخطاب ، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يقولون والنبي بين أظهرهم السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فلما قبض قالوا السلام على النبي ورحمة الله وبركاته، ثمَّ يسلم عن يمينه وعن شماله السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله، وربما زاد عن يمينه السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أحياناً .

فاحفظوا هذه الصفة صفة صلاة النبي ﷺ واحرصوا أن تكون صلاتكم أشبه ما تكون بها، والحذر كل الحذر من عدم الطمأنينة في الركوع والسجود، والحذر كل الحذر أن لا يرفع أحدكم رأسه في الركوع ولا في السجود، فإنَّ النبي ﷺ أخبر أن الذي لا يطمئن في ركوعه ولا سجوده ، وأنَّ الذي لا يرفع رأسه في الركوع ولا في السجود صلاته باطلة ، وقد رأى النبي ﷺ الذي لا يرفع رأسه في ركوعه ولا سجوده فقال: "**إن مات على ذلك مات على غير ملة محمد ﷺ**"(٢) ، ووصف الذي لا يطمئن في ركوعه ولا سجوده بالسرقة فقال : "**أَسْوَأُ النَّاسِ سَرِقَةً الَّذِي يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَيْفَ يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ: لاَ يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلاَ سُجُودَهَا**"(٣)، وبينما كان ﷺ في المسجد

---

(١) حسن [صفة الصلاة:١٤٠]، حم(٧٢١/١٥/٤).

(٢) حم(٦٣١/٢٥٩/٣).

(٣) صحيح [صفة الصلاة:٩٩]، حم٦٤٦/٢٦٨/٣)، ك(٢٢٩/١).

"دَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْكَ السَّلَامَ قَالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ فَرَجَعَ الرَّجُلُ فَصَلَّى كَمَا كَانَ صَلَّى ثُمَّ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : وَعَلَيْكَ السَّلَامُ ثُمَّ قَالَ ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَقَالَ الرَّجُلُ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُحْسِنُ غَيْرَ هَذَا عَلِّمْنِي قَالَ إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا"(١)،

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك

* * *

---

(١) متفق عليه: خ(١١/٣٦/٦٢٥١)، م(١/٢٩٨/٣٩٧).

أسباب الخشوع في الصلاة

قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ(٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(٤٦) ﴾[البقرة].

قد تكلمنا عن إقام الصلاة، وقلنا أَنَّ إقام الصلاة يكون بإسباغ وضوئها، والحرص على أول وقتها، وشهود الجماعة فيها، والطمأنينة في ركوعها وسجودها، ويضاف إلى ذلك الخشوع فيها، وقد جمع هذه المعاني لإقام الصلاة قولُ النبي ﷺ : "**خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلاَّهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عَلَى اللَّهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ**"[١].

فالخشوع هو المقصود الأعظم من إقام الصلاة ومعناه: "حضور القلب بين يدي الله، مستحضرًا لقربه فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدباً بين يدي ربه، مستحضراً جميع ما يقول ويفعل في صلاته من أولها إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوساوس والأفكار الردية وهذا هو روح الصلاة، والمقصود الأعظم فيها، وهو الذي يكتب للعبد أجره وثوابه، فالصلاة التي لا خشوع فيها وإنْ كانت مجزية إلاَّ أَنَّ الثواب على قدر ما يعقل منها"[٢]، ولذا قال ﷺ: " **إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلاَّ عُشْرُ صَلاَتِهِ تُسْعُهَا ثُمْنُهَا سُبْعُهَا سُدْسُهَا خُمْسُهَا رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا**[٣] .

---

(١) صحيح: [ص.د: ٤١٠]، د(٢/٩٤و٩٣/٤٢١).

(٢) تفسير السعدي (٣٣٢و٣٣٣/٥).

(٣) حسن: [ص.د: ٧١٤]، د(٧٧٥/٣/٣).

وحصول الخشوع في الصلاة له شروط لا بد من توفرها، وموانع لا بد من انتفائها، فإذا انتفت الموانع وتوفرت الشروط حصل الأثر المطلوب من الخشوع .

ومن الموانع: مدافعة الأخبثين، وحضور الطعام، وغلبة النعاس، والالتفات في الصلاة، ولذلك أمر النبي ﷺ من أراد القيام إلى الصلاة ينفي هذه الموانع أولاً فقال ﷺ : " **إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يَذْهَبَ الْخَلاَءَ وَقَامَتِ الصَّلاَةُ فَلْيَبْدَأْ بِالْخَلاَءِ**"(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " لاَ صَلاَةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ وَلاَ هُوَ يُدَافِعُهُ الأَخْبَثَانِ " (٢).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ عَلَى الطَّعَامِ فَلاَ يَعْجَلْ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ مِنْهُ وَإِنْ أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ (٣).

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الاِلْتِفَاتِ فِي الصَّلاَةِ فَقَالَ: "هُوَ اخْتِلاَسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلاَةِ الْعَبْدِ"(٤).

وَعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : "إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لاَ يَدْرِي لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ"(٥).

---

(١) صحيح : [ص.د: ٨٠]، د(٨٨/١٥٨/١)، ت(١٤٢/٩٥/١)، ن(١١٠/و ١١١/٢)، جه(٦١٦/٢٠٢/١) .

(٢) م(٥٦٠/٣٩٣/١)، د(٨٩/١٦٠/١).

(٣) متفق عليه :خ(٦٧٤/١٥٩/٢)، م(٥٥٩/٣٩٢/١)،د(٣٧٣٩/٢٢٩/١٢)،ت(٣٥١/٢٢٠/١).

(٤) خ(٧٥١/٣٤٢/٢)، د(٨٩٧/١٧٨/٣)، ت(٥٨٧/٥١/٢)، ن(٨/٣).

(٥) متفق عليه :خ(٢١٢/٣١٣/٢)، م(٧٨٦/٥٤٢/١)، د(١٢٩٦/١٩٥/٤)، ت(٣٥٢/٢٢١/١)، ن(٩٩و ١٠٠/١)، جه(١٣٧٠/٤٣٦/١).

فيجب على كل من أراد الصلاة أنْ يقطع جميع الشواغل التي تشغل قلبه، وينفي الموانع التي تمنع الخشوع عنه، ثمَّ يوفر الشروط التي لا يحصل الخشوع إلاَّ بها، ومن هذه الشروط: أَنْ يجعل الصلاة التي قام لها آخر صلاة له، كما قال النبي ﷺ : " **إِذَا قُمْتَ فِي صَلاَتِكَ فَصَلِّ صَلاَةَ مُوَدِّعٍ** "(١): أيّ اعتبرها آخر صلاة لك، اجعلها أُمنيتك في الحياة لو حضرك الموت فقيل لك تمن، فتمنيت أَنْ تصلي ركعتين، فإِنْ ذلك يعينك على أَنْ لا تحدث نفسك بشيء من أمور الدنيا التي ستودعها وتخرج منها، ويعينك على الإقبال بقلبك على الله الذي أنت ملاقيه، ولذلك قال الله تعالى:﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ(٤٥)**﴾ [البقرة] فوصف الصلاة بالكبر والفعل بالمشقة واستثنى الخاشعين فهي سهلة عليهم ويسيرة، بل هي قرة عيونهم، ثمّ وصفهم بقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(٤٦)**﴾ [البقرة] فهم يعتقدون أنهم إلى الله راجعون، وبين يديّ الله موقوفون، وأمام الله مسئولون، فهم من الساعة مشفقون، ويعلمون أنها الحق من ربهم، ويظنون أنهم قد يلقونه في هذه الصلاة وهم بين يديّه قائمون، فيقيمونها وهم لا يظنون أنهم سيصلون غيرها، وبذلك وصّى رسولُ الله ﷺ فقال: " **أُذكُر الموتَ في صلاتِكَ، فإِنْ الرجلَ إِذا ذَكَرَ الموتَ في صلاتِه لحريٌّ أَنْ يُحسنَ صلاتَهُ، وصلِّ صلاةَ رجلٍ لا يظنُّ أَنَّه يصلي صلاةً غيرها**»(٢).

فيا عبد الله إذا قمت للصلاة فاجعل القبلة أمامك، والصراط تحتك، والجنَّة عن يمينك، والنَّار عن شمالك، وملك الموت وراءك، وتأمل إلى أين تصير»(٣)،

---

(١) حسن : [ص.جه:٣٣٦٣]، جه(٢/١٣٩٩/٤١٧١)، حم٣٧/١٨٥/١٩).

(٢) حسن : [ص.ج:٨٦٢]، وقال الشيخ في «الصحيحة» (١٤٢١):أخرجه الديلمي في « مسند الفردس»(١/١/٥١-مختصره).

(٣) إحياء علوم الدين(١/١٥١).

وحاول دائماً أن بذكرك كل شيء متعلق بالصلاة بلقاء الله، فإذا سمعت المؤذن ينادي للصلاة فتذكر قول الله : ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢)﴾ [ق]، فإذا طهرت ظاهرك بالوضوء وسترت عورتك بالثياب فاعلم أَنْ باطنك أولى بذلك كله، لأَنَّه محل نظر الله عزَّ وجلَّ كما **قَالَ ﷺ** : " **إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ** "(١)، فاستحِ من الله أَنْ تطهِّر ظاهرك دون باطنك، وأَنْ تجِّمل جسمك دون قلبك .

وإذا خرجت من البيت إلى المسجد فتذكر خروجك من القبر إلى أرض المحشر، فإذا جلست في المسجد تنتظر الإقامة فتذكر قيامك في أرض المحشر تنتظر مجيء الرب لفصل القضاء. فإذا أقام المؤذِّنُ الصلاة فتذكر بهذا النداءِ النداءَ الخاصَّ يوم القيامة، يوم يقول الملَكُ أين فلان بن فلان ؟ لـيقم للعرض على الملك الديان، فإذا قمت في مكانك تسعى إلى الصف فتذكر سعيك يوم القيامة بين الملكين كما قال تعالى: ﴿**وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ**(٢١)﴾ [ق]، فإذا قلت الله أكبر ودخلت في الصلاة وقمت بين يديّ الله فتذكر قيامك يوم القيامة بين يديّه سبحانه وهو يقرِّرُكَ بذنوبك : عَمِلْتَ يوم كذا كذا وكذا، وعَمِلْتَ يوم كذا كذا وكذا، فتستحي من ربك **وتخرج من صلاتك عازما أَنْ لا تترك واجباً وأن لا تفعل محرماً**.

ومن شروط الخشوع: القيام إلى الصلاة بجد ونشاط فإنَّ الكسل في الصلاة يمنع الخشوع ويجلب الغفلة، وهو من صفات المنافقين كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا**(١٤٢)﴾ [النساء]، وقد أمر النبيّ ﷺ بالجد

---

(١) م(٢٥٦٤-٤-/١٩٨٧/٤)، جه(٤١٤٣/١٣٨٨/٢).

والنشاط في الصلاة ونهى عن الكسل **دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَبْلُ؟ قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لاَ، حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»**[1].

ومن شروط الخشوع: أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم قبل القراءة كما أمر الله تعالى:﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**(٩٨)﴾ [النحل]، ومعنى الاستعاذة: أمتنع بالله واعتصم به وألجأ إلى الله أَنْ يصدني الشيطان عن ذكره أو يصرفني عمّا أقبلت عليه[2] وذلك لأَنَّه **إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لاَ يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَى النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلاَةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قَضَى التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لاَ يَدْرِي كَمْ صَلَّى**[3] ومن أسباب الخشوع أن يلتجئ المصلي إلى الله ويعتصم به من الشيطان الرجيم فتنال من العصمة على قدر إخلاصك في الاستعاذة .

ومن شروط الخشوع : استحضار عظمة الله عزَّ وجلَّ واستحضار أسمائه وصفاته، فيتذكر المصلي أَنَّه سيقوم بين يديّ الملك القدوس العزيز الجبار المتكبر فيقشعر بدنه وترتعد فرائصه كما روي عن علي بن الحسين أَنَّه كان إذا توضأ اصفر لونه فيقول له أهله ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يديّ من أريد أَنْ أقوم[4].

---

(١)خ(١١٥٠/٣٦/٣)، د(١٢٩٨/١٩٦/٤)، ن(٢/٢١٨).

(٢)إغاثة اللفهان (١/٩١).

(٣)متفق عليه:خ(٦٠٨/٨٤و٢/٨٥)،م(٣٨٩-١٩-/٢٩١و١/٢٩٢)، د(٥١٢/٢١٣-٢/٢١٥).

(٤) مختصر منهاج القاصدين (٢٩).

ومن شروط الخشوع : التدبر والفهم لما يقرأ لأن المراد من إقام الصلاة ذكر الله كما قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(١٤)﴾[طـه]، وقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ(٤٥)﴾[العنكبوت]، وقد أمر الله بذكره ونهى عن الغفلة عنه فقال:﴿ **وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ(٢٠٥)**﴾[الأعراف] فإذا غفل المصلي في صلاته عن ذكر الله لم يقم الصلاة كما أمر الله، ولذلك نهى الله تعالى عن القيام إلى الصلاة حال السكر وذلك قبل نزول آية التحريم فقال تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ(٤٣)**﴾[النساء] فَفُهِمَ من ذلك أنَّه لا بدّ لكل مصلٍ أن يعي ما يقول وأَنْ يفهم ما يقرأ، ولذلك نهى النبي ﷺ النعسان عن الصلاة لنفس العلة فقال : "**إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ**"(١).

فإذا قرأت يا عبد الله فتدبَّر ما تقرأ، وإذا قُرِئ عليك في الجهرية فاستمع لإمامك وأنصت له وتدبَّر ما تسمع. ومما يعين على التدبر أَنْ يُرتِّل القرآن ترتيلا، وأَنْ تقطع القراءة آية آية كما كان النبي ﷺ يقرأ فيقول :﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(١)**﴾ وتتذكر أَنْ معناها بسم الله أقرأ، أو بسم الله أبدأ قرأتي، وتعلم أن كل شيء ينبغي أَنْ يبدأ باسم الله، الأكل والشرب، والنوم والجماع، والخروج من البيت ودخول البيت، وكتابة الكتاب، وركوب الدابّة، ثمّ تقول: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢)**﴾ وتتدبَّر معنى الحمد وأسبابَه وتتذكر أن الله هو المستحق للحمد دون سواه لأنَّه ذو الطَّوْل والإحسان:﴿ **وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا(٣٤)**﴾[إبراهيم] ثمّ تحاول أَنْ تستشعر إجابة الله لك وهو يقول **حَمِدَنِي**

---

(١) سبق تخريجه قريباً.

عَبْدِي ثمّ تقول: ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**(٣)﴾ وتتذكر أنَّ الله كتب على نفسه الرحمة، ورحمتُه سبقت غضبَه ووسِعَت كلَّ شيء فتطمع في رحمته، ثم تحاول أنْ تستشعر إجابة الله لك وهو يقول **أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي** ثمّ تقول :﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**(٤)﴾ وتتذكر هذا اليومَ وأهوالَه، وتعظيمَ الله لشأنه حيث قال:﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ**(١٧) **ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ** (١٨)**يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ**(١٩)﴾[الانفطار] فتعزم على عملٍ صالح ينجيك من هول هذا اليوم، ثمّ تحاول أَنْ تستشعر إجابة الله لك وهو يقول: **مَجَّدَنِي عَبْدِي أَوْ فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي** وأعلم أنَّ الخير كلَّ الخير في هذا التفويض والتسليم لله ربِّ العالمين، فتدبير الله لك خير لك من تدبيرك، واختيار الله لك خير من اختيارك ﴿**وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**(٢١٦)﴾[البقرة]، ثمّ تقول: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**(٥)﴾ وتتذكر ضرورة تصديق هذا القول بالعمل فلا تقل في الصلاة ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**(٥)﴾ فإذا انصرفت من الصلاة صرفت أشياء من العبادات لغير الله كأن تدعو غير الله أو تسأل غير الله، أو تنذر لغير الله أو تذبح لغير الله فإنَّ هذا شرك بالله يناقضه قولُك ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ**»(١)، ثمّ تستشعر إجابة الله لك وهو يقول: **هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**، ثمّ تقول: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** (٦)﴾ وتحاول التعرف عليه وأَنَّه الجمع بين العلم النافع والعمل الصالح، ومعناه إفراد الله بالعبادة حتى لا تعبدَ غيرَه استقلالاً ولا تعبد غيره معه، قال تعالى:﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي ءَادَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ**

---

(١) صحيح[ص.ت:٢٥١٦]، ت(٢٦٣٥/٧٦/٤)، حم(١/١٦/١٢)، ك(٥٤١و٥٤٢/٣).

لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)﴾[يس]، فإذا قلت: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾تذكرت هذه الكوكبة من النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين فتجعلهم أئمة لك تهتدي بهديهم وتستأنس بذكرهم وسيرتهم في سَيْرك على طريقهم ، فإذا قلت: ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**﴾ تذكَّرت اليهودَ وتركَهم العملَ بالعلم حتى غَضِبَ اللهُ عليهم فتجتهد في العمل بما تعلَّمتَ حتى يرضى اللهُ عنك، وإذا قلت:﴿ **وَلاَ الضَّالِّينَ (٧)** ﴾تذكَّرت النصارى وما ابتدعوه من البدع التي لم ينزِّل اللهُ بها من سلطان فضلوا عن سواء السبيل، وتجتهد على الاتباع وتحذر كل الحذر من الابتداع ، وتستشعر إجابة الله لك وهو يقول : **هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**[1] فتقرُّ عينيك وتفرح بما أتاك الله من الإيمان .

* * *

---

(١)م(١/٢٩٦/٣٩٥)، د(٣/٣٨/٨٠٦)، ت(٤/٢٦٩/٤٠٢٧)، ن(٢/١٣٥)، جه (٣٧٨٤/٢/١٢٤٣).

الركن الثالث من أركان الإسلام
إيتـــاء الزكـــاة

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ يُنْفِقُونَ(٣)﴾ [البقرة] عن ابن عباس قـال:﴿ وَمِمَّـا رَزَقْنَـاهُمْ يُنْفِقُـونَ﴾ زكـاة أموالهم(١). وقد قرنت الزكاة بالصلاة في اثنتين وثمانين آية منهـا خمـس فـي سورة البقرة: قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّـلَاةَ وَءَاتُـوا الزَّكَـاةَ وَارْكَعُـوا مَـعَ الرَّاكِعِينَ(٤٣)﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١٠)﴾ وقال تعـالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ .... وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُـوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ(٨٣)﴾ وجعل الله تعالى إيتاء الزكاة من أركان الإيمان فقال: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ......وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ (١٧٧)﴾ ووعد المؤتين الزكاة بالأجر الكبيـر فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٢٧٧)﴾ وشهد لهم بالهدى واستحقاق الفلاح فقال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُـدًى مِـنْ رَبِّهِـمْ وَأُولَئِـكَ هُـمُ الْمُفْلِحُونَ(٥)﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿ وَالْمُقِيمِـينَ الصَّـلَاةَ وَالْمُؤْتُـونَ الزَّكَـاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْـرًا عَظِيمًـا(١٦٢)﴾ [النسـاء]، ووعدهم بالرحمة فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٥٦)﴾ [النور]، وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُـونَ وَالْمُؤْمِنَـاتُ بَعْضُـهُمْ

---

(١) جامع البيان(١٠٤/١).

أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ(٧١)﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ(١٥٦)﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلاَ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ(٩٩)﴾ [التوبة] أيّ في جنّته وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ(١٢)﴾ [المائدة]،

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي سَفَرٍ فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ أَوْ بِزِمَامِهَا ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا يُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ قَالَ: فَكَفَّ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ نَظَرَ فِي أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ وُفِّقَ أَوْ لَقَدْ هُدِيَ قَالَ: كَيْفَ قُلْتَ: قَالَ: فَأَعَادَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "تَعْبُدُ اللَّهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ "(١)،

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ: "اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ وَصُومُوا شَهْرَكُمْ وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ "(٢).

فهذه النصوص الدَّالةُ على أن إيتاء الزكاة من موجبات الجنَّة يُفْهَمُ منها أَنَّ منع الزكاة من موجبات النَّار ، وقد صرحت النصوص بذلك أيضاً قال تعالى:

---

(١) متفق عليه : خ(١٣٩٦/٢٦١/٣)، م(١٣/٤٢و٤٣/١)، ن(٢٣٤/١).

(٢) صحيح : [ص.ت:٦١٦]، ت(٦١١/٦٢/٢).

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣٤)﴾ [التوبة]،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلاَ فِضَّةٍ لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ"(١)،

وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١٨٠)﴾ [آل عمران]،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ ثُمَّ تَلا ﴿ لا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ الآيَةَ"(٢)،

وَعَنْ أَنس قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ : "مَانع الزكاة يوم القيامة في النار"(٣)، وَعَنْ بشير بن الخَصاصِية قال: أتيت رسول الله ﷺ لأُبايعه على الإسلام فاشترط عليّ: تشهد أَنْ لا إله إلاَّ الله وأَنَّ محمداً رسول الله، وتصلي الخمس وتصوم رمضان، وتؤدي الزكاة وتحج البيت، وتجاهد في سبيل الله. فقلت: يا رسول الله! أَمَّا اثنتان فلا أطيقهما: الزكاة والجهاد، فقبض ﷺ يده ثمَّ

---

(١) م(٩٨٧/٦٨٠/٢)، د(١٦٤٢/٧٥/٥).

(٢)خ(١٤٠٣/٢٦٨/٣)، ن(٣٩/٥).

حركها ثمَّ قال: لا صدقة ولا جهاد فبما تدخل الجنَّة؟ فبايعته عليهن كلهنَّ»[(١)].

فيا عباد الله أدوا زكاة أموالكم طيبة بها نفوسكم، فإنَّ الزكاة من الإيمان، وإيتاءها دليل الإحسان قال تعالى: ﴿الم (١) تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾[لقمان]، وقال تعالى: ﴿طس تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٣)﴾[النمل]، وجحد الزكاة عنوان النفاق والطغيان قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٦٧)﴾[التوبة]، وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ(٧)﴾[فصلت]،

أدوا الزكاة فإنَّ أداءها بركة وتركها ممحقة ،**عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا»[(٢)] ،**

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ فَقَالَ: لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ! مَا اسْمُكَ قَالَ فُلاَنٌ

---

(١) حسن:[محقق شعب الإيمان:٣٠٢٥]، حم(٢٤/٨٠و ٨١/١)، ك(٧٩و ٨٠/٢)، هق «الشعب» (٣٠٢٥/٤٦٥و ٤٦٦/٦)، «السنن»٢٠/٩)، طب(١٢٣٣/٤٤و ٤٥/٢)، طس١١٤٨/١٤/٢) كذا في نضرة النعيم(٢٢٠٦).

(٢) حسن:[ص.جه:٣٢٤٦]، جه(٤٠١٩/١٣٣٢و١٣٣٣/٢)، ك(٥٤٠/٤).

لِلاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ فَقَالَ: لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ لاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ»(١)،

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ: أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَيَقُولُ: الآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا »(٢).

ومما يَهُمُّ المسلمَ معرفتُه من أحكام الزكاة: أنَّها لا تجب إلاَّ بشرطين: بلوغ النصاب، ومرور الحول، أمَّا النصاب: فلقوله ﷺ : « لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ صَدَقَةٌ وَلاَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ ذَوْدٍ صَدَقَةٌ وَلاَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ أَوَاقٍ صَدَقَةٌ»(٣)، وأمَّا الحول فلقوله ﷺ :«لاَ زَكَاةَ فِي مَالٍ حَتَّى يَحُولَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ»(٤)، وتستثنى الزروع من شرط الحول لقوله تعالى:

[الأنعام]، فمن أدَّى زكاة زرعه يوم حصاده ثمَّ ادخر نصاباً وحال عليه الحول فلا زكاة فيه . ونصابُ الذهب عشرون مثقالا، تساوي ٨٦جم تقريباً، ونصاب الفضة مائتا درهم، تساوي ٦٢٤جم تقريباً، ومن ملك من النقد ما يساوي قيمة مائتي درهم وحال عليه الحول وجب عليه الزكاة، ونصاب الزروع

---

(١) م(٤/٢٢٨٨/٢٩٨٤).

(٢) متفق عليه: خ(٣/٣٠٤/١٤٤٢)، م(٢/٧٠٠/١٠١٠).

(٣) متفق علية خ(٣/٣١٠/١٤٤٧)، م(٢/٦٧٣/٩٧٩)، ت(٢/٦٩/٦٢٢)، ن(٥/١٧)، جه (١/٥٧١/١٧٩٣).

(٤) صحيح: [ص.جه:١٤٤٩]، جه(١/٥٧١/١٧٩٢)، ت(٢/٧١/٦٢٦)، قط(٢/٩٠/٣)، هق(٤/١٠٣).

خمسة أوسق، تساوي ٥٠ كيلة تقريباً فمن حصد من زرعه ما بلغ النصاب وجب عليه الزكاة، ومن حصد دون النصاب فلا زكاة عليه، ومن ملك من الذهب النصاب وجب عليه الزكاة كلما حال عليه الحول، وكذلك الفضة، لا فرق بين ما يُتَّخذ للزينة وما يُتَّخذ للادخار، لعموم الآية، وقد جاءت النصوص الخاصة في إيجاب الزكاة في الحلي :

عَنْ أُمِّ سلَمَةَ قَالَتْ: كُنْتُ أَلْبَسُ أَوْضَاحًا مِنْ ذَهَبٍ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكَنْزٌ هُوَ فَقَالَ: « مَا بَلَغَ أَنْ تُؤَدَّى زَكَاتُهُ فَزُكِّيَ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ »(١)،

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَأَى فِي يَدَيَّ فَتَخَاتٍ مِنْ وَرِقٍ فَقَالَ: مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ فَقُلْتُ: صَنَعْتُهُنَّ أَتَزَيَّنُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَتُؤَدِّينَ زَكَاتَهُنَّ قُلْتُ: لاَ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ قَالَ: « هُوَ حَسْبُكِ مِنَ النَّارِ »(٢)،

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ امْرَأَةً أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهَا ابْنَةٌ لَهَا وَفِي يَدِ ابْنَتِهَا مَسَكَتَانِ غَلِيظَتَانِ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ: « لَهَا أَتُعْطِينَ زَكَاةَ هَذَا قَالَتْ: لا قَالَ: « أَيَسُرُّكِ أَنْ يُسَوِّرَكِ اللَّهُ بِهِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سِوَارَيْنِ مِنْ نَارٍ قَالَ: فَخَلَعَتْهُمَا فَأَلْقَتْهُمَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَتْ: هُمَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ»(٣).

ومما يَهُمُّ المسلمَ معرفتُه من أحكام الزكاة أنَّ على المسلم إذا حال عليه الحول وكان عليه دين حالٌّ أو مؤجَّلٌ أن يخرج قدر هذا الدَّين من ماله ويزكي خالص ماله، وإذا كان له عند الناس دَيْنٌ كانت الزكاة واجبةً عليه، فإنْ أداها فقد

---

(١) حسن :[ص.د:١٣٨٣]، د(١٥٤٩/٤٢٦/٤)، قط(١٠٥/٢).

(٢) صحيح :[ص.د:١٣٨٤]، د(١٥٥٠/٤٢٧/٤)، قط(١٠٥/٢).

(٣) حسن :[ص.د:١٣٨٢]، د(١٥٤٨/٤٢٥و٤٢٦/٤)، ت(٦٣٢/٧٤/٢) بنحوه.

عَجَّلَ بتبرئة ذمته، وإن أخَّرها حتى يستردَّه وجبت عن كل الأعوام التي سبقت عند المدين. أما الدَّين الذي على مفلسٍ أو جاحدٍ فهو شبه معدوم فإن رُد زكَّاه صاحبُه عن سنة واحدة .

ومما يجدر التنبيه عليه أنه لا زكاة في الراتب الشهري، ولا في الدخل الشهري وإن كثر إلاَّ أن تبقى منه بقية تبلغ النصاب ويحول عليها الحول، ولا زكاة في العقارات الثابتة كالعمارات والأراضي والسيارات، وكذلك دخل السيارة لا زكاة فيه إلاَّ أن يُدَّخر ويحول عليه الحول فعند إذ تجب فيه الزكاة .

* * *

النفقـات الواجبـة

قال تعالى: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ [البقرة] قال ابن عباس: زكاة أموالهم، ولكنَّ لفظ النفقة أعمّ فيشمل الزكاةَ وغيرَها من النفقات الواجبة، ولذلك قال ابن جرير: "وأولى التأويلات بالآية وأحقُّها بصفة القوم أَنْ يكونوا كانوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤدِّين، زكاةً كان ذلك أو نفقةَ من لزمتْهم نفقتُه من أهلٍ وعيال وغيرهم ممن تجب عليه نفقتُه بالقرابة والمِلْكِ وغير ذلك لأَنَّه عمّ وَصْفَهم ومَدحَهم بذلك، وكلٌّ من الإنفاق والزكاة ممدوحٌ به محمودٌ عليه"(١).

قال ابن كثير: "كثيراً ما يقرن اللهُ تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإِنَّ الصلاةَ حقُّ الله وعبادتُه، وهي مشتملةٌ على توحيده والثناءِ عليه وتمجيده والابتهالِ إليه ودعائه والتوكل عليه، والإنفاقُ هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدِّي إليهم، وأولى الناس بذلك القراباتُ والأهلون والمماليك، ثمَّ الأحباب، فكلٌّ من النفقاتِ الواجبة، والزكاةِ المفروضة داخلٌ في قوله تعالى: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ "(٢).

وقد تحدثنا عن الزكاة ومنزلتها في الدين، وما يهمُّ المسلمَ معرفتُه من أحكامها، ثمَّ نتحدث عن النفقات الواجبة غير الزكاة، وأوّلُ ذلك نفقةُ الرجل على امرأته، فإِنَّ الله تعالى قال: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**(٢٣٣)﴾ [البقرة]

---

(١) جامع البيان(١٠٥/١).

(٢) تفسير ابن كثير(٤٢/١).

عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ مَا حَقُّ الْمَرْأَةِ عَلَى الزَّوْجِ قَالَ: « أَنْ يُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمَ وَأَنْ يَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَى»(١)،

وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الأَحْوَصِ قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : "أَلاَ وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذَلِكَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً أَلاَ إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ وَلاَ يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ، أَلاَ وَإِنَّ حَقَّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ"(٢)، فنفقة المرأة على زوجها واجبة، وللرجل على هذه النفقة الأجر والثواب إذا احتسب هذه النفقة عند الله،

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً »(٣) ، **وَعَنْ سَعْدٍ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ »**(٤).

بل إنَّ النبي ﷺ جعل النفقة على المرأة أعظم النفقات أجراً فقال: « **دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ »**(٥).

---

(١) صحيح : [ص.جه:١٥٠٠]، جه(١٨٥٠/٥٩٣و٥٩٤/١)، د(٢١٢٨/١٨٠/٦).
(٢) حسن : [ص.ت:٣٠٨٧]، ت(٥٠٨٢/٣٣٧و٣٣٨/٤)، جه(١٨٥١/٥٩٤/١).
(٣) متفق عليه : خ(٥٥/١٣٦/١)، م(١٠٠٢/٦٩٥/٢)، ن(٦٩/٥).
(٤) متفق عليه: خ(٥٦/١٣٦/١)، م(١٦٢٨/١٢٥٠و١٢٥١/٣)، د(٢٨٤٧/٦٤-٦٦/٨)، ن(٢٤١و٢٤٢/٦).
(٥) م(٩٩٥/٦٩٢/٢).

فإذا رُزِقَ الرجلُ أولاداً وجب عليه نفقتُهم بالمعروف قال تعالى: ﴿**وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا**(٥)﴾[النساء] قال ابن عباس: "لا تعمد إلى مالك وما خَوَّلك اللهُ وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنيك ثمَّ تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم"(١)،

ويُرَغِّبُ النبيُّ ﷺ في النفقة على العيال فيقول: " **أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا تَرَكَ غِنًى وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ تَقُولُ الْمَرْأَةُ إِمَّا أَنْ تُطْعِمَنِي وَإِمَّا أَنْ تُطَلِّقَنِي وَيَقُولُ الْعَبْدُ أَطْعِمْنِي وَاسْتَعْمِلْنِي وَيَقُولُ الابْنُ أَطْعِمْنِي إِلَى مَنْ تَدَعُنِي**"(٢) ،

وَعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ "(٣)،

ويُحَذِّرُ من البخل في النفقة على العيال فيقول: " **كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ**"(٤). فإن أدَّى الرجلُ نفقةَ امرأته وعياله مؤتجراً فله أجرها، وإن بخل بها ومنعها فللمرأة أن تأخذ من ماله ما يكفيها وولدَها بالمعروف دون إذنه : **عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ دَخَلَتْ هِنْدٌ بِنْتُ عُتْبَةَ امْرَأَةُ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ لاَ يُعْطِينِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يَكْفِينِي وَيَكْفِي بَنِيَّ إِلاَّ مَا أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ فَهَلْ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ مِنْ**

---

(١) تفسير ابن كثير(١/٤٥٢).

(٢) خ(٥٣٥٥/٥٠٠/٩).

(٣) م(٩٩٤/٦٩٢/٢)، ت(٢٠٣٢/٢٣٢/٣).

(٤) حسن: [ص.د:١٦٩٢]، د(١٦٧٦/١١١/٥).

جُنَاحٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خُذِي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا يَكْفِيكِ وَيَكْفِي بَنِيكِ»(١).

ومن النفقات الواجبة نفقة الآباء الفقراء، فإذا كان الابن موسراً والأب معسراً وجب على الابن أن يُنفق على أبيه، وجاز للأب أن يأخذ من مال ابنه بغير إذنه ما يكفيه :

عَنْ عُمَارَةَ بْنِ عُمَيْرٍ عَنْ عَمَّتِهِ أَنَّهَا سَأَلَتْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا فِي حِجْرِي يَتِيمٌ أَفَآكُلُ مِنْ مَالِهِ فَقَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ مِنْ أَطْيَبِ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَوَلَدُهُ مِنْ كَسْبِهِ»(٢).

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: « إِنَّ أَبِي اجْتَاحَ مَالِي فَقَالَ: أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيكَ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ أَوْلادَكُمْ مِنْ أَطْيَبِ كَسْبِكُمْ فَكُلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ »(٣).

ومن النفقات الواجبة نفقة الخادم :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالصَّدَقَةِ فَقَالَ: رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ! عِنْدِي دِينَارٌ، فَقَالَ: « تَصَدَّقْ بِهِ عَلَى نَفْسِكَ، قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ: تَصَدَّقْ بِهِ عَلَى وَلَدِكَ، قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ: تَصَدَّقْ بِهِ عَلَى زَوْجَتِكَ، أَوْ قَالَ زَوْجِكَ، قَالَ: عِنْدِي آخَرُ، قَالَ: تَصَدَّقْ بِهِ عَلَى خَادِمِكَ، قَالَ: عِنْدِي آخَرُ قَالَ أَنْتَ أَبْصَرُ»(٤)، **وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا**

---

(١) متفق عليه: خ(٩/٥٠٧/٥٣٦٤)، م(٣/١٣٣٨/١٧١٤)، د(٣٥١٥/٤٤٧و٩/٤٤٧).

(٢) صحيح [ص.د:٣٠١٥]، د(٩/٤٤٤/٣٥١١)، ت(٢/٤٠٦/١٣٦٩)، جه(٢/٧٢٣/٢١٣٧)

(٣) حسن صحيح: [ص.د:٣٠١٥]، د(٩/٤٤٥/٣٥١٣)، جه(٢/٧٦٩/٢٢٩٢).

(٤) حسن: [ص.د:١٤٨٣]، د(٥/١١٠/١٦٧٥)، ن(٥/٦٢).

يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»(١)،

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيُنَاوِلْهُ أُكْلَةً أَوْ أُكْلَتَيْنِ أَوْ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ فَإِنَّهُ وَلِيَ حَرَّهُ وَعِلاَجَهُ»(٢) ، وَعَنْ خَيْثَمَةَ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو إِذْ جَاءَهُ قَهْرَمَانٌ لَهُ فَدَخَلَ فَقَالَ: أَعْطَيْتَ الرَّقِيقَ قُوتَهُمْ قَالَ: لاَ قَالَ فَانْطَلِقْ فَأَعْطِهِمْ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ »(٣).

ومن النفقات الواجبة نفقة الحيوان، فمن مَلَك من هذه الحيوانات شيئاً فعليه أن يُطْعِمَها ويسقيها، ولا يُجهدَها في العمل، فمن فعل ذلك فله الجنَّة ومن لم يفعل دخل النَّار:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ، فَقَالَ: الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لأَجْرًا فَقَالَ فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»(٤)،

وَعَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ لاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا وَلاَ

---

(١)متفق عليه:خ(١/٨٤/٣٠)، م(٣/١٢٨٢/١٦٦١)، د(١٤/٦٥/٥١٣٥)، ت(٣/٢٢٤/٢٠١٠) جه(٢/١٢١٦/٣٦٩٠و١٢١٧).

(٢) خ(٩/٥٨١/٥٤٦٠).

(٣) م(٢/٦٩٢/٩٩٦).

(٤) متفق عليه:خ(٢٣٦٣/٤٠و٥/٤١)، م(٤/١٧٦١/٢٢٤٤)، د(٧/٢٢٢/٢٥٣٣).

هِيَ تَرَكْتَهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ »(١)،

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لاَ أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: « أَفَلاَ تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ »(٢).

ومن النفقات الواجبة نفقة الأقربين المحتاجين، قال تعالى: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ(٢٦)﴾ [الإسراء]، وقال تعالى:﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٣٨)﴾ [الروم]،

عَنْ طَارِقٍ الْمُحَارِبِيِّ قَالَ: قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ النَّاسَ وَهُوَ يَقُولُ: « يَدُ الْمُعْطِي الْعُلْيَا وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ »(٣)، وقال تعالى:﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ(٢١٥)﴾ [البقرة] أيّ اصرفوها في هذه الوجوه كما جاء في الحديث"أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ" تلا ميمون بن مهران هذه الآية ثمَّ قال: « هذه مواضع النفقة، ما ذكر فيها طبلاً ولا مزماراً ولا

---

(١)متفق عليه : خ(٣٤٨٢/٥١٥/٦)، م(٢٢٤٢/١٧٦٠/٤).

(٢)صحيح : [ص.د:٢٢٢٢]، د(٢٥٣٢/٢٢١-٢٢٣/٧).

(٣)صحيح : [ص.ن:٢٥٣١]، ن(٦١/٥).

تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان»(١) .

عَنْ سلْمَانَ بْنِ عَامرٍ الضَّبِّيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّـه ﷺ الصَّـدَقَةُ عَلَـى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي الْقَرَابَةِ اثْنَتَانِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ»(٢)،

وَعَنْ مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ أَنَّهَا أَعْتَقَتْ وَلِيدَةً فِي زَمَانِ رَسُـولِ اللَّـه ﷺ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: لَوْ أَعْطَيْتِهَا أَخْوَالَكِ كَانَ أَعْظَمَ لأَجْرِكِ(٣)،

وَعَنْ أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ أَنْصَارِيٍّ بِالْمَدِينَةِ مَالاً وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرَحَى وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ

[آل عمران] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّـا تُحِبُّـونَ ﴾ وَإِنَّ أَحَـبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرَحَى وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ فَضَـعْهَا يَـا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ شِئْتَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «بَخْ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ»(٤) .

* * *

(١) تفسير ابن كثير(١/٢٥١).

(٢) صحيح : [ص.ن:٢٥٨١]، ن(٥/٩٢)، ت(٢/٨٤/٦٥٣)، جه١٨٤٤/١/٥٩١).

(٣) متفق عليه : خ(٢٥٩٢/٢١٧و٢١٨/٥)، م(٩٩٩/٦٩٤/٢)، د(١٠٩/٦٧٤و١١٠/٥).

(٤) متفق عليه : خ(١٤٦١/٣٢٥/٣)، م(٩٩٨/٦٩٣/٢).

الاقتصاد في المعيشة والاعتدال في النفقة

قال تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(٣)﴾ [البقرة] "فأتى بمن الدالة على التبعيض لينبِّهَهُم أنَّه لم يُرِدْ منهم إلاَّ جزءاً يسيراً من أموالهم غير ضَارٍّ لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانُهم"(١)، وبذلك صرَّح ربُّنا سبحانه في سورة البقرة أيضاً فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ(٢١٩)﴾ والعفو معناه الزيادة والفضل، قال تعالى: ﴿حَتَّى عَفَوْا(٩٥)﴾ [الأعراف] أي زادوا على ما كانوا عليه من العدد وكثروا" (٢).

وهكذا أرشد اللهُ تعالى عبادهَ إلى ما يجب أن يأخذوا أنفسَهم به من الاقتصاد في المعيشة والاعتدال في النفقة، كما قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُوراً(٢٩)﴾ [الإسراء]، تقعدَ ملوماً من الناس إذا بَخلْتَ بمالك عليهم، وتقعدَ محسوراً إذا أنفقت كلَّ ما عندك ثمَّ قعدت لا مال لك تسدَّ به فاقتَك وتقضي به حاجتك، فيتقطع قلبُك حسراتٍ على ما ضيَّعْتَ من مال، ولذلك نهى اللهُ تعالى عن الإسراف كما نهى عن البُخل، فقال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(١٨٠)﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ(٣٤)﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ

---

(١) تفسير السعدي(٤٢و٤٣/١).

(٢) جامع البيان(٣٦٦/٢).

مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(١٤١)﴾ ﴿يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١)﴾[الأعراف].

والإسراف نوعان: إسراف في النفقة، وإسراف في الاستهلاك، أما الإسراف في النفقة فقد نهى اللهُ تعالى عنه فقال: ﴿وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً(٢٦)﴾ [الإسراء]، فبين سبحانه وجوه الإنفاق وأخبر أَنَّه لا يجوز الإسرافُ في النفقة حتى ولو كان الإنفاقُ في سبيل الله، ولذلك كان النبيُّ ﷺ يردُّ صدقةَ من تصدقَ بما يملك، وربّما انتهره وقال له قولاً شديداً :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»(١)،

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ بِهَيْئَةٍ بَذَّةٍ فَقَالَ: لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصَلَّيْتَ قَالَ: لَا قَالَ: صَلِّ رَكْعَتَيْنِ وَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ فَأَلْقَوْا ثِيَابًا فَأَعْطَاهُ مِنْهَا ثَوْبَيْنِ فَلَمَّا كَانَتِ الْجُمُعَةُ الثَّانِيَةُ جَاءَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فَحَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ قَالَ: فَأَلْقَى أَحَدَ ثَوْبَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "جَاءَ هَذَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِهَيْئَةٍ بَذَّةٍ فَأَمَرْتُ النَّاسَ بِالصَّدَقَةِ فَأَلْقَوْا ثِيَابًا فَأَمَرْتُ لَهُ مِنْهَا بِثَوْبَيْنِ ثُمَّ جَاءَ الْآنَ فَأَمَرْتُ النَّاسَ بِالصَّدَقَةِ فَأَلْقَى أَحَدَهُمَا فَانْتَهَرَهُ وَقَالَ خُذْ ثَوْبَكَ»(٢)،

---

(١) خ(١٤٢٦/٢٩٤/٣)، د(١٦٦٠/٩٢/٥)، ن(٦٢/٥).

(٢) حسن :[ص.ن:١٤٠٧]، ن(١٠٦/٣)، د(١٦٥٩/٩٢/٥) مختصراً.

وعن كعب بن مالك أنَّه لمَّا تاب الله عليه منْ تَخلُّفه عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قالَ: **يَا رَسُولَ اللَّه إنَّ منْ تَوْبَتي أَنْ أَنْخَلعَ منْ مَالي صَدَقَةً إلَى اللَّه وَإلَى رَسُولِ اللَّهِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»**(١)،

وَعَنْ سَعْد بْنِ أَبي وَقَّاصٍ رَضي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ جَاءَ النَّبيُّ ﷺ يَعُودُني وَأَنَا بمَكَّةَ وَهُوَ يَكْرَهُ أَنْ يَمُوتَ بالأَرْضِ الَّتي هَاجَرَ منْهَا قَالَ: يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ عَفْرَاءَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه! أُوصي بمَالي كُلِّه قَالَ: لاَ قُلْتُ فَالشَّطْرُ قَالَ لاَ قُلْتُ: الثُّلُثُ قَالَ: فَالثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثيرٌ إنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنيَاءَ خَيْرٌ منْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ في أَيْديهمْ»(٢)،

وَعَنْ عمْرَانَ ابْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ رَجُلًا أَعْتَقَ ستَّةَ مَمْلُوكينَ لَهُ عنْدَ مَوْته لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ غَيْرَهُمْ فَدَعَا بهمْ رَسُولُ اللَّه ﷺ «فَجَزَّأَهُمْ أَثْلاَثًا ثُمَّ أَقْرَعَ بَيْنَهُمْ فَأَعْتَقَ اثْنَيْنِ وَأَرَقَّ أَرْبَعَةً وَقَالَ لَهُ قَوْلاً شَديدًا »(٣)،

فإن قيل إنَّ النبيَّ ﷺ قَبِلَ من أبي بكر التصدُّقَ بجميع ماله كما في الحديث :

عَنْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلكَ مَالاً عنْدي فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبقُ أَبَا بَكْرٍ إنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا فَجئْتُ بنصْف مَالي فَقَالَ: رَسُولُ اللَّه ﷺ : «مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلكَ قُلْتُ: مثْلَهُ قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ بكُلِّ مَا عنْدَهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ : «مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلكَ قَالَ أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قُلْتُ: لاَ أُسَابقُكَ إلَى شَيْءٍ أَبَدًا»(٤)، فالجواب: أنَّ مِثْلَ

---

(١)متفق عليه :خ(٤٤١٨/١١٣-٨/١١٦)، م(٢٧٦٩/٢١٢٠/٤)،ت (٥١٠٠/٣٤٥/٤).

(٢)متفق عليه :خ(٢٧٤٢/٣٦٣/٥)، م(١٦٢٨/١٢٥٠/٣)، د(٢٨٤٧/٦٤/٨)، ن(٢٤٢/٦).

(٣) م(١٦٦٨/١٢٨٨/٣)، د(٣٩٣٩/٥٠٠/١٠، ت(١٣٧٥/٤٠٩/٢)، ن(٦٤/٤).

(٤)حسن :[ص.د:١٤٧٢]، د(١٦٦٢/٩٤/٥)،ت(٣٧٥٧/٢٧٧/٥).

فعْلِ أبي بكرٍ مشروطٌ بأن يكون من مثل أبي بكر، أن يكون المتصدِّقُ كاملَ الإيمان، قويَّ اليقين، وأن تكون ثقتُه بمَّا عند الله أوثقَ منه بما عند نفسه، وليس هذا إلاَّ لأبي بكر، فهو أفضل الأمة بعد نبيِّها ﷺ .

فإذا تصدَّقت فتصدَّق بالفضل الزائد عن حاجتك وحاجة من تلزمك نفقته، كما في الحديث :

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ وَلاَ تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى »(١).

والنوع الثاني من الإسراف: إسراف الاستهلاك، قال تعالى: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** (٣١)﴾[الأعراف].

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا مَا لَمْ يُخَالِطْهُ إِسْرَافٌ أَوْ مَخِيلَةٌ »(٢).

فأمر اللهُ تعالى عبادَه أن يأكلوا ويشربوا مما أباح لهم من الطيبات شريطة عدم الإسراف، لأن الإسراف في الأكل والشرب مُضِرٌّ بالعقل والبدن :

عَنْ مِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ »(٣).

---

(١) م(٢/٧١٨/١٠٣٦)، ت(٤/٤/٢٤٤٦).

(٢) حسن :[ص.ن:٢٥٥٨]، ن(٥/٧٩)، جه(٢/١١٩٢/٣٦٠٥)، خ(١٠/٢٥٢) تعليقاً .

(٣) صحيح :[ص.ت:٢٣٨٠]، ت(٤/١٨/٢٤٨٦)، جه(٢/١١١١/٣٣٤٩)، حب(٣٢٨/٣٤٨)، ك(٤/١٢١).

ولقد أسرف الناسُ اليومَ في الأكل والشرب إسرافاً أضرَّ بأبدانهم وذهب بصحتهم وأموالهم ، فهم يسرفون في الأكل والشرب فيضيِّعُون الأموال، ثمَّ يُبتلُون بالأمراض فينفقون عليها الأموال ، وإن سَلِمُوا من الأمراض ابتلُوا بالسِّمنَةِ التي ينفقون عليها الأموال للتخلُّص منها، ولو أنَّهم اقتصدوا في الأكل والشرب لسلموا من السِّمنَةِ والأمراض ووفَّروا الأموال،

عَنْ ابن عباس قال: "كُلْ مَا شِئتَ، والْبَسْ مَا شِئتَ، مَا أَخطَأَتْكَ اثْنَتَانِ: سَرَفٌ، ومَخِيلَةٌ"(١)،

وَعَن أَبِي هريرة قَالَ: "نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَمْتَشِطَ أَحَدُنَا كُلَّ يَوْمٍ"(٢)،

ومن الإسرافِ في الاستهلاك الإسرافُ في لبس الثياب الفاخرة، وركوب السيارات الفخمة، وبناء القصور المشيَّدة التي يذهبون ويتركونها، وقد أخبر النبيُّ ﷺ أن المال المنفقَ في هذا البناء مالٌ ضائع لا أجرَ فيه،

عَنْ حَارِثَةَ بْنِ مُضَرِّبٍ قَالَ: أَتَيْنَا خَبَّابًا نَعُودُهُ فَقَالَ: لَقَدْ طَالَ سَقْمِي وَلَوْلاَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيُؤْجَرُ فِي نَفَقَتِهِ كُلِّهَا إِلاَّ فِي التُّرَابِ أَوْ قَالَ فِي الْبِنَاءِ(٣)، ولقد تباهى النَّاسُ وتفاخروا في كل ذلك وصدق فيهم قولُ الله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)**﴾ [الحديد]،

---

(١) خ(١٠/٢١٥) تعليقاً.

(٢) صحيح : [ص.ن:٢٣٢]، ن(١/١٣٠)، د(١/٥٠/٢٨).

(٣) صحيح : [ص.جه:٣٣٥٨]، جه(٢/١٣٩٤/٤١٦٣).

ومن الإسراف في الاستهلاك الإسراف في الأعراس ابتداءً بالمغالاة في المهور والإسراف في الجهاز والأثاث، ثمَّ الإسراف ليلة العرس في المحرمات، بالإنفاق على الفِرْقَة وما فيها من طبَّالين وزمَّارين، وراقصات وراقصين، وربَّما لم يكتفِ أحدُهم بإقامة الحفل الساهر -عفواً الساخر- ببلده فذهب إلى الفنادق وأنفق الأموال بكل جودٍ وسرف حتى إنهم لينفقون في هذه الليلة مئات الألوف غير مكترثين، ولو سئلوا درهماً لفقير لبخلوا به وتولوا وهم معرضون.

فالله اللهَ عباد الله ! إياكم والإسرافَ فإنَّ الله ذمَّ المسرفين المترفين، وبيَّن أنَّ التَّرف سببٌ لقسوة القلب ثم هو سببٌ للخروج من الدِّين، ولذلك كان المترفون من كلِّ أُمَّة أعداءَ المرسلين قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ**(٣٤)﴾ [سبأ]، كما كان المترفون سبب هلاك القرى وتدميرها قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**(١٦)﴾ [الإسراء]، فكان التَّرفُ سببَ عذاب الدنيا ، وكذلك فهو أيضاً سبب عذاب الآخرة قال تعالى: ﴿ **وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ** (٤١)**فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ** (٤٢)**وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ** (٤٣)**لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ** (٤٤)**إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ**(٤٥)﴾ [الواقعة].

إِنَّ المال عمادُ هذه الحياة وعَصَبُها، فبه يسدُّ الإنسانُ فاقتَه، ويقضي حاجتَه، ويصون حُرُمَاته، ويحفظ به ماء وجهه فلا يسأل أحداً من الناس. ولذا كان الإنسان مجبولاً على حُبِّ المال قال تعالى: ﴿**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا**(٢٠)﴾ [الفجر]، وقد سمّى الله تعالى المال خيراً فقال: ﴿**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**(٨)﴾[العاديات]، والخير هو المال كما قال الله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**(١٨٠)﴾ [البقرة]، فالمال في حَدِّ ذاته خيرٌ ونعمةٌ من الله، لكن تصرُّفُ

الإنسان في هذا المال ربّما أخرجه عن الخير إلى ضدِّه ، ذلك أن الناس في إنفاق المال ثلاثة أقسام:

فمنهم البخيلُ الذي لم يؤدِ حَقّ الله فبخل على عباد الله، وربّما بخل على نفسه، ومنهم المسرِفُ المُفْرِطُ الذي يُنفق مالَه ذات اليمين وذات الشمال لا يبالي في أيّ وجه أنفقه، وهؤلاء إخوان الشياطين كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ**(٢٧)﴾ [الإسراء]، وقليل ما هم ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**(٦٧)﴾ [الفرقان]، وهؤلاء هم المتّقون عبادُ الرحمن، فاحرص أن تكون منهم إن كنت تريد النجاة، وإياك والإسراف فإنّك مسئول عن مالك من أين اكتسبته وفيم أنفقته، واعلم أنّك ما خُلِقْتَ للجري وراء الشهوات والملذات، فإنّ الله قد عاب قوماً غلبتهم شهواتهم فاتبعوها فقال تعالى: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**(٥٩)﴾ [مريم]، وقال تعالى: ﴿**كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**(٦٩)﴾ [التوبة]،

* * *

فضل الإنفاق في سبيل الله

قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**(٢٦١)﴾ [البقرة]،

إنَّ الإنسانَ مفطورٌ على حُبِّ المال، وإنَّ بعض الناس قد يزداد حُبُّ المال في قلبه حتى يبلغ درجةَ الحرص الذي يمنعه من النفقة حتى على نفسه، ولما كان الخيرُ كُلُّ الخير في الإنفاق، والشَّرُّ كُلُّ الشَّرِّ في الإمساك كما قال النبي ﷺ "**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ**"(١)، وكان الله بعباده لطيفاً خبيراً، فقد حثَّ سبحانه عبادَه على النفقة ورغَّبهم فيها فقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**(٢٥٤)﴾ يعني يوم القيامة ﴿**يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ** (٨٨) **إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**(٨٩)﴾ [إبراهيم]، فإذا أيقنت أَنَّ القيامة آتيةٌ لا محالة وأَنَّك ملاقٍ اللهَ بغير مالٍ كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ**(٩٤)﴾ [الأنعام]، فاغتنم غِناكَ قبل فقرك ، وحياتَك قبل موتك، وأنفق في سبيل الله مما أتاك الله، ولا تبخل حتى إذا فاتتك الفرصةُ وعاينْتَ مَلَكَ الموت ﴿**فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**(٢٢)﴾ [ق]، فتمنيت أن تُمْهَلَ قليلاً لتتصدّق ولكن قد حيل بينك وبين ما اشتهيت لأَنَّك لم تغتنم الفرصة، والفُرَصُ إذا ضاعت لا تُردُّ، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ**

---

(١) م(١٠٣٦/٧١٨/٢)، ت(٢٤٤٦/٤/٤).

أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١١)﴾ [المنافقون].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ فَقَالَ: « أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى وَلاَ تُمْهِلَ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا وَلِفُلاَنٍ كَذَا أَلاَ وَقَدْ كَانَ لِفُلاَنٍ»(١).

وَعَنْ بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ الْقُرَشِيِّ قَالَ: بَزَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي كَفِّهِ ثُمَّ وَضَعَ أُصْبُعَهُ السَّبَّابَةَ وَقَالَ: « يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَّى تُعْجِزُنِي ابْنَ آدَمَ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ فَإِذَا بَلَغَتْ نَفْسُكَ هَذِهِ وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ قُلْتَ أَتَصَدَّقُ وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ»(٢)

ومن الحثِّ على النفقة قولُه تعالى في سورة البقرة : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٤٥)﴾، وهذا ترغيبٌ في النفقة عظيم، حيث جعلها الله تعالى قرضاً، والقرض مردود، ثمَّ هو قرضٌ لمن؟ لله الغنِّي وهذا تأكيدٌ لضمان الردِّ تشجيعاً على النفقة ، ونهياً عن البخل ، ولذلك جاء في الحديث :

عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «يَنْزِلُ اللَّهُ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِشَطْرِ اللَّيْلِ أَوْ لِثُلُثِ اللَّيْلِ الآخِرِ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ أَوْ يَسْأَلُنِي

---

(١) متفق عليه : خ(١٤١٩/٢٨٤/٣)، م(١٠٣٢/٧١٦/٢)، د(٢٨٤٨/٦٧/٨)، ن(٢٣٧/٦).
(٢) حسن : [ص.جه:٢١٨٨]، جه(٢٧٠٧/٩٠٣/٢)، ك(٣٢٣/٢).

فَأُعْطِيَهُ ثُمَّ يَقُولُ: مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلاَ ظَلُومٍ»(١)،

ومن عظيم الحثِّ على الإنفاق في هذه الآية وَعْدُ الله بالتضعيف في قوله: ﴿**فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً**﴾ ثمَّ بيّنها في قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**(٢٦١)﴾ [البقرة]، "وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإنَّ هذا فيه إشارة إلى أنَّ الأعمالُ يَنمِّيها الله عزّ وجلّ لأصحابها كما يُنَمِّى الزرعَ لمن بذره في الأرض الطيبة »(٢)، لا فرق في ذلك بين صدقة السر وصدقة العلانية إذا دعت للإعلان حاجة لقوله تعالى: ﴿**سِرًّا وَعَلاَنِيَةً** (٢٧٤)﴾ [البقرة]، فإذا لم تكن حاجةٌ فالإسرار أفضل.

وهذا التضعيف يتفاوت من متصدِّقٍ لآخر بحسب ما يوفِّره كلٌّ منهما من شروط القبول، وما ينفيه من موانعه ولذا قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ " أيّ بحسب إخلاصه في عمله ﴿**وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ أيّ فضلُه واسعٌ كبير أكبر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق »(٣).

ومن شروط القبول: أنْ تكون النفقةُ في سبيل الله وابتغاءَ مرضاته وقد تكرر هذا الشرط في هذا السياق كثيراً لأنَّه الأصل في القبول قال تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**(٢٦١)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ**(٢٧٢)﴾ [البقرة].وعلى هذا أكّد النبيُّ ﷺ حيث قال :

"**مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُتِبَتْ لَهُ بِسَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ**»(٤)،

---

(١) م(٧٥٨-٧١/٥٢٢/١).

(٢) تفسير ابن كثير (٣١٦و٣١٧/١).

(٣) المرجع السابق (٣١٦و٣١٧/١).

(٤) صحيح : [ص.ن:٣١٨٦]، ن(٦/٤٩)، ت١٦٧٥/٩٠/٣)، حب(١٦٤٧/٣٩٦).

وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : "إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً (١)

وقّالّ لسَعَد بن أبي وَقّاصٍ: " إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِيّ امْرَأَتِكَ"(٢).

وقد ضرب اللهُ تعالى للمخلصين النَّيةَ في نفقتهم مثلاً فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٦٥)﴾ [البقرة]، "يعني مثلُ النفقةِ في سبيل الله وابتغاءَ مرضاته في نُمُوِّها وكثرتها وزيادتِها كمثل بُستانٍ بمكانٍ مرتفعٍ من الأرض إنْ أصابه المطرُ الغزيرُ آتى أُكلَه مضاعفةً، وإنْ لم يصبه مطرٌ فالطَّلُّ يكفيه لإيتاء أُكلَه مضاعفةً أيضاً، وكذلك عملُ المؤمن لا يبور أبداً، بل يتقبَّلُه اللهُ ويُكَثِّرُه ويُنَمِّيه كُلٌّ عاملٍ بحسبه"(٣)، فعليكم بالإخلاص في النفقة وإياكم والرِّياَء فإنَّه يُبطل الأعمال،

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ: ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى

---

(١) متفق عليه : خ(٥٥/١٣٦/١)، م(١٠٠٢/٦٩٥/٢)، ن(٦٩/٥).

(٢) متفق عليه : خ(٥٦/١٣٦/١)، م(١٦٢٨/١٢٥٠/٣)، د(٢٨٤٧/٦٤/٨)، ن(٢٤٢/٦).

(٣) ابن كثير (٣١٩/١) .

أُلْقِيَ فِي النَّارِ، ورَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»(١).

وقد ضرب اللهُ للمرائين بنفقتهم مثلاً فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٢٦٤)** ﴾ [البقرة]: "فهذا مثل الذي يُرائي الناسَ وليس معه إيمانٌ بالله ولا احتسابٌ لثوابه، حيث شبَّه قلبَه بالصفوان وهو الحجرُ الأملس عليه ترابٌ يظنُّ الرائي أنَّه إذا أصابه المطرُ أنبت كما تُنْبِتُ الأرضُ الطِّيبة، ولكنَّ الحجرَ الذي أصابه الوابلُ الشديدُ أذهب ما عليه من التراب وتركه صلدا. وهذا مثلٌ مطابقٌ لقلب المرائي الذي ليس فيه إيمانٌ بل هو قاسٍ لا يخشع، فهذا أعماله ونفقاتُه لا أصل لها تؤسس عليه ولا غاية تنتهي إليها، بل ما عمله فهو باطل لعدم شرطه"(٢).

الشرط الثاني: أن تكون النفقةُ من كسبٍ طيِّب، وأن تكون من المال الجيِّد، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(٢٦٧)**﴾ [البقرة]، فالواجب في الصدقة أن تكون من كسبٍ طَيِّبٍ ولا يجوز أن تكون من كسبٍ خبيثٍ:

---

(١) م(١٩٠٥/١٥١٣/٣).

(٢) تفسير السعدي(٣٢٨و٣٢٩/١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا »(١)،

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»(٢). فإذا كانت النفقة من الخبيث من الربا أو الرشوة أو السرقة ونحو ذلك من أخبث المكاسب رُدَّت على صاحبها لا يقبل الله منه! فإذا أنْفقتَ أيها المسلم فلتكن نفقتُك طَيِّبةً من كسبٍ طيِّب لا خبيث، ولتكن من طيب المال وجَيِّده لا من خبيثه ورديئه:

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَبِيَدِهِ عَصًا وَقَدْ عَلَّقَ رَجُلٌ قِنْوَ حَشَفٍ فَجَعَلَ يَطْعَنُ فِي ذَلِكَ الْقِنْوِ فَقَالَ: « لَوْ شَاءَ رَبُّ هَذِهِ الصَّدَقَةِ تَصَدَّقَ بِأَطْيَبَ مِنْ هَذَا إِنَّ رَبَّ هَذِهِ الصَّدَقَةِ يَأْكُلُ حَشَفًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٣)،

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ ﴿ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ(٢٦٧) ﴾ [البقرة] قَالَ نَزَلَتْ فِي الأَنْصَارِ كَانَتِ الأَنْصَارُ تُخْرِجُ إِذَا كَانَ جِدَادُ النَّخْلِ مِنْ حِيطَانِهَا أَقْنَاءَ الْبُسْرِ فَيُعَلِّقُونَهُ عَلَى حَبْلٍ بَيْنَ أُسْطُوَانَتَيْنِ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَأْكُلُ مِنْهُ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ فَيَعْمِدُ أَحَدُهُمْ فَيُدْخِلُ قِنْوًا فِيهِ الْحَشَفُ يَظُنُّ أَنَّهُ جَائِزٌ فِي كَثْرَةِ مَا يُوضَعُ مِنَ الأَقْنَاءِ فَنَزَلَ فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ﴿ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ يَقُولُ لاَ تَعْمِدُوا لِلْحَشَفِ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ يَقُولُ لَوْ أُهْدِيَ لَكُمْ

---

(١) م(٢/٧٠٣/١٠١٥)، ت(٤/٢٨٨/٤٠٧٤).

(٢) متفق عليه : خ (٣/٢٧٨/١٤١٠) ، م(٢/٧٠٢/١٠١٤) ، ت(٢/٨٦/٦٥٩) ، ن(٥/٥٧)، جه (١/٥٩٠/١٨٤٢).

(٣) حسن :[ص.ن:٢٤٩٢]، ن(٤٣و٥/٤٤)، د(٤/٥٩٦/١٥٩٣)، جه(١/٥٨٣/١٨٢١).

مَا قَبِلْتُمُوهُ إلاَّ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ مِنْ صَاحِبِهِ غَيْظًا أَنَّهُ بَعَثَ إِلَيْكُمْ مَا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِيهِ حَاجَةٌ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ صَدَقَاتِكُمْ»[١]، فإذا أنفقت أيها المسلم فأنفق من المال الحلال الطيِّب الجيِّد الذي تُحبُّه فإنَّ الله تعالى قال: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**(٩٢)﴾ [آل عمران]، ومدح الذين استجابوا فقال تعالى: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** (٨) **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا** (٩)﴾ [الإنسان]، وإذا أنفقت الحلالَ الطيِّب تبتغي مرضاة الله فاحذر مما يُبْطِلُ العمل ويُحْبطُ الأجْر والثواب، احذر من المنّ والأذى فإنَّ الله تعالى قال: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** (٢٦٢) **قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ** (٢٦٣) **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى**(٢٦٤)﴾ [البقرة]، "والمنّ هو أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن إليه، والأذى أن يذكر إحسانَه للناس»[٢]، وقد ضرب الله تعالى مثلاً للذي يتصدق ثمَّ يمنّ على المتصدَّق عليه فقال تعالى: ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**(٢٦٦)﴾ [البقرة]، فالمنَّان مَثَلُه كمَثَل صاحب هذه الجنَّة تجري من تحتها الأنهار قد أُورقت أغصانها وأينعت ثمارها، ودنا قطف حصادها وهو شيخ كبير ضعيف عاجز عن العمل وله ذرية ضعفاء لا يقدرون على العمل أيضاً فهم أحوج ما يكونون إلى ثمار هذه الجنَّة، إذ فاجأتهم هذه الكارثة ﴿**فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ**

---

(١) صحيح :[ص. جه : ١٤٧٥]، جه(١٨٢٢/٥٨٣/١).

(٢) تفسير المنار(٢٥٦/١).

فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾، فأيكم يحب أن يكون هذا الرجل، فذلك مثل الذي يتصدق من طيب ماله فيقبل الله صدقته ويربّيها له حتى إذا ربت حبطت بسبب منّه وأذاه لمن تصدّق عليه وكان أحوج ما يكون إلى أجر وثواب هذه الصدقة، فالحذر كل الحذر من المنّ والأذى :

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاَثَ مِرَارًا قَالَ: أَبُو ذَرٍّ خَابُوا وَخَسِرُوا مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: الْمُسْبِلُ وَالْمَنَّانُ وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ"[(١)]،

عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "ثَلاَثَةٌ لاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ وَالْمُدْمِنُ عَلَى الْخَمْرِ وَالْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى"[(٢)].

فإذا أنفقت فلا تمنّ ولا تؤذِ، وخير لك أَنْ ترد السائل بكلمة طيبة بدلاً من أَنْ تعطيه ثمَّ تمنّ عليه، وإِنْ آذاك لمنعه فصبرت عليه وغفرت له كان خيراً لك من أَنْ تعطيه ثمَّ تمنّ عليه قال تعالى: ﴿**قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ**(٢٦٣)﴾ [البقرة].

ولمَّا حث اللهُ على النفقة ورغَّب فيها بيَّن أحقَّ الناس بها فقال تعالى: ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**(٢٧٣)﴾ [البقرة]، فأولى الناس بالصدقة

---

(١) م(١٠٦/١٠٢/١)، د(٤٠٦٩/١٤٤و١٤٥/١١)، ت(١٢٢٩/٣٤٢/٢)، ن(٢٤٥/٧) ، جه (٢٢٠٨/٧٤٤و٧٤٥/٢).

(٢) حسن صحيح :[ص.ن:٢٥٦١]، ن(٨٠/٥)، حم(١٠٦/٢٨٤/١٩)، ك(١٤٧/٤).

وأحقُّهم بها العَجَزَةُ الضَّعفَةُ الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض أي سفراً للتجارة والكسب، ثمَّ هم مع ضعفهم وعجزهم متعفِّفون عن السؤال ولِشدَّة عِفَّتهم لا يكادون يُعرفون، بل ربما حَسِبَهم من لم يعرف حقيقتَهم أغنياء، فهؤلاء أولى الناس بالصدقة وأحَقُّهم بها، هؤلاء المتعففون عن السؤال القاعدون في بيوتهم القانعون بما آتاهم الله من فضله الذين لا يشكون ولا يسألون يجب على الناس أَنْ يسألوا عنهم وأَنْ يعرفوهم وأَنْ يفقدوهم وأَنْ يساعدوهم على حفظ ماء وجههم حتى لا يراق بالسؤال. وفي الآية إشارة للسائلين إلى العفة وفضلها حتى يكفوا عن السؤال: (فإنَّ من سأل وله ما يغنيه فقد ألحف في المسألة) :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلاَ اللُّقْمَةُ وَلاَ اللُّقْمَتَانِ إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ يَعْنِي قَوْلَهُ ﴿ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾"(١)،

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "لاَ تُلْحِفُوا فِي الْمَسْأَلَةِ فَوَاللَّهِ لاَ يَسْأَلُنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا فَتُخْرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شَيْئًا وَأَنَا لَهُ كَارِهٌ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتُهُ "(٢)،

وَعَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ ﷺ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: "يَا حَكِيمُ! إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى قَالَ: حَكِيمٌ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَلَمْ

---

(١) متفق عليه : خ(٨/٢٠٢/٤٥٣٩)، م(٢/٧١٩/١٠٣٩)، ن(٥/٨٥).

(٢) م(٢/٧١٨/١٠٣٨)، ن(٩٧و٥/٩٨).

يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تُوُفِّيَ»(١)،

عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَرَّحَتْنِي أُمِّي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ وَقَعَدْتُ فَاسْتَقْبَلَنِي وَقَالَ: مَنِ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنِ اسْتَعَفَّ أَعَفَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنِ اسْتَكْفَى كَفَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيمَةُ أُوقِيَّةٍ فَقَدْ أَلْحَفَ، فَقُلْتُ: نَاقَتِي الْيَاقُوتَةُ خَيْرٌ مِنْ أُوقِيَّةٍ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَسْأَلْهُ»(٢)،

وَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "إِنَّ الْمَسَائِلَ كُدُوحٌ يَكْدَحُ بِهَا الرَّجُلُ وَجْهَهُ فَمَنْ شَاءَ كَدَحَ وَجْهَهُ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَ إِلاَّ أَنْ يَسْأَلَ الرَّجُلُ ذَا سُلْطَانٍ أَوْ شَيْئًا لاَ يَجِدُ مِنْهُ بُدًّا»(٣)، ولذلك كان ﷺ يحثُّ على العمل والكسب حتى لا يكدح الرجلُ وجهَه :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلاً فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ»(٤).

* * *

---

(١) متفق عليه :خ(٣/٣٣٥/١٤٧٢)،م(٢/٧١٧/١٠٣٥)،ت(٢٥٨١/٥٦و٥٧/٤)،ن(٥/١٠١).

(٢) حسن صحيح :[ص.ن:٢٥٩٤]، ن(٥/٩٨)، د(٥/٣٤/١٦١٢).

(٣) صحيح :[ص.د:١٤٤٣]، د(١٦٢٣/٤٨و٤٩/٥)، ت(٢/٩٥/٦٧٦)، ن(٥/١٠٠).

(٤) متفق عليه :خ(٣/٣٣٥/١٤٧٠)، م(٢/٧٢١/١٠٤٢)، ن(٥/٩٦).

فضل العلماء العاملين

قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ(٢٦٩)﴾[البقرة]

"لما ذكر اللهُ تعالى أحوالَ المنفقين للأموال وأنَّه أعطاهم منها ما يُدركون بنفقته المقامات العليّةَ والدَّرجات السَّنيَّةَ ذكر ما هو أفضل من ذلك وهو أنّه يعطي الحكمةَ من يشاء من عباده ممن أراد بهم الخير"(١)، والحكمة هي العلم النافع المصحوب بالعمل الصالح، قال ابن قتيبة: الحكمة هي العلم والعمل، لا يُسَمَّى حكيماً حتى يجمعهما(٢)، وقال الزمخشري: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ**﴾يؤتى العلمَ والعمل به، والحكيمُ عند الله هو العالم العامل (٣).

وعلى طريقة القرآن الكريم في هذا الجمع في الذكر بين فضل المنفقين المحسنين والعلماء العاملين جمع النبيُّ ﷺ في قوله: "**لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**"(٤)، وفي رواية: " **لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**"(٥)، وهذه الرواية تؤيِّد تفسيرَ الحكمةِ بالعلم والعمل، حيثُ فسِّرتِ الحكمةُ

---

(١) تفسير السعدي (١/٣٣٢) بتصرف.

(٢) البحر المحيط (٢/٣٢٠).

(٣) الكشاف (١٦٢و١/١٦٣).

(٤) متفق عليه: خ(١/١٦٥/٧٣)، م(١/٥٥٩/٨١٦)، جه(٢/١٤٠٧/٤٢٠٨).

(٥) متفق عليه:خ(١٣/٥٠٢/٧٥٢٩)، م(١/٥٥٨/٨١٥)، ت(٣/٢٢١/٢٠٠١)، جه(٤٢٠٩/ ٢/١٤٠٨).

في الرواية الثانية بأنَّها القرآن وهو أفضل العلوم على الإطلاق، كما قال الإمامُ الشافعي:

كُلُّ العلومِ سوى القرآن مشغلةٌ ... إلاَّ الحديثَ وإلاَّ الفقهَ في الدِّينِ
العلمُ ما كان فيه قال:حدَّثنا ... وما سوى ذاك وِسْوَاس الشَّياطينِ

وقال ابن القيم:

العلم قال اللهُ قال رسولُه ... قال الصحابةُ ليس بالتمويه

فالعلم الممدوح شرعاً هو علم الكتاب والسنة، العلم الذي يُعَرِّف العبدَ بفاطره وبارئه بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى، ويُعَرِّفه حق الله عليه، والطريقة الموصلة إليه، ومالَه إذا سلكها وقام بحّق الله فيها، وهذا العلم خيرٌ من الدنيا وما فيها، قال تعالى:﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا(٢٦٩)**﴾ [البقرة]،

وقال ﷺ : « **مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ** »[١]، فذكر اللهُ تعالى أَنَّ من أوتي العلم فقد أوتي خيراً كثيراً، مع أَنَّه سبحانه قال: ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً(٨٥)**﴾ [الإسراء]، وسَمَّى الدنيا بأسرها قليلاً قال تعالى: ﴿ **قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ(٧٧)**﴾ [النساء]»[٢]، فقليلُ العلم خيرٌ كثير، ومتاعُ الدنيا مهما كَثُر قليل، فقليلُ العلم خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولذلك حَمِدَ سُليمانُ ربَّه على ما آتاه وتحدَّث بنعمة مولاه : ﴿**وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ(١٦)**﴾ [النمل] فجعل عليه السلام نعمة تعليم منطق الطير وحدها في مقابل ما آتاه الله من كل شيء من الدنيا، وكذلك فضَّل نبيُّنا ﷺ العلم على المال، ففي الحديث :

---

(١) متفق عليه:خ(٣١١٦/٢١٧/٦)، م(١٠٣٧/٧١٨/٢)، جه(٢٢٠/٨٠/١).
(٢) تفسير الرازي (٧٣/٧).

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: « أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ إِلَى بُطْحَانَ أَوِ الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ كُلَّ يَوْمٍ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ زَهْرَاوَيْنِ فَيَأْخُذَهُمَا فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلاَ قَطْعِ رَحِمٍ قَالَ: قُلْنَا: كُلُّنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ يُحِبُّ ذَلِكَ قَالَ فَلأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَتَعَلَّمَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ وَثَلاَثٌ خَيْرٌ مِنْ ثَلاَثٍ وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ مِنْ أَرْبَعٍ وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ»(١)،

وعن عليّ أَنَّه قال لرجُلٍ من أصحابه: يا كميل! « العلم خيرُ من المال ، العلم يحرسُك وأنت تحرسُ المال، والعلم حاكمٌ والمال محكومٌ عليه، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق .

وقال الأسود: ليس شيء أعزَّ من العلم، الملوكُ حُكَّامٌ على الناس، والعلماءُ حُكَّامٌ على الملوك .

وقال ابن عباس: خَيِّرِ سليمانُ بين العلم والمال والملك فاختار العلم، فأُعطي المالَ والمُلْكَ معه .

وقال الزبير بن أبي بكر: كتب إليّ أبي بالعراق:عليك بالعلم فإنَّك إنْ افتقرت كان لك مالاً، وإنْ استغنَيْت كان لك جمالاً »(٢).

وقد أمر الله تعالى بطلب العلم نفياً للجهل، فأمر من استطاع التَّعلُّمَ بالتعلم ليعلِّم من لا يستطيع فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ(١٢٢)﴾ [التوبة]، وأمر من لا يستطيع التعلم أن يسأل العلماء فقال تعالى:

---

(١) م(١/٥٥٢/٨٠٣)، د(٤/٣٢٨/١٤٤٣)، حم(١٨/٨/١٨).

(٢) إحياء علوم الدين(٧و١/٨).

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ(٧)﴾ [الأنبياء]، وفي الآية الأولى دلالةٌ على أن طلب العلم جهاد، وأنَّ الله سمَّى الخروجَ في طلب العلم نفيراً كما سَمَّى الخروجَ في طلب العُدوِّ نفيراً فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ(٣٨)﴾ [التوبة]، وقال للنبي ﷺ : ﴿فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا(٥٢)﴾ [الفرقان]،

وقال ﷺ : « مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا لَمْ يَأْتِهِ إِلاَّ لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ أَوْ يُعَلِّمُهُ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَنْ جَاءَ لِغَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى مَتَاعِ غَيْرِهِ »(١)،

وقال ﷺ : « جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ »(٢)،

وقال أبو الدرداء: من رأى الغَدْوَ والرَّواحَ في طلب العلم ليس بجهادٍ فقد نقص عقلُه وساء رأيُه .

وقد كَثُرَ في القرآن الكريم وأحاديث النبيِّ العظيم الحَضُّ على طلب العلم والترغيب فيه: ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ(١١)﴾ [المجادلة]،

عَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ قَالَ: عُمَرُ أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: « إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ »(٣).

---

(١) صحيح :[ص.جه:١٨٦]، جه(٢٢٧/٨٢و٨٣/١)، ك(١/٩١).

(٢) صحيح :[ص.د:٢١٨٦]، د(٢٤٨٧/١٨٢/٧)، ن(٦/٧)، حب(١٦١٨/٣٩٠)، ك(٢/٨١).

(٣) م(٨١٧/٥٥٩/١).

ولقد استشهد الله تعالى بالعلماء على أنَّه لا إله إلاَّ الله، وأمر رسولَه ﷺ أن يستشهد بهم على أنَّه رسولُ الله فقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١٨)﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ(٤٣)﴾ [الرعد] كما أمر اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يكتفي بإيمان العلماء عن إيمان غيرهم فقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا(١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا(١٠٩)﴾ [الإسراء] ومدح سبحانه الذين يَخْشَوْنَه دون غيره فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ(٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ (٥٩)وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ(٦٠)﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(١٢)﴾ [الملك]، وقال تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ(٨)﴾ [البينة]، وجعل خشيته في العلماء فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ(٢٨)﴾ [فاطر]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا(٣٩)﴾ [الأحزاب]، فدلَّ على أنَّ كُلَّ مَدْحٍ لأهل خشيته فهو مَدْحٌ للعلماء، وأنَّ كُلَّ جزاءٍ حَسَنٍ أعدَّه اللهُ لمن خشي ربَّه فإنَّما هو للعلماء.

عَنْ كَثِيرِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ أَتَيْتُكَ مِنَ الْمَدِينَةِ مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِحَدِيثٍ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُ بِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: فَمَا جَاءَ بِكَ تِجَارَةٌ قَالَ: لا قَالَ: وَلاَ

جَاءَ بِكَ غَيْرُهُ قَالَ: لاَ قَالَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»(١)،

وقد جمع الله ذلك الفضل كله في الآية التي معنا: ﴿**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**(٢٦٩)﴾ [البقرة]، "لأنه خرج من ظلمات الجهالة إلى نور الهدى، ومن حُمْقِ الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأَنَّه كمَّل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعدَّ لنفع الخلق أعظم نفع في دينهم ودنياهم ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**(٦)﴾ [الروم]، هذا الخيرَ فهم معرضون عنه. وما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء ﴿**إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ**(٢٦٩)﴾ [البقرة]وهم: أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضار فيتركونه»(٢).

فإذا علمتم فضل العلم فتعلَّموا، وإذا تعلَّمتم فاعملوا، فإنَّما مُدِحَ العلمُ من أجل العمل به، وإنَّما العلم وسيلةُ العمل، والعلمُ شجرةٌ والعمل ثمرة، ولا قيمةَ للشجرة إلاَّ بثمرتها، وكذلك لا قيمةَ للعلم إلاَّ بالعمل به، ولذلك عاب اللهُ على العلماء الذين لا يعملون فقال سبحانه: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**(٤٤)﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَتَفْعَلُونَ**(٢) **كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ**(٣)﴾ [الصف]،

---

(١) صحيح:[ص.د:٣٠٩٦]،د(٣٦٢٤/٧٢-٧٤/١٠)، ت(٢٨٢٣/١٥٣/٤)، جه(٢٢٣/٨١/١).
(٢) تفسير السعدي(٣٣٢/١) بتصرف .

عَنْ أُسَامَةَ بنِ زَيد قَالَ: سَمِعْتُ منْ رَسُولِ اللَّه ﷺ يَقُولُ: " يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَومَ الْقِيَامَةَ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحمَارُ بِرَحَاهُ فَيَجْتَمعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْه فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلاَنُ مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوف وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتيه وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيه»(١)،

ولقد ضرب اللهُ تعالى لهؤلاء الخطباء مَثَلَ السَّوْء فقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ(١٧٥) وَلَو شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِأَيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتفَكَّرُونَ(١٧٦)﴾ [الأعراف]،

فيا عباد الله تعلَّموا فإنَّ طلبَ العلم فريضةٌ على كل مسلم، وإذا تعلمتم فاعملوا بالعلم في أنفسكم، وعلِّموه غيركم فبذلك أمركم ربُّكم فقال تعالى: ﴿ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ(١٢٢)﴾ [التوبة]

عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»(٢)، فمن تعلَّم وعَمِلَ وعلَّم فذلكم العالم الرَّبانيُّ الذي يُدْعَى في ملكوت السموات عظيماً، ومن تعلَّم ولم يعمل فقد عرفتم منزلته في النار، ومن تعلَّم ولم يُعلِّم فهو في النار أيضاً قال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِه ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٧٤)﴾ [البقرة]، وقال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ(١٥٩)﴾ [البقرة]،

فكما يجب بذلُ المال وإنفاقُه ولا يجوز كنزُه كذلك يجب بذلُ العلم لمن احتاجه ويحرم كتمه .

---

(١)متفق عليه : خ(٦/٣٣٧/٣٢٦٧)، م(٤/٢٢٩٠/٢٩٨٩).
(٢) خ(٩/٧٤/٥٠٢٧)، ت(٤/٢٤٦/٣٠٧١)، د(٤/٣٢٥/١٤٣٩).

الركن الرابع: الصيام

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(١٨٧)﴾ [البقرة].

هذه هي آياتُ الصِّيام في القرآن الكريم ولم تتكرر في غير هذا الموضع، ولقد لَبِثَ النبيُّ ﷺ في مكةَ عشر سنين يدعو إلى التوحيد الذي هو أصلُ الدِّين ورُكْنه المتين، ثمَّ عُرِج به إلى السموات العُلا حيث فرض الله عليه وعلى من أمن معه خَمْسَ صلواتٍ في اليوم والليلة، ثمَّ هاجر إلى المدينة وليس معه من أركان الإسلام إلاَّ الشهادتان وإقام الصلاة، "**فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَجَدَهُمْ يَصُومُونَ**

يَوْمًا يَعْنِي عَاشُورَاءَ فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ وَهُوَ يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ فِيهِ مُوسَى وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ فَصَامَ مُوسَى شُكْرًا لِلَّهِ فَقَالَ: أَنَا أَوْلَى بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ»[١]، وفي السَّنةِ الثَّالثةِ من الهجرة نزلت هذه الآياتُ بفرض الصيام، فنَسختْ وجوبَ صيام عاشوراء وبَقِيَ استحبابُه.

فصيامُ رمضانَ فريضةٌ كما نطق به كتابُ ربِّنا، وهو رُكْنٌ من أركان الإسلام كما صرَّح بذلك نبيُّنا ﷺ :

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُم عَنْهمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[٢].

وقد أجمعت الأمَّةُ على وجوب صوم رمضان، فمن أنكره وجحد فرضيته فهو كافر، ومن تهاون بصيامه وأفطر من غير عُذْرٍ فهو عند العلماء شَرٌّ من الزاني ومُدْمِنِ الخمر، بل يشكُّون في إسلامه ويظنون به الزندقة والانحلال.

ولما كان الصومُ هو حَبس النفس عن شهواتها وهو مما يشقُّ عليها فقد رغَّب الله تعالى عباده في الالتزام بهذه الفريضة والمحافظة عليها بأكثر من أسلوب .

فاستفتح اللهُ تعالى آياتِ الصيام بالنداء على عباده بهذا اللَّقب المحبَّبِ إلى نفوسهم لَقبِ الإيمان تذكيراً لهم بما يقتضيه الإيمانُ من السمع والطاعة وفورية الاستجابة، كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ**

---

(١) متفق عليه: خ(٦/٤٢٨/٣٣٩٧)، م(١١٣٠-٢٨٠-/٢/٧٩٦)، جه(١/٥٥٢/٧٣٤).

(٢) متفق عليه: خ(١/٤٨/٨)، م(١٦-٢٠-/١/٤٥)، ت(٤/١١٩/٢٧٣٦)، ن(٨/١٠٧).

ضَلالاً مُبِيناً(٣٦)﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥١)﴾** [النور].

ثمَّ أخبر سبحانه عبادَه المؤمنينَ أنَّهم لم يُختصُّوا بهذه الفريضة وإنَّما كانت مفروضةً على الأُممِ السَّابقة، وفي هذا الإخبارِ "تنشيطٌ لهم،بأنَّه ينبغي لهم أن ينافسوا غيرَهم في الأعمال، والمسارعة إلى صالح الخصال»(١)، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٤٨)﴾** [المائدة].

ثمَّ رفع لهم الغايةَ من هذه الفريضة حتى تكون نُصْبَ أعينهم فقال تعالى : ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ "وهم يعلمون مقامَ التقوى عند الله ووزنَها في ميزانه، فهي غايةٌ تتطلَّع إليها أرواحُهم، وهذا الصوم أداةٌ من أدواتها، وطريقٌ موصِّلٌ إليها، ومِنْ ثَمَّ يرفعها السياقُ أمام عيونهم هدفاً وضيئاً يتَّجهون إليه عن طريق الصيام»(٢).

" فإنَّ الصيام من أكبر أسباب التقوى لأنَّ فيه امتثالَ أَمْرِ الله واجتنابَ نهيه ومما اشتمل عليه الصيام من التقوى :

أن الصائم يترك ما حَّرم اللهُ عليه من الأكل والشرب والجماع متقرِّباً بذلك إلى الله، راجياً بتركها ثوابه. فهذا من التقوى.

ومنها: أن الصائم يدرِّب نفسَه على مراقبة الله تعالى فيترك ما تهوى نفسُه مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه .

---

(١) تفسير السعدي (١/٢٢٠) .

(٢) في ظلال القرآن (١/٢٣٩) .

ومنها: أن الصيامُ يُضيِّق مجاريَ الشيطان فإنَّه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام يضعف نفوذُه، وتقلُّ المعاصي .

ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعاته، والطاعات من خصال التقوى.

ومنها أن الغَنيَّ إذا ذاق أَلَمَ الجُوعَ أَوْجَب له ذلك مواساةَ الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى» [١].

ومن أساليب الترغيب: قوله تعالى: ﴿ **أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ** ﴾ "فليس فريضةَ العمر وتكليفَ الدهر، ومع هذا فقد أُعفى من أدائه المرضى حتى يَصِحُّوا، والمسافرون حتى يُقيموا تخفيفاً وتيسيراً » [٢].

ومن أساليب الترغيب : التخيير بين الصوم والفدية وبيان أَنَّ الصوم خيرٌ من الفدية قال تعالى: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾

فلمَّا رأى الله تعالى منهم إقبالاً على هذه الطاعة، وحرْصًا على هذه الفريضة، ورغبةً في الخير المترتب عليها، أمرهم بها أمْرَ إلزامٍ فقال : ﴿**فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ**﴾ فنسخَ بذلك التَّخييرَ، وأبقى الفديةَ للشيخِ الكبير والمرأةِ العجوز، كما أبقى الرُّخصةَ للمريضِ حتى يصحَّ وللمسافرِ حتى يقيم، إلاَّ أن يشاءا الصوم ما لم يضرَّهما .

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: أُحِيلَ الصِّيَامُ ثَلاثَةَ أَحْوَالٍ: قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَجَعَلَ يَصُومُ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ـ وَقَالَ يَزِيدُ فَصَامَ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ رَبِيعِ الأَوَّلِ إِلَى رَمَضَانَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ وَصَامَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ

---

(١) تفسير السعدي (١/٢٢١).
(٢) في ظلال القرآن (١/٢٣٩).

ـ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ عَلَيْهِ الصِّيَامَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ قَالَ فَكَانَ مَنْ شَاءَ صَامَ وَمَنْ شَاءَ أَطْعَمَ مِسْكِينًا فَأَجْزَأَ ذَلِكَ عَنْهُ. قَالَ : ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ الآيَةَ الأُخْرَى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ قَالَ فَأَثْبَتَ اللَّهُ صِيَامَهُ عَلَى الْمُقِيمِ الصَّحِيحِ وَرَخَّصَ فِيهِ لِلْمَرِيضِ وَالْمُسَافِرِ وَثَبَّتَ الإِطْعَامَ لِلْكَبِيرِ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الصِّيَامَ، فَهَذَانِ حَوْلاَنِ، قَالَ وَكَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَأْتُونَ النِّسَاءَ مَا لَمْ يَنَامُوا فَإِذَا نَامُوا امْتَنَعُوا، قَالَ: ثُمَّ إِنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ صِرْمَةُ ظَلَّ يَعْمَلُ صَائِمًا حَتَّى أَمْسَى فَجَاءَ إِلَى أَهْلِهِ فَصَلَّى الْعِشَاءَ ثُمَّ نَامَ فَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ حَتَّى أَصْبَحَ فَأَصْبَحَ صَائِمًا، قَالَ فَرَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ جَهِدَ جَهْدًا شَدِيدًا قَالَ: مَا لِي أَرَاكَ قَدْ جَهِدْتَ جَهْدًا شَدِيدًا؟ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي عَمِلْتُ أَمْسِ فَجِئْتُ حِينَ جِئْتُ فَأَلْقَيْتُ نَفْسِي فَنِمْتُ وَأَصْبَحْتُ حِينَ أَصْبَحْتُ صَائِمًا. قَالَ: وَكَانَ عُمَرُ قَدْ أَصَابَ مِنَ النِّسَاءِ مِنْ جَارِيَةٍ أَوْ مِنْ حُرَّةٍ بَعْدَ مَا نَامَ وَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ وَقَالَ يَزِيدُ فَصَامَ تِسْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ رَبِيعِ الأَوَّلِ إِلَى رَمَضَانَ»(١).

وكما رغَّب اللهُ تعالى عبادَه في الصوم رغَّب فيه النبيُّ ﷺ وحثّهم عليه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٢).

---

(١) صحيح :[ص.د:٥٠٧]، د(٥٠٣/١٩٦-٢/٢٠٠)، حم(٢٣٩/٣١-٩/٢٤٤).

(٢) متفق عليه :خ(١٩٠١/١١٥/٤)، م(٧٦٠/٥٢٣/١)، جه(١٦٤١/٥٢٦/١)، ن(٤/١٥٧).

وَعَنْ سَهْلٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ يُقَالُ أَيْنَ الصَّائِمُونَ فَيَقُومُونَ لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ[(١)]،

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ اللَّهُ: « كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ»[(٢)]،

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ الصِّيَامُ أَيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ وَيَقُولُ الْقُرْآنُ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ قَالَ فَيُشَفَّعَانِ»[(٣)]،

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»[(٤)].

* * *

(١) متفق عليه : خ(٤/١١١/١٨٩٦) وهذا لفظه، م(٢/٨٠٨/١١٥٢)، ت(٢/١٣٢/٧٦٢)، جه(١/٥٢٥/١٦٤٠)، ن(٤/١٦٨) بنحوه عند الثلاثة مع زيادة .

(٢) متفق عليه : خ(٤/١١٨/١٩٠٤)، م(١١٥١-١٦٣-/٢/٨٠٧)، ن(٤/١٦٣).

(٣) حسن صحيح : [ص.غ:٩٨٤] ، حم(٩/٢١٦/١١) ، ك (١/٥٥٤)

(٤) خ (٦/١١/٢٧٩٠).

فقه الصيام

أجمع العلماءُ على أَنَّ الصومَ واجبٌ على كُلِّ مسلمٍ بالغٍ عاقلٍ، صحيحٍ مقيم، ويُشترط في حَقِّ المرأة أن تكون طاهراً من الحيض والنفاس، فلا يجب الصوم على الصبيِّ والمجنون لقولِ النبيِّ ﷺ : «**رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاثَةٍ عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَشِبَّ وَعَنِ الْمَعْتُوهِ حَتَّى يَعْقِلَ**»(١)، لكن يستحب لأم الصبي أن تُعوِّدَه عليه متى أطاقه اقتداءً بنساء الصحابة:

عَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذِ بْنِ عَفْرَاءَ قَالَتْ: «أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَدَاةَ عَاشُورَاءَ إِلَى قُرَى الأَنْصَارِ الَّتِي حَوْلَ الْمَدِينَةِ مَنْ كَانَ أَصْبَحَ صَائِمًا فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ وَمَنْ كَانَ أَصْبَحَ مُفْطِرًا فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ فَكُنَّا بَعْدَ ذَلِكَ نَصُومُهُ وَنُصَوِّمُ صِبْيَانَنَا الصِّغَارَ مِنْهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَنَذْهَبُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَنَجْعَلُ لَهُمُ اللُّعْبَةَ مِنَ الْعِهْنِ فَإِذَا بَكَى أَحَدُهُمْ عَلَى الطَّعَامِ أَعْطَيْنَاهَا إِيَّاهُ عِنْدَ الإِفْطَارِ»(٢).

ولا يجب الصومُ على المريض والمسافر لقوله تعالى: ﴿**فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**(١٨٤)﴾[البقرة]، فإن صام المريضُ والمسافرُ أجزأهما، لأن إباحة الفطر لهما رخصة، فإن أخذا بالعزيمة فلا حرج،

لكن أيُّهما أفضل الفطرُ أم الصوم؟ الجواب:إن لم يجدا مشقةً فالصومُ أفضل، وإن وجدا مشقةً فالفطر أفضل:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: "كُنَّا نُسَافِرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمِنَّا الصَّائِمُ وَمِنَّا

---

(١) صحيح[ص.ت:١٤٢٣]، ت(١٤٤٦/٢/٣٣٨)، جه(٢٠٤٢/٦٥٩/١)، د(٤٣٨٠/٧٨/١٢).

(٢) متفق عليه: خ(١٩٦٠/٢٠٠/٤)، م(١١٣٦/٧٩٨و٧٩٩/٢).

الْمُفْطِرُ فَلاَيَجِدُ الْمُفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ وَلاَ الصَّائِمُ عَلَى الْمُفْطِرِ فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مَنْ وَجَدَ قُوَّةً فَصَامَ فَحَسَنٌ وَمَنْ وَجَدَ ضَعْفًا فَأَفْطَرَ فَحَسَنٌ»(١)،

ولا يجوز لهما الصوم مع المشقة التي تضرُّ بهما:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِي اللَّهُ عَنْهما قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَرَأَى رَجُلاً قَد اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَقَدْ ظُلِّلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: مَا لَهُ؟ قَالُوا: رَجُلٌ صَائِمٌ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ أَنْ تَصُومُوا فِي السَّفَرِ»(٢)،

وكذلك المريض ليس له أن يصوم إذا كان الصوم يشق عليه أو يزيد مرضه أو يتسبب في تأخير برئه. فقد قال الله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**(١٨٥)﴾ [البقرة]، وكرر ذكر الرخصة للمريض والمسافر مرتين ﴿**فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**(١٨٤)﴾ [البقرة].

وأما الحائض والنُّفساء فإنَّ الصَّومَ عليهما حرامٌ حتى يطهرا:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ: « يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ قُلْنَ: بَلَى قَالَ: فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ قُلْنَ بَلَى قَالَ فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا(٣)،

---

(١) م(١١١٦-٩٦-/٢/٧٨٧)، ت(٧٠٨/١٠٨/٢).

(٢) متفق عليه :خ(١٩٤٦/١٨٣/٤)، م(١١١٥/٧٨٦/٢)، د(٢٣٩٠/٤٤/٧).

(٣) خ(٣٠٤/٤٠٥/١).

فإن صامت الحائضُ والنُّفساء لم يجزئهما ولزمهما القضاء :

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "كُنَّا نَحِيضُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ نَطْهُرُ فَيَأْمُرُنَا بِقَضَاءِ الصِّيَامِ وَلاَ يَأْمُرُنَا بِقَضَاءِ الصَّلاَةِ "[(١)]

أمَّا الشيخُ الكبير والمرأةُ العجوز اللذان لا يُطيقان الصومَ فعليهما الفديةُ وهي إطعامُ مسكينٍ عن كُلِّ يوم لقوله تعالى: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ**[(١٨٤)]﴾ [البقرة]، **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: " لَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ هُوَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْمَرْأَةُ الْكَبِيرَةُ لاَ يَسْتَطِيعَانِ أَنْ يَصُومَا فَيُطْعِمَانِ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا**"[(٢)]، ومِثْلُهما الحاملُ والمُرْضِعُ إذا لم تطيقاً الصوم أو خافتا على ولدهما فلهما الفطر وعليهما الفدية ولا قضاء عليهما:

عن ابن عباس قال: " إذا خافت الحامل على نفسها، والمرضع على ولدها في رمضان قال: يفطران ويطعمان مكان كل يوم مسكيناً، ولا يقضيان صوماً"[(٣)]

وعن نافع قال: "كانت بنت لابن عمر تحت رجل من قريش، وكانت حاملاً فأصابها عطش في رمضان، فأمرها ابن عمر أن تفطر وتطعم عن كل يوم مسكيناً"[(٤)].

والإطعام الواجب مرةً واحدة فلو فَطَّر مسكيناً كلَّ يومٍ أجزأه عن الشهر،

---

(١) م(١/٢٦٥/٣٣٥)، ت(٢/١٤١/٧٨٤)، د(٢٥٩و٢٦٠/١٤٤/١)، ن(٤/١٩١).

(٢) خ(٨/١٧٩/٤٥٠٥).

(٣)صحيح : عزاه الألباني في الإرواء(٤/١٩) إلى الطبري(٢٧٥٨) وقال إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٤)صحيح الإسناد :[الإرواء:٤/٢٠]، قط(٢/٢٠٧/١٥).

ولو جمع ثلاثين مسكيناً على طعام مرةً واحدة أجزأه، ولو بعث بالطعام إلى أُسَرٍ تتكوَّنُ من ثلاثين فرداً أجزأه .

عن أنس بن مالك « أنَّه لمّا ضعف عن الصوم عاما فصنع جفنة ثريد ودعا ثلاثين فأشبعهم»(1).

وللصوم ركنان: الأول النِّيَّةُ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ(٥)﴾ [البينة]، ولقول النبي ﷺ : « **إِنَّمَا الْأَعْمَالُ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى** »(2) ولا بد من النية كلَّ ليلةٍ قبل الفجر لقوله ﷺ : **مَنْ لَمْ يُجْمِعِ الصِّيَامَ قَبْلَ الْفَجْرِ فَلاَ صِيَامَ**(3)، والنية محلُّها القلب ولا علاقة للسان بها ، فمن البدع قولُ بعض الناس عند الإفطار اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت وعلى صيام غدٍ نويت، النيَّةُ محلُّها القلب ويكفي أن تعلم أن غداً من رمضان، وتعزم على الصيام، وشراؤك الخبز للسحور أو اللبن ونحوَه هو نية، وضَبْطُكَ للمنبِّه للسحور هو نية، فلو غلبتك عينُك ولم تتسحَّر فقد نويت.

والركن الثاني: الإمساك عن المُفْطِرَاتِ من طلوع الفجر إلى غروب الشمس لقوله تعالى: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ**(١٨٧)﴾ [البقرة].

والمُفْطِرَاتُ ستٌّ: الأكلُ والشربُ عمداً، فإنْ أكلَ أو شَرِبَ ناسياً فلا قضاء عليه لقوله ﷺ : « **مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ**

---

(1) صحيح الإسناد : [الإرواء٤/٢١)]، قط(٢/٢٠٧/١٦).

(2) متفق عليه :خ(١/٩/١)، م(٣/١٥١٥/١٩٠٧)، د(٦/٢٨٤/٢١٨٦)، ت(٣/١٠٠/١٦٩٨)، جه(٢/١٤١٣/٤٢٢٧)، ن(١/٥٩).

(3) صحيح :[ص.ج:٦٥٣٨]،د(٧/١٢٢/٢٤٣٧)، ت(٢/١١٦/٧٢٦)، ن(٤/١٩٦) بنحوه.

اللَّهُ وَسَقَاهُ»(١) .

القيءُ العمد، فإن غلبه القيءُ فلا قضاء عليه لقوله ﷺ : «**مَنْ ذَرَعَهُ الْقَيْءُ فَلاَ قَضَاءَ عَلَيْهِ وَمَنِ اسْتَقَاءَ فَعَلَيْهِ الْقَضَاءُ**»(٢).

نزول الحيض والنفاس على المرأة في أيّ لحظةٍ من النهار ولو قبيل الغروب ، فمتى نزل الدم على المرأة فقد فسد صومُها وعليها القضاء.

الاستمناءُ عن المباشرة في اليقظة ، فمن استمنى فقد فسد صومُه، ومن احتلم بالنهار فلا شيء عليه .

ومن أفسد صومَه بواحدٍ من هذه الخمس فليس عليه إلاَّ القضاء، وأما من أفسد صومَه بجماعٍ فعليه القضاء والكفارة :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلَكْتُ قَالَ: مَا لَكَ قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا قَالَ: لاَ قَالَ: فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ قَالَ: لاَ فَقَالَ: فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا قَالَ: لاَ قَالَ: فَمَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ قَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ؟ فَقَالَ: أَنَا قَالَ: خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ فَقَالَ: الرَّجُلُ أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ لاَبَتَيْهَا يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ ثُمَّ قَالَ: أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ»(٣).

---

(١) متفق عليه :خ(١٩٢٣/١٥٥/٤)، م(١١٥٥/٨٠٩/٢) وهذا لفظه، جه(١٦٧٣/٥٣٥/١)، ت(٧١٧/١١٢/٢).

(٢) صحيح : [ص.ج:٦٢٤٣]، ت(٧١٦/١١١/٢)، د(٢٣٦٣/٦/٧)، جه(١٦٧٦/٥٣١/١).

(٣) متفق عليه : خ (١٩٣٦/ ١٦٣/ ٤) ، م (١١١١/ ٧٨١ /٢) ، د (٢٣٧٣ /٢٠ /٧) ، ت(٧٢٠/ ١١٣ /٢)، جه(١٦٧١/٥٣٤/١).

ويُستَحبُّ للصائم أن يُراعِيَ في صيامه هذه الآداب:

١- السحــور :

لقوله ﷺ : "**تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً**"(١)،

ويستحب تأخيره :

عَنْ أَنَسٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "تَسَحَّرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ قُلْتُ كَمْ كَانَ بَيْنَ الأَذَانِ وَالسَّحُورِ قَالَ: قَدْرُ خَمْسِينَ آيَةً" (٢)،

ويتحقق السحور بالشيء اليسير من الطعام والشراب لقوله ﷺ : "**نعم سحور المؤمن التمر**" وقوله ﷺ : "**تسحروا ولو بجرعة ماء**"(٣).

٢- الكفُّ عن اللَّغْوِ والرَّفثِ ونحوِهما مما يتنافى مع الصوم :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: عَنْ النَبِي ﷺ : " إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ يَوْمًا صَائِمًا فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَجْهَلْ فَإِنِ امْرُؤٌ شَاتَمَهُ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ إِنِّي صَائِمٌ"(٤)،

وعَنْهُ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ"(٥) .

---

(١) متفق عليه :خ(٤/١٣٩/١٩٢٣)،م(٢/٧٧٠/١٠٩٥)، ت(٢/١٠٦/٧٠٣)، ن(٤/١٤١)، جه (١/٥٤٠/١٦٩٣).

(٢) متفق عليه :خ(٤/١٣٨/١٩٢١)، م(٢/٧٧١/١٠٩٧)، ت(٢/١٠٤/٦٩٩)، ن(٤/١٤٣)، جه (١/٥٤٠/١٦٩٤).

(٣) صحيح :[ص.ج:٢٩٤٥]، حب(٢٢٣/٨٨٤).

(٤) م(١١٥١-١٦٣-/٢/٨٠٧)، ن(٤/١٦٣).

(٥) خ(٤/١١٦/١٩٠٣)، د(٦/٤٨٨/٢٣٤٥)، ت(٢/١٠٥/٧٠٢).

٣ - الجُودُ ومُدارَسة القرآن :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ وكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ وكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ"(١)،

٤- تَعْجِيلُ الفِطْرِ:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " لاَ يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ" (٢)، والتعجيل يكون بالأكل أو الشرب مما تيسَّر عند تَحَقُّقِ غروب الشمس، ثمَّ الصلاة، ثمَّ ينقلب إلى أهله فيأكل ما شاء :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُفْطِرُ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى رُطَبَاتٍ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ رُطَبَاتٌ فَتُمَيْرَاتٌ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تُمَيْرَاتٌ حَسَا حَسَوَاتٍ مِنْ مَاءٍ"(٣).

٥ - الاعتكاف في العشر الأخير من رمضان:

الاعتكاف سُنَّةٌ مستحبَّةٌ التماساً لليلة القدر، ولذلك ذكر اللهُ تعالى أحكامَ الاعتكاف ضمْنَ أركان الصيام فقال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ**(١٨٧)﴾ [البقرة]،

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُجَاوِرُ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ وَيَقُولُ تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ"(٤)،

---

(١) متفق عليه :خ(٦/٣٠/١)، م(٢٣٠٨/١٨٠٣/٤).

(٢) متفق عليه :خ(١٩٥٧/١٩٨/٤)، م(١٠٩٨/٧٧١/٢)، ت(٦٥٩/١٠٢/٢).

(٣) حسن صحيح :[ص.د:٢٠٦٥]، د(٢٣٣٩/٤٨١/٦)، ت(٦٩٢/١٠٢/٢).

(٤) خ(٢٠٢٠/٢٥٩/٤)، ت(٧٨٩/١٤٤/٢).

ولا يكون الاعتكاف إلاَّ في المساجد لقوله تعالى: ﴿فِي الْمَسَاجِدِ﴾ فلا يصح الاعتكاف في البيوت مثلاً، والمقصودُ من الاعتكاف الانقطاعُ للعبادة والتفرُّغُ لذكر الله ، لذلك يكره للمعتكف الاختلاط بالمعتكفين والسَّمرُ معهم والحديث، ويُسْتَحَبُّ له أن يَشغلَ نفسَه بما انقطع له من الصلاة والقراءة والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاستغفار والصلاةِ على النبي ﷺ والدعاء ، ومذاكرة العلم ونحو ذلك مما ينفعه .

ولا يجوز الخروج من المعتكف إلاَّ لما لا بُدَّ منه، ويبطل الاعتكاف بالخروج لعدم الحاجة وبمباشرة المرأة .

* * *

وقفات مع آيات الصيام

الوقفة الأولى: شُكْرُ اللهِ على نِعْمَةِ الهداية

قال تعالى: ﴿**وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**(١٨٥)﴾ [البقرة].

لمَّا ذكر اللهُ تعالى أحكامَ الصيام وفقْهَه، وعَزائمَه ورُخَصَه، أمر عبادَه إذا أكملوا عِدَّةَ الشَّهرِ وأتمُّوا صيامَه أن يكبِّروه شُكراً على ما هداهم إليه من الصيام وغيره من الطاعات، وكذلك أمرهم إذا قَضَوا مَناسكَهم فقال تعالى: ﴿**فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ** (١٩٨) **ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** (١٩٩) **فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**(٢٠٠)﴾ [البقرة]، وقال في الهدْيِ: ﴿**وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (٣٦) **لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ**(٣٧)﴾ [الحج]، وهكذا أمر اللهُ تعالى مَنْ هَدى مِنْ عبادهَ أن يشكروه على ما هداهم، لأنَّه أعطاهم ما لم يُعْط غيرَهم، وفَضَّلهم واختصهم، كما قال تعالى: ﴿**فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**(٢١٣)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**(١٤٢)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ**

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ(١٠٥)﴾ [البقرة]. والمراد بهذه الهداية التي أمر اللهُ المهتدين بشكرها هدايةُ التَّوفيق التي معناها خَلْقُ قُدْرةِ الطاعة، لأنَّ الهداية أنواع :

هدايةٌ عامة: وهي هدايةُ المخلوقات كُلِّها لما هي ميسَّرةٌ له كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى(٣)﴾[الأعلى].

وهدايةُ البيان والدِّلالةِ والإرشاد:

والمراد بها دلالةُ الإنسان على طريق الخير والشر، وتعريفُه الحقَّ والباطل ، والهُدى والضَّلال، والغيَّ والرَّشاد كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(١٠)﴾ [البلد]،وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(٣)﴾ [الإنسان]، ولهذه الهداية بعث اللهُ الرُّسلَ وأنزل الكُتُبَ فقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(٧)﴾[الرعد]، وقال في حَقِّ الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا(٧٣)﴾ [الأنبياء]، وقال في حَقِّ القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ(٩)﴾ [الإسراء]، وقال في حَقِّ التوراة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ(٥٤)﴾ [غافر]، وقال تعالى:﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ(٤٤)﴾ [المائدة]، وقال في حَقِّ الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ(٤٦)﴾ [المائدة].

والنوع الثالث هدايةُ التَّوفيق:

وهو خَلْقُ قُدرَةِ الطَّاعةِ والإعانةُ على الاستجابة وهذه هداية خاصة ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(١٦)﴾ [المائدة] وهذه الهداية لا يملكها إلاَّ اللهُ

وحده ولذلك كانت من دلائل الألوهية كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى(٥٠)﴾[طـه]، وقال الخليل إبراهيم: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(٧٨)﴾[الشعراء]، وأمر خليله محمداً ﷺ أن يُقيم الحُجَّة على المشركين بقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(٣٥)﴾ [يونس] فالتَّوفيقُ للطَّاعة والإعانةُ عليها لا يملكه إلاَّ اللهُ ولذلك قال الله تعالى لنبيِّه : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ(٢٧٢)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(٥٦)﴾ [القصص]، مع أنَّ اللهَ تعالى قال له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٥٢)﴾ [الشورى]، فَعُلِمَ أنَّ الهدايةَ الثانية المثبَتَة غيرُ الهداية المنفيَّة عنه، فالمثبتةُ هي هدايةُ البيان والدلالة والإرشاد التي تَتِمُّ عن طريق الدَّعوة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٧٣)﴾[المؤمنون]، أما التوفيق لقبول الدعوة والانتفاع بهدايتها فذلك لله وحده دون غيره، ولذلك أمرهم أن يستهدوه فقال في الحديث القدسي: "**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**"(١).

والإنسانُ محتاجٌ إلى الهداية أشدُّ من حاجته إلى الطعام والشراب، لأنَّه لو فقد الطعام والشراب فمات وكان من المهتدين دخل جنَّاتِ النعيم ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ(١٥)﴾[محمد]، أمَّا إذا فقد الهدايةَ فقد شَقِيَ في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي

---

(١) م(٢٥٧٧/١٩٩٤/٤).

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ(٣٤)﴾[الرعد].

ومعنى ذلك أَنَّ الهداية إلى الحقِّ والرَّشاد خيرٌ من الدنيا وما فيها ، فمن هُدي إلى صراط الله المستقيم فقد أُوتي خيراً كثيراً ووجب عليه أن يفرح بما أُوتي كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا(٥٨)﴾[يونس]، "وقد تنوَّعت عباراتُ السَّلف في تفسير الفضل والرحمة والصحيحُ أَنَّهما الهُدى والنعمة ، فَضْلُه هداه ورحمتُه نعمتُه"[1] ووجب على من هُدي إلى صراط مستقيم أن يشكر الهادي كما أمر سبحانه، فإِنَّ الشكر من موجبات الزيادة كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ(٧)﴾ [إبراهيم]،

وقد اختلفت عباراتُ العلماء في معنى الشُّكر وخُلاصة القول:

أَنَّ الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، فأمَّا الشُّكرُ بالقلب فهو الاعتقادُ والاعتراف، والمحبَّة والانقياد والخضوع ، بمعنى أن يكون القلبُ معتقداً ومعترفاً بأنَّ ما بالعبد من نعمة فمن الله وحده لا شريك له ، لذلك يُحبُّ المُنْعِمَ مَحَبَّةً تستلزم الخضوعَ والانقيادَ والتسليمَ لأمره .

وأمَّا شكر اللسان فيكون بالاعتراف بالنعم والتَّحدُّثِ بها والثناءِ على الله من أجلها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾ [الضحى]، وقال ﷺ : "**التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر**"[2] ، وأن يكثر العبد من قول: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ(٤٣)**﴾ [الأعراف]،

وأَمَّا الشكر بالجوارح فهو: أن يُسَخِّرَها في طاعة الله وينهاها عن معصيته فيكون نظرُه في آيات الله المنظورة والمقروءة، وسَمْعُهُ لآيات الله

---

(١) الفوائد لابن القيم (١٣٣).

(٢) حسن :[ص.ج:٣٠١١] .

المسطورة والمكتوبة، ويدُه في الخير ممدودةٌ وعن الشَّرِّ مقصورة، ورِجْلُه إلى الخير تسعى وهكذا، وعلى العبد أن يستعين بالله على شكره، كما أثنى الله تعالى بذلك على سليمان فقال: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾ [النمل]، وقال عن الإنسان: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥)﴾ [الأحقاف]،

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: " يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ فَقَالَ: أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لاَ تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ"(١).

وقد جرتْ سُنَّةُ الله تعالى بجعل قَبُولِ هدايةِ الأنبياء سبباً لهدايـة التوفيق فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ (٩)﴾ [يونس]، فلمَّا سمعوا دعوةَ الرسول إلى الإيمان فآمنوا هداهم اللهُ ووفَّقهم وشرح صدورَهم للإسلام وحبَّب إليهم الإيمان وزيَّنه في قلوبهم وكرَّه إليهم الكُفْرَ والفُسوقَ والعِصيان وجعلهم من الراشدين، ولذلك قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾[محمد]، وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى (٧٦)﴾ [مريم]

وأَمَّا الذين سمعوا الهدى وصَمُّوا آذانهم وعاندوا واستكبروا فإنَّ الله يُعاقِبُهم بالحرمان من الانتفاع بما سَمِعُوا من الهدى قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا

---

(١) صحيح: [ص.ج:٧٨٤٦]، حم(٤/٥٤/٧٧٤)، د(٤/٣٨٤/١٥٠٨)، ن(٣/٥٣).

أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ(١٦)﴾[محمد]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ(٥٤)﴾[النور]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾ [الأعراف]،

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاَءِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ فَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى وَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى وَلَعَمْرِي لَوْ أَنَّ كُلَّكُمْ صَلَّى فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ وَلَقَدْ رَأَيْتُ الرَّجُلَ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الصَّفِّ وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ فَيَعْمِدُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيُصَلِّي فِيهِ فَمَا يَخْطُو خَطْوَةً إِلاَّ رَفَعَ اللَّهُ لَهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً»(١).

فيا أيها الرَّاغبُ في الهداية الحريصُ عليها احرص على السُّنَّةِ واستمسك بها، فكلما فعلت سُنَّةً ازددت هدى، وكلما ازددتَ اتِّباعاً ازددت هدى، وعلى قدر ما تتركُ من السُّنَّة تنقص هدايتك، فأَهْدَى الناس سبيلاً هم أتباعُ النبي ﷺ المستمسكون بُسنَّته، وأضلُّ الناس سبيلاً هم أهلُ الأهواء والبدع قال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥٠)﴾[القصص].

فمن قامت عليه الحُجَّةُ بهداية البيان والدلالة والإرشاد فآمن زاده الله هدى، ومن بلغته الدعوةُ فعاند أضلَّه الله وختم على قلبه كما قال الله تعالى:

---

(١) م(٦٥٤-٢٥٧-/٤٥٣/١)، د(٥٤٦/٢٥٤/٢)، جه(٧٧٧/٢٥٥/١)، ن(١٠٨/٢).

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(١٠)﴾[الأحقاف]، وقال تعالى: ﴿يَابَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٥)﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى(١٢٧)﴾[طه]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٥)﴾ [الصف]، وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١١٠)﴾ [الأنعام]،و قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ(١٦)﴾ [محمد]، ولذلك قال مؤمنوا الجن بعد أن هداهم الله: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ(٣٠)﴾[الأحقاف].

فمن أجاب محمداً ﷺ فقد اهتدى، ومن أعرض عنه فقد ضَلَّ وغوى، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ(٣٢)﴾ [الأحقاف].

كما جرت سُنَّتُه تعالى بجعل أعمال البرِّ سبباً للهداية وجَعْلِ أعمال الفُجور سبباً للضلالة قال تعالى: ﴿ الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)الَّذِينَ

يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(٢٦)﴾ [البقرة].

فيا أيها الرَّاغبُ في النَّجاة الحريصُ على للهداية جاهد نفسَك على فعل الخير وأعمال البِّر التي جعلها اللهُ سبباً الهداية فإِنَّ الله تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(٦٩)﴾ [العنكبوت]، واعلم أَنَّ الله غَنِيٌّ عن العالمين ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ(٦)﴾ [العنكبوت]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥)ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(٦)﴾[التغابن].

وَفِرَّ إلى الله تعالى بالدُّعاء وأَلِحَّ عليه في السؤال: "**اللهم اهدني فيمن هديت**"(١)، "**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى**"(٢)، فإِنَّه من استهدى اللهَ هداه، واعلم أَنَّ حاجتك إلى الهداية شديدةٌ وما لم يحصل لك منها أضعاف أضعافُ ما حَصَّلتَ فأنت بحاجة دائماً إلى سؤال الله الهداية، ولذلك فرض اللهُ على من هداهم للصلاة أن يسألوه في كل ركعة الهدى وعلَّمهم أن يقرءوا في الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(٦)﴾ [الفاتحة]،وليس المرادَ ثَبِّتْنا ولكنه اهدنا لما لم نهتد إليه بعد ، فإِنَّ درجات الهداية متباينة ، وكلما انتهى الإنسانُ إلى درجةٍ كانت فوقها درجات .

---

(١) صحيح:[ص.د:١٢٦٣]،د(٤/٣٠٠/١٤١٢)،ت(١/٢٨٩/٤٦٣)،ن(٣/٢٤٨)، جه(١/٣٧٢/١١٧٨).
(٢) م(٤/٢٠٨٧/٢٧٢١)، ت(٥/١٨٤/٣٥٥٥).

الوقفة الثانية
فضـــل الدعـــاء وآدابـــه

قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الـــدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(١٨٦)** ﴾ [البقرة]

"قال الرَّاغب: هذه الآيةُ تمامُ الآيةِ التي قبلها لأَنَّه لمَّا حثَّ على تكبيـــرِه وشُكرِه على ما قيَّضه لهم من تمام الصَّوم بيّن أنَّ الذي يذكُرونَـــه ويشـــكُرونَه قريبٌ منهم ومُجيبٌ لهم إذا دَعَوْه، ثمَّ تَمَّم ما بَقِيَ من أحكام الصوم"(١)،

وقال ابن كثير: "وفي ذكره تعالى هذه الآيةَ الباعثةَ على الدُّعاء مُتَخَلِّلَـــةً بين أحكام الصيام إرشادٌ إلى الاجتهادِ في الدُّعاء عند إكمال العِدَّة. بل وعندَ كُلِّ فِطرٍ، ولذلك جاء في الحديث :

عَنْ أَبِي هُرَيرة قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ : "ثلاثُ دعَـــواتٍ مُســـتجَابات: دعوةُ الصَّائمِ، ودَعوةُ المَظلومِ، ودعوةُ المُسَافرِ"(٢).

وعَنْ أَنسٍ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: "ثلاثُ دعَواتٍ لا تُردُ: دعَوةُ الوالـــدِ لولَدِه، ودعَوةُ الصَّائمِ، ودعَوةُ المسافرِ"(٣) "(٤).

والدُّعاء معناه: "طَلَب ما ينفع مِنْ جَلْبِ نفعٍ أَوْ كَشْفِ ضُرٍّ "(٥)، ولا يملك

---

(١) محاسن التأويل(٣/٩١).

(٢) صحيح :[ص.ج:٣٠٢٧].

(٣) حسن :[ص.ج:٣٠٢٩].

(٤) تفسير ابن كثير (١/٢١٩).

(٥) فتح المجيد (٢٢٣).

ذلك إلاَّ الله كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢)﴾[فاطر]،

وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٧)﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٠٧)﴾ [يونس]، ولذلك نهى الله تعالى عن دُعاء غيره فقال : ﴿وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ(١٠٦)﴾ [يونس]، وأنكر الأنبياءُ على مشركي أُمَمِهمْ دُعاءَهم غيرَ الله مع عَجْزِهم عن جلب النَّفْعِ لهم أو كَشْفِ الضُّرَّ عنهم فقال الخليلُ إبراهيمُ لقومه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ(٧٧)﴾ [الشعراء]، و ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٦٧)﴾[الأنبياء].

وأمر الله تعالى الخليلَ محمداً ﷺ أن يقول لقومه: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٧٦)﴾ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ(٧١)﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ(٣٨)﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ(٤١)﴾ [الأنعام].

ولقد كان المشركون يعلمون علْمَ اليقين أنَّه لا يكشفُ السُّوءَ إلاَّ الله، ولا ينفع في الشدائد إلاَّ الله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ(٦٥)﴾ [العنكبوت]، فنهاهم عن دُعاء غيره فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(١٩٤)﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً(٥٦)﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ(١٤)﴾ [الرعد]، وقال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(١٤)﴾ [فاطر]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ(٦)﴾ [الأحقاف].

فلاَ تطلُب الحَوائجَ من غير الله ﴿وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ(١٠٦)﴾ [يونس]: أيّ الكافرين المشركين " إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ "(١)، لا تسأل مَلَكاً مُقرَّباً ولا نَبيًّا مُرْسَلاً ولا تدع وليًّا صالحاً، فكل هؤلاء عبادٌ لله لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نُشوراً، ومن باب أولى لا يملكون ذلك لغيرهم ، وبهذا صرَّح الأنبياءُ لأقوامهم، فقال نوحٌ عليه السلام لقومه: ﴿وَلاَ يَنْفَعُكُمْ

(١) صحيح :[ص.ت:٢٥١٦]، ت(٤/٧٦/٢٦٣٥)، حم(١/٢٦/١٢)، ك(٥٤١و٥٤٢/٣).

نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ(٣٤)﴾[هود]، وقال محمدٌ ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَدًا(٢١)﴾[الجن]، وقال: ﴿قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ(١٨٨)﴾[الأعراف]، ولمَّا قالوا له: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً(٩٣)﴾[الإسراء].

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ(١٤)﴾[غافر]، ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ(٣٢)﴾[النساء]، "**فمن لم يسأل الله يغضب عليه**"، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ(٦٠)﴾[غافر]، وقد رغَّبكم ربُّكم في الدُّعاء بالإخبار بقُربه منكم فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ(١٨٦)﴾[البقرة]، ولا تتخذوا واسطةً في دعائه فقد لغاها فيما بينه وبينكم فتولَّى بنفسه الإجابة فقال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ولم يقل فقل إني قريب، ثمَّ زاد في ترغيبكم بقوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ(١٨٦)﴾[البقرة]، ولم يقل أسمع دعوة الدَّاعِ إذا دعانِ، فمن أُلْهِمَ منكم الدُّعاءَ فإنَّ الإجابةَ معه كما كان عمر يقول: إنِّي لا أحمل همَّ الإجابة ولكن أحمل همَّ الدعاء فإذا أُلْهِمتُ الدُّعاء فإنَّ الإجابة معه لأنَّ الله يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

واعلموا أَنَّ إجابة الدعاء لابُدَّ لها من شروط في الداعي وفي الدعاء وفي الشيء المدعو به:

"فمن شروط الداعي: أن يكون عَالِماً بأنَّه لا قادرَ على حاجته إلاَّ الله،

وأنَّ الوَسائط في قَبضته ومُسخَّرةٌ بتسخيره، وأن يَدْعُوَ بنيَّةٍ صادقةٍ وحضور قلب، فإنَّ الله لا يستجيبُ دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ، وأن يكون مجتنباً لأكل الحرام، وأن لا يملَّ من الدعاء .

ومن شروط المدعو فيه: أن يكون من الأمور الجائزة بالطلب والفعل شرعاً لأَنَّ النبي ﷺ قال : " **لاَ يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ** "(١)، ويدخل في الإثم كُلُّ ما يأثم به من الذنوب ، ويدخل في الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم .

وقال سهلُ بنُ عبد الله التّسترِيّ: شروطُ الدُّعاء سبعة :

التَّضرعُ والخوفُ والرَّجاء والمداومةُ والخشوعُ وأكلُ الحلال

وقال عطاء: إنَّ للدعاء أركاناً وأجنحة وأسباباً وأوقاتاً، فإن وافق أركانه قَوِيَ، وإن وافق أجنحتَه طار في السماء، وإن وافق مواقيتَه فاز، وإن وافق أسبابَه أنجح، فأركانُه حضورُ القلب والرأفةُ والاستكانة والخشوع، وأجنحتُه الصدق، ومواقيتُه الأسحار، وأسبابُه الصلاةُ على النبي ﷺ .

وقيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يُستجاب لنا؟ قال: لأنكم عرفتم اللهَ فلم تطيعوه، وعرفتم الرسولَ فلم تتبعوه، وعرفتم الفرقانَ فلم تعملوا به، وأكلتم نعمةَ الله فلم تؤدُّوا شكرَها، وعرفتم الجنَّة فلم تطلبوها، وعرفتم النَّارَ فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطانَ فلم تحاربوه ووافقتموه، وعرفتم الموتَ فلم تستعدُّوا له،ودفنتم الأمواتَ فلم تعتبرُوا،وتركتمَ عيوبَكم واشتغلتم بعيوب الناس»(٢)

ومن أعظم أسباب الإجابة تحرِّي الأوقاتَ والأحوالَ الشريفة، ومن

---

(١) م(٢٧٣٥-٩٢-/٢٠٩٥/٤).

(٢) تفسير القرطبي(٣١١و٢/٣١٢).

الأوقات الشريفة : شهرُ رمضان ويومُ عرفة ويومُ الجمعة وعند نزول المطر ووقتُ السحر.

ومن الأحوال الشريفة: حال انتظار الصلاة، وأن يسأل الله باسمه الأعظم " **الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ** "(١) ، وقد اختلف العلماء فيه: والراجح أنه ﴿**الْحَيُّ الْقَيُّومُ**(٢)﴾ [آل عمران] فعلى الداعي أن يكثر من قول يا حيُّ يا قيُّوم، وقيل اسمُ الله الأعظم أن يقول العبد: " **اللهم إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**"(٢)، وقال ﷺ : " **أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ**"(٣).

وفي ذكر هذه الآية عقب ﴿**وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ**(١٨٥)﴾ [البقرة] إشارةٌ إلى أدبٍ من آداب الدعاء وهو أن يبدأ الداعي بحمد الله والثناء عليه.

وفي قوله: ﴿**فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي**﴾ إشارةٌ إلى أنَّ من أعظم أسباب إجابة الرَّبِّ إجابةَ العبد الرَّبَّ، فإنَّ الرَّبَّ يجيبُ عبده إذا دعاه وهو غنيٌّ عنه ، والعبد لا يجيب مولاه وهو فقيرٌ إليه.

وفي قوله: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ إشارةٌ إلى أَنَّ المؤمنين هم الراشدون كما قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**(٧)﴾ [الحجرات] فَفُهِمَ من ذلك أَنَّ الكافرين ضَالُّون كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ**(٥)﴾ [الأحقاف].

والراشد والرشيد هو العاقل الكيِّس الفطن الحَسَنُ التَّصرُّف الذي اهتدى

---

(١)صحيح :[ص.د:٨٦٩]، د(٣/٢٧٥/٩٧٠)، ن(٣/٥٢).

(٢)صحيح :[ص.د:١٣٢٦]، د(٤/٣٦٢/١٤٧٩)، ت(٥/١٧٨/٣٥٤٢)، ن(٣/٥٢).

(٣)صحيح :[ص.ت:٣٥٢٥]، ت(٥/٢٠١/٣٥٩٣).

إلى طريق الخير والرشاد في دينه ودنياه، وضده السفيه قال تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا(٥)﴾[النساء] وقال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ(١٣)﴾ [البقرة]

ومن أسباب الإجابة سؤالُ الله القبولَ بعد الفراغ من العمل كما قال الخليلُ إبراهيمُ عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ(٤٠)﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٢٧)﴾[البقرة]،

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٣٥)﴾[آل عمران] .

* * *

الوقفة الثالثة
لا تقتربوا من حدود الله

قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا(١٨٧)﴾ [البقرة]

الحُدودُ جمعُ حَدٍّ: وهو الفصلُ بين الشيئين لئلا يختلط أحدُهما بالآخر، أو لئلا يتعدَّى أحدُهما على الآخر، وحَدُّ كُلِّ شيءٍ مُنتَهَاه الذي ينتهي إليه.

قال الأزهري: "حدودُ الله عزّ وجلّ ضَرْبان:

ضَرْبٌ منها حُدودٌ حدّها للناس في مطاعمهم ومشاربهم ومناكحهم وغيرِها مما أحلَّ وحرَّم وأمرَ بالانتهاء عما نهى عنه منها ونهى عن تعديها.

والضربُ الثاني: عقوباتٌ جُعِلَتْ لمن ركب ما نُهِيَ عنه كحَدِّ السارق والزاني والقاذف، وسميت حُدُوداً لأنها تَحُدُّ أي تمنع من إتيان ما جُعِلَتْ عُقوباتٍ فيها، وسُمِّيتِ الأولى حُدُوداً لأنها نِهاياتٌ عما نهى عنه اللهُ عن تعدِّيها"(١).

وقوله تعالى: " ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أيّ هذا الذي بيَّناه وفرَضناه وحدَّدناه من الصيام وأحكامه وما أَبَحْنَا فيه وما حرَّمنا وذكرنا غاياته ورُخَصَه وعَزائِمَه حدُودُ الله أيّ شرعَها الله وبينَها بنفسه فلا تقربوها أيّ لا تجاوزوها وتتعدوها"(٢)، "وشبَّه تلك الأحكامَ بالحدود الحاجزةِ بين الأشياء لكونُها حاجزةً بين الحقِّ والباطل فإنَّ مَن عَمِلَ بها كان في حيِّز الحق ومن خالفها وقع في الباطل، ونهى عن قربها كيلا يداني الباطل فضلاً أن يتخطى إليه، فالنَّهْيُ عن مكان القُرْب من الحدود التي هي الأحكام، كنايةٌ عن النهي عن قرب الباطل

---

(١) لسان العرب(٣/١٤٠).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٢٢٤).

لكون الأول لازماً للثاني»(١)،

"وقولــه تعالى: ﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا﴾ هو أبلغ في التحذير من قوله في آيــة أخرى ﴿فَلاَ تَعْتَدُوهَا(٢٢)﴾[البقرة] لأنه يُرْشِدُ إلى الاحتياط، فمن قَرُبَ من الحَـدِّ أوشك أن يتعداه، كالشَّاب يُداعِبُ امرأتَه في نهار رمضان يوشــك أن لا يملــك إربه فيقع في المباشرة المحرَّمة، أو يفسد صومه بــالإنزال، وكالمبالغــة فــي المضمضة للصائم، وتَعدّيه يتحققُ بالوقوع فيما بعده، فالنَّهْيُ عــن الأول يفيــد كراهتَه وشِدَّة تحريم ما بعده، ولم ينهنا الله في كتابه عن قرب الحدود إلاَّ في هذه الآية، وفي الزنا، وفي مال اليتيم»(٢)، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَــالَ الْيَتِــيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ(١٥٢)﴾[الأنعام]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً(٣٢)﴾[الإسراء]، لأَنَّ الزنا هو نهاية الحدِّ ومنتهــاه، يسبقه الاقترابُ من المرأة، ومصافحتُها، والكلامُ معها، ثمَّ الخلوةُ التي تفضي إلى الزنا فلذلك لم يقل لا تزنوا، وإِنَّما قال: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَــا﴾ ولــذلك أمــر اللهُ تعالى النِّساءَ بالقرار في البيوت فقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ(٣٣)﴾[الأحزاب]، ونهى عن دخول الرجال عليهنَّ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ(٥٣)﴾[الأحزاب]،

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: " إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ: رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ قَالَ: الْحَمْوُ الْمَوْتُ»(٣).

وَعَنْ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَخْطُبُ يَقُولُ: " لاَ يَخْلُــوَنَّ رَجُــلٌ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ "(٤).

---

(١) تفسير القاسمي(٣/١٢٤).

(٢) تفسير مختصر المنار(١/١٤٣).

(٣) متفق عليه:خ(٥٢٣٢/٩/٣٣٠)، م(٢١٧٢/٤/١٧١١)، ت(١١٨١/٣١٨/٢).

(٤) صحيح :[غاية المرام:١٨٠]، حم(٢٠٤/٧٦/١٦) .

ولمَّا أَذِنَ للنساء في الخُروج لقضاء حوائجهنَّ أمرهُنَّ بالحشمة والوقار، وأمر المؤمنين بغضٍّ أبصارهم فقال تعالى: ﴿**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**(٣٠) **وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَائِهِنَّ أَوْ ءَابَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**(٣١)﴾ [النور]، فظهر لنا من هذا البيان أنَّ « النَّهْيَ هنا عن القُرْبِ لتكون هناك منطقةُ أمانٍ، فمن حام حَوْلَ الحِمَى يوشك أن يقع فيه، والإنسانُ لا يملك نفَسه في كل وقتٍ فأَحْرَى بـه ألاَّ يُعَـرِّض إرادتَـه للامتحـان بـالقُرْب مـن المحظورات المشتهاة، اعتماداً على أنَّه يمنع نفسَه حين يريد،ولأَنَّ المجالَ مجالُ حذُودٍ للملاذِّ والشَّهوات كان الأمر﴿ **فَلاَ تَقْرَبُوهَا**﴾. والمقصود هـو المواقعـة لا القربُ . ولكنَّ التحذير على هذا النحو له إيحاؤه في التحرُّج والتقوى»[١]. فـإن من اقترب وقع :

عَنْ النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألاَ وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه»[٢].

---

(١) في ظلال القرآن (١/٢٥١).

(٢)متفـق عليـه :خ(١/١٢٦/٥٢)، م(٣/١٢١٩/١٥٩٩)، د(٩/١٧٧/٣٣١٣)، ت(٢/٣٤٠/١٢٢١)، ن(٧/٢٤١)، جه(٢/٢٣١٨/٣٩٨٤) .

والمراد بالمشتبهات ما يخفى على كثير من الناس حُكْمُـه، ولا يعرفون الحلالَ منه والحرام لاختلاف الآراء فيه وتعدُّدِها، والنبيُّ ﷺ يُرْشِدُ المسلمَ الذي يريد النجاةَ أن يتورَّع عن هذا الذي اشتبه عليه ويتركَه لله عزّ وجلّ، لأنَّـه لو كان حلالاً وتركه عوَّضه اللهُ خيراً منه وبذلك يسلم له دينُه وعِرْضُه، ولو كان حراماً وأتاه حاسَبه الله، وعرّض نفسه للطعن في دينه وعِرْضه، وكانت عاقبتُـهُ التجرؤ على الحرام البيِّن كما قال ﷺ : "**ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام**" ، وذلك " لأنَّ من لم يتَّقِ الله تعالى وتجرَّأ على الشبهات أفضت به إلى المحرمات بطريق اعتبار الجرأة، والتساهل في أمرها، فيحمله ذلك على الجرأة على الحرام المحض ولهذا قال بعض المتقدمين: الصغيرة تجرُّ إلى الكبيرة، والكبيرة تجر إلى الكفر"(١)، وقد ضرب النبيُّ ﷺ لذلك مثلاً محسوساً في واقع المخاطبين فقال: "**كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه**" ، وكان ملوك العرب يخصّون مواشِيَهم بمراعٍ مخصوصة يحوطونها ويتوعَّدون من يرعى فيها بغير إذنهم بالعقوبة الشديدة، فالخائفُ من العقوبة المراقـبُ لرضا المِلك يبعد عن ذلك الحِمَى خشيَة أن تقع مواشيه فيه، فَبُعْدُه أَسْلَمُ له، وغيرُ الخائفِ المراقبِ يقرُب منه ويرعى بجوانبه، فلا يأمن أن تنفرد الفاذَّةُ فتقع فيه بغير اختياره، أو يحل المكانُ الذي هو فيه ويقع الخصب في الحمى فلا يملك نفسه أن يقع فيه، فاللهُ سبحانه وتعالى هو المَلِكُ حقاً، وحِمَاه محارمُه، أيّ معاصيه التي حرَّمها كالقتل والزِّنا والسَّرقة والقذف والخمر والكذب والغيبة والنميمة وأكل المال بالباطل وأشباه ذلك، فكل هذا حِمَى الله تعالى، مَنْ دخلَه بارتكابه شيئاً من المعاصي استحقَّ العقوبةَ ومن قاربه يوشك أن يقع فيه، فمن احتاط لنفسه لم يقاربه ولا يتعلق بشيء يقربه من المعصية فلا يدخل في شيء

---

(١) المفهم (٤/٤٩٣).

من الشبهات»[١]، فمن فعل الحرام فقد انتهك الحمى، ومن تـرك الواجـب فقـد انتهك الحمى»[٢]، ولا يمكن للعبد أن يترك الحرام إلاَّ ببعده وعدم الاقتراب منه، فيترك المكروه خشية الوقوع في الحرام، ويترك المباح خشـية الوقـوع فـي المكروه :

وعلى ذلك ربّى النبيُّ ﷺ أصحابَه فكان المثلَ الأعلى لهم في الورع وترك الشبهات، ودعاهم إلى ذلك فاستجابوا له:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِـي اللَّـهُ عَنْهمَا تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَة فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ فَقَـالَ: النَّبِـيُّ ﷺ : "كِـخْ كِـخْ لِيَطْرَحَهَا ثُمَّ قَالَ: أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لاَ نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ»[٣]،

عَنْ أَنَسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِتَمْرَةٍ مَسْقُوطَةٍ فَقَالَ: " لَوْلاَ أَنْ تَكُونَ مِنْ صَدَقَةٍ لأَكَلْتُهَا »[٤]،

عَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : "دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ »[٥]، ومعناه اترك ما تَشُكُّ فيه وخُذْ ما لا تَشُكُّ فيه.

عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ أَوْ سَمِعْتُهُ مِنْهُ أَنَّهُ تَزَوَّجَ أُمَّ يَحْيَى بِنْتَ أَبِي إِهَابٍ قَالَ: فَجَـاءَتْ أَمَـةٌ سَـوْدَاءُ فَقَالَتْ: قَدْ أَرْضَعْتُكُمَا فَذَكَرْتُ ذَلِكَ ﷺ فَأَعْرَضَ عَنِّي قَالَ: فَتَنَحَّيْتُ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ

---

(١) شرح مسلم للنووي(١١/٢٨).

(٢) فتح الباري (١٢٦-١/١٢٨و ٤/٢٩١).

(٣)متفق عليه :خ(٣/٣٥٤/١٤٩١)، م(٢/٧٥١/١٠٦٩).

(٤)متفق عليه :خ(٤/٢٩٣/٢٠٥٥)، م(٢/٧٥١/١٠٧٠)، د(٥/٧٠/١٦٣٥).

(٥)صحيح :[ص.ت:٢٥١٨]، ت(٤/٧٧/٢٦٣٧)، ن(٨/٣٢٧).

قَالَ: "وَكَيْفَ وَقَدْ زَعَمَتْ أَنْ قَدْ أَرْضَعَتْكُمَا فَنَهَاهُ عَنْهَا"(١)،

عَنْ عَدِيٍّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُرْسِلُ كَلْبِي وَأُسَمِّي فَأَجِدُ مَعَهُ عَلَى الصَّيْدِ كَلْبًا آخَرَ لَمْ أُسَمِّ عَلَيْهِ وَلاَ أَدْرِي أَيُّهُمَا أَخَذَ قَالَ: "لاَ تَأْكُلْ إِنَّمَا سَمَّيْتَ عَلَى كَلْبِكَ وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى الآخَرِ"(٢)،

وعَنْ عَائشَةَ قالَتْ : "كَانَ لأَبى بَكرٍ غُلاَمٌ يَخْرُجُ لَهُ الخرَاجَ ، وكَانَ أَبُو بَكْرٍ يأْكُلُ مِنْ خرَاجِه، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَىءٍ فَأَكل منْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الغُلاَمُ : أَتدْرِى مَاهَذا ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : كُنْتُ تَكَّهَنْتُ لإِنْسَانٍ فى الجَاهِلِيَّة، وَمَا أُحْسِنُ الكِهَانَةَ ، إلاَّ أَنِّي خَدَعْتُه ، فَأَعْطَانِى بِذَلكَ ، فَهَذَا الَّذِى أَكَلْتَ مِنْه . فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ فقَاءَ كُلَّ شَىءٍ فِى بَطْنِه". (٣)

وهذا من شِدَّة وَرَعِه رضي الله عنه "ومعنى ذلك أَنَّ الأُجرَة على فعل الحرام حرام، فالكهانةُ حرام، وحُلوانُ الكاهن حرام، فلا يجوز للمسلم أن يُؤجِّرَ نفسه ممن يستعملُه في عملٍ حرام، ولا أن يُؤجِّرَ بيتَه ومَحلَّه ممن يستعمله في الحرام، فإنَّ ذلك داخل في التعاون على الإثم والعدوان وقد نهى اللهُ عنه"(٤)

وعَنْ نَافِعٍ – عَنْ ابْنِ عُمَرَ – عَنْ عُمَرَ بين الخطَّاب قَال : "كَانَ فَرضَ لِلْمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ أَرْبَعَةَ آلاَفٍ فِى أَرْبَعَةٍ ، وَفَرضَ لابْنِ عُمَرَ ثَلاَثَةَ آلاَفٍ وَخَمْسَمائةٍ . فَقِيلَ لَهُ : هُوَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، فَلِمَ نَقَصْتَهُ مِنْ أَرْبَعَةِ آلاَفٍ ؟ فقَال: إِنَّما هَاجَرَ بِهِ أبَوَاهُ . يَقُولُ : لَيْسَ هُوَ كَمَنْ هَاجَرَ بِنَفْسِه "(٥)

---

(١) خ(٢٦٥٩/٢٦٧/٥)، د(٣٥٨٦/١١/١٠)، ت(١١٦١/٣١٠/٢).

(٢)متفق عليه : خ(٥٤٧٦/٦٠٣/٩)، م(١٩٢٩-٣-/١٥٢٩/٣)، ن(١٨٣/٧).

(٣) خ (٣٨٤٢/١٤٩/٧) .

(٤) شرح رياض الصالحين (١٩١/٦).

(٥) خ (٣٩١٢/٢٥٣/٧) .

وهذا يدلُّ على شدَّةِ ورَعه رَضِيَ اللهُ عنه، «وهكذا يجب على من تولَّى شيئاً من أمور المسلمين ألا يُحابي قريباً لقرابته ولا غنياً لغناه، ولا فقيراً لفقره، بل يجب أن يُنْزِلَ كُلَّ أحدٍ منزلته، فهذا من الورع والعدل»(١).

وعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع».(٢)

فالورع من الإيمان، ولذلك أخرج البخاريُّ حديثَ الحلال والحرام في كتاب الإيمان وترجم له: بابُ فَضْل من استبرأ لدينه، قال الحافظُ ابن حجر: كأنَّه أراد أن يُبِّينَ أنَّ الورع من مُكمِّلاَت الإيمان، ولمَّا كان الإيمانُ يكملُ وينقص، ويقوى ويضعف كان الورعُ عُنوانَ كماله، وكان التجرُّؤ على الشُّبُهاتِ عُنوانَ نقصه، فاتقوا الله واجعلوا بينكم وبين الحرام حاجزاً من الحلال .

قال سُفيانُ بن عُيَيْنَة: لا يُصيبُ عبدُ حقيقةَ الإيمان حتى يجعلَ بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال، وحتى يدعَ الإثمَ وما تشابه منه.

وقال ابنُ عمر: إنِّي أُحِبُّ أن أدعَ بيني وبين الحرام سُتَرةً من الحلال لا أَخْرِقُها.

وقال أبو الدرداء: لا يكون العبدُ من المتَّقين حتى يترك بعضَ ما يرى أَنَّه حلالٌ خشيةَ أن يكون حراماً، حجاباً بينه وبين الحرام»(٣).

---

(١) شرح رياض الصالحين (٦/١٩٥).

(٢) صحيح: [ص.ج:٤٠٩٠]، بز(١٣٩/١/٨٥)، طس(٣٩٦٠/٤/٣٧٣)، ك(٩٣و١/٩٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (٦٤).

تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ »(١)، "فهذا يعم التَّركَ لما لا يعني من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائرِ الحركات الظاهرة والباطنة"(٢)، ومعنى ذلك أَنَّ الذين يقعون في أعراض الناس لا وَرَعَ عندهم، وأَنَّ الذين لا يغضُّون أبصارهَم عن عوراتِ الناس لا ورَع عندهم، وأَنَّ الذين لا يُكفُّون عن استماع الحرام لا ورَع عندهم، وأَنَّ الذين لا ينتهون عن مُصافحةِ النساء لا ورع عندهم، والورَعُ من الدين، وأهلُه هم أعبدُ الناس لربِّ العالمين كما قال سَيِّدُ الأَوَّلين والآخرين: "**كن وَرِعاً تكن أعبدَ الناس**»(3).

* * *

---

(1) صحيح : [ص.ت:٢٣١٧]، ت(٣/٣٨٢/٢٤٢٠)، جه(٢/١٣١٥/٣٩٧٦).

(2) تهذيب مدارج السالكين(٢٩٠).

(3) صحيح : [ص. جه: ٣٣٩٨] ، جه(٢/١٤١٠/٤٢١٧) .

نشأة البيت الحرام وفضائله

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ
لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ
مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ
أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ
وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا
مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [البقرة]

قال الرازي –رحمه الله-:

"أعلم أَنَّه سُبحانه وتعالى لمَّا استقصى في وجوه نِعَمِه على بني إسرائيل ثمَّ شَرَح قبائِحَهم في أديانهم وأعمالهم شرعَ سبحانه ههنا في نوعٍ آخرَ من البيان وهو أَنْ ذكرَ قِصَّةَ إبراهيمَ عليه السلام وكيفية أحواله، والحكمة فيه أنَّ إبـراهيمَ عليه السلام شخصٌ تعترف بفضله جميعُ الطوائف والمِلَل، فالمشـركون كـانوا معترفين بفضله متشرّفين بِأَنَّهم من أولاده ومن ساكني حرمه وخـادمي بيتـه، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا أيضاً مقرِّين بفضله متشرِّفين بِأَنَّهم من أولاده، فحكى اللهُ سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام أموراً توجـب علـى المشركين واليهود والنصارى قبولَ قول محمد ﷺ والاعترافَ بدينـه والانقيـادَ

لشرعه، وبيانُ ذلك من وجوه :

١- أَنَّه تعالى لَمَّا أمره ببعض التكاليف وَفَّى بها فأكرمه اللهُ تعالى بالنُّبوة والإمامة، وهذا مما ينبِّه اليهودَ والنصارى والمشركين على أَنَّ الخيرَ لا يحصل في الدنيا و الآخرة إلاَّ بترك التمرُّدِ والعناد والانقيادِ لحكم الله تعالى وتكاليفه.

٢- أَنَّه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أَنَّه طلب الإمامةَ لأولاده فقال تعالى: ﴿ **لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ فدلَّ ذلك على أَنَّ منصبَ الإمامة في الدِّين لا يصل إلى الظالمين، فهؤلاء متى أرادوا وُجْدَان هذا المنصب وجب عليهم تركُ اللَّجاج والتعصُّب للباطل .

٣- أَنَّ الحجَّ من خصائص دين محمدٍ ﷺ فحكى اللهُ تعالى ذلك عن إبراهيم ليكون ذلك كالحجة على اليهود والنصارى في وجوب الانقياد لذلك.

٤- أَنَّ القبلةَ لمَّا حُوِّلت إلى الكعبة شقَّ ذلك على اليهود والنصارى فبيَّن اللهُ تعالى أَنَّ هذا البيتَ قِبلةُ إبراهيمَ الذي يعترفون بتعظيمه ووجوبِ الاقتداء به فكان ذلك يوجب زوالَ ذلك الغضب عن قلوبهم .

٥- أَنَّ من المفسِّرين من فسَّر الكلماتِ التي ابتلى اللهُ تعالى إبراهيمَ بها بأمورٍ حاصلُها تنظيفُ البدن، وذلك مما يوجب على المشركين اختيارَ هذه الطريقة لأَنَّهم كانوا معترفين بفضل إبراهيم عليه السلام ويوجب عليهم تركَ ما كانوا عليه من التلطُّخ بالدِّماء وترك النظافة .

ومن المفسِّرين من فسَّر تلك الكلماتِ بأَنَّ إبراهيم عليه السلام صبر على ما ابتُلِيَ به في دين الله، ثمَّ انقاد لأحكام الله في ذبح الولد والإلقاء في النار، وهذا يوجب على اليهود والنصارى والمشركين الذين يعترفون بفضله أن يتشبَّهوا به

في ذلك ويسلكوا طريقتَه في ترك الحسد والحميَّة وكراهة الانقياد لمحمدٍ ﷺ، فهذه الوجوه التي لأجلها ذكر اللهُ تعالى قِصَّةَ إبراهيم عليه السلام بعد الاستقصاء في شرح وجوه نعمه على بني إسرائيل وشرح قبائحهم في أديانهم وأعمالهم»(١).

أَمَّا تفسير الآيات فقوله تعالى: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**(١٢٤)﴾[البقرة] أيِّ : "واذكر لهم يا نبيَّنا وقتَ ابتلائه عليه السلام ليتذكَّروا دائماً بما وقع فيه من الأمور الَّداعية إلى التوحيد الوازعةِ عن الشرك، فيقبلوا الحقَّ ويتركوا ما هم فيه من الباطل، ويمكن أن يكون العطفُ على ما قبله من خطاب بني إسرائيل ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**(١٢٢)﴾ [البقرة] أيّ: واذكروا إذ ابتلى أباكم إبراهيم، فأتمَّ ما ابتلاه به، فما لكم أنتم لا تقتدون به فتفعلوا عند البلاء فِعْلَه في إيفاء العهد والثَّبات على الوعد، لأُجازِيكم على ذلك جزاء المحسنين»(٢).

وقد أطال المفسرون في محاولة تعيين هذه الكلمات ولا فائدةَ من هذا التطويل، قال ابن جرير:

"والصَّوابُ أن يقال: إنَّ الله عزّ وجلّ أخبر عباده أَنَّه اختبر إبراهيَم خليلَه بكلماتٍ أَوْحاهُنَّ إليه وأَمَرَه أن يعمل بهنَّ فأتمهنَّ كما أخبر اللهُ عزّ وجلّ، وغَيْرُ جائزٍ لأحد أن يقول عنى بالكلمات التي ابتلى بهنَّ إبراهيمَ شيئاً بعينه إلاَّ بحُجَّةٍ يجب التسليمُ لها من خبر الرسول ﷺ أو إجماعٍ من الحجة، ولم يصح من ذلك خبرُ عن الرسول بنقل الواحد، ولا بنقل الجماعة التي يجب التسليم لما نقلته»(٣).

(١) تفسير الرازي(٣٦و٤/٣٧).

(٢) تفسير القاسمي(٢/٢٤٤) بتصرف.

(٣) جامع البيان(٥٢٧و١/٥٢٨).

وقوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أيّ قام بهنَّ كلّهنَّ خيرَ قيام، وأدّاهنَّ أحسنَ أداء، ووفَّي بهنَّ كما يجب أن يكون الوفاء، وبذلك استحق من ربه أحسن الثناء قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى(٣٧)﴾ [النجم]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٢٠)شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(١٢١)وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ(١٢٢)﴾ [النحل]، وجزاه اللهُ على الوفاء خيرَ الجزاء: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا(١٢٤)﴾ [البقرة] يأتمُّون بك ويهتدون بهديك، ويقتدون بشريعتك، ويدينُون بدينك، قال تعالى لخاتم النبيِّين ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٢٣)﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٦١)﴾ [الأنعام]، وكان ﷺ إذا أصبح يقول: "**أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلاَمِ وَعَلَى كَلِمَةِ الإِخْلاَصِ وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**"(١).

وطمع إبراهيمُ عليه السلام أن تنتقل الإمامةُ منه إلى ذُرِّيته فسأل ربَّه ذلك ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي(١٢٤)﴾ [البقرة] "وجاءه الرَّدُّ من ربِّه الذي ابتلاه واصطفاه يقرِّر القاعدةَ الكبرى التي يقوم عليها الدِّين: إنَّ الإمامة لمن يستحقُّونها بالعمل والشعور، وبالإصلاح والإيمان، وليست وِراثةَ أصلابٍ وأنساب، فالقُربى ليست وشيجة لحم ودم، وإنَّما وشيحة دينٍ وعقيدة، ودعوى القرابة والدم والجنس والقوم إن هي إلاَّ دعوى الجاهلية التي تصطدم اصطداماً أساسياً بالتصُّور الإيمانيِّ الصحيح﴿قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(١٢٤)﴾ [البقرة]"(٢)، ولذلك لمَّا

---

(١)حسن : [ص.ج : ٤٥٥٠] ،حم(١٤/٢٣٨/٩٦) ، مى (٢/٢٠٢/٢٦٩١) .

(٢) في ظلال القرآن (١/١٥٣).

راجع نوحٌ ربهَّ في ولده الذي كان من المغرقين : ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ(٤٦)﴾ [هود]، لماذا وهو ابنه من صلبه ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ(٤٦)﴾ [هود]، وأهلكُ الذي وعدتُك بإنجائهم مَنْ آمن معك وإن لم يكونوا ذوي قربى، أما ابنك لصلبك الذي كفر فليس منهم، ولذلك كان النبيُّ ﷺ يقول: " **إِنَّ آلَ أَبِي يَعْنِي فُلاَنًا لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ**"(١)، قال النووي: "معنى الحديث أَنَّ وليي من كان صالحاً وإن بَعُد مني نسبُه، وليس وليي من كان غير صالح وإن قَرُب منِّي نسبه"(٢).

وفي ذلك الردَّ من الربِّ سبحانه وتعالى على إبراهيم إفادة تحقُّقِ إجابته أي سيجعل اللهُ من ذريَّةِ إبراهيَم أئمةً ولكنَّ هذا الوعد لا يشمل الظالمين من ذريته، وقد صرح اللهُ تعالى بذلك فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ(٢٧)﴾ [العنكبوت]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا(٧٣)﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا(٨٤)﴾ [الأنعام]، ثمَّ قال لنبيه ﷺ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ(٩٠)﴾ [الأنعام]، فما أحسنه من تشريف تمَّ بعد ذلك التكليف ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ(١٢٤)﴾ [البقرة] "وفي ذلك أتمُّ ترغيب في التخلُّق بخُلق الوفاء، لا سيَّما الذين دُعوا فيه إلى الوفاء "بني إسرائيل " وإشارةٌ إلى أنَّهم إن شكروا أبقى رِفْعتَهم كما أدام رِفعةَ إبراهيم ، وإن ظلموا لم تنلهم دعوته، فضرب عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ولم

---

(١) متفق عليه : خ(١٠/٤١٩/٥٩٩٠)، م(١/١٩٧/٢١٥).

(٢) شرح مسلم للنووي(٣/٨٨).

يُجْـزِ عنهم أحدٌ شيئاً ولا هم ينصرون»[١].

ثمَّ يذكر اللهُ تعالى شرفَ البيت الحرام وفضلَه وما كلَّف به إبراهيمَ وإسماعيلَ من تنظيفه وتطهيره وتنزيهه عن كل ما لا يليق ببيت الله، وعن كل ما ينافي التوحيد الذي بُنِيَ له هذا البيت فيقول اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا(١٢٥)﴾[البقرة]، والبيتُ عَلَمٌ على الكعبة، فإذا أُطلق عُلِمَ أنها المرادة، كالنَّجم عَلَمٌ على الثُّريَّا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، ومعنى كون البيت مثابةً للناس أي يثوبون إليه ويرجعون، كُلَّما أتوه انصرفوا عنه وهم على يقين أنهم لم يشبعوا منه ولم يقضُوا منه وطَرَهم، فينصرفون وهم يتأمَّلون أنهم إليه راجعون، وذلك تحقيقاً من الله تعالى لدعوة خليلِه إبراهيمَ عليه السلام ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ(٣٧)﴾ [إبراهيم]، فمن أجل زيارة هذا البيت تُركب الصعاب، وتُنفق الأموال، وتُهجر الديارُ والأوطان، والأولادُ والنِّسوانُ والخِلاَّن، ويرى الزائرُ من أجل المزور الصعبَ سهلاً، والمُرَّ حُلواً، والمِلْحَ عذباً، والعذابَ رحمة وحَنَاناً، ثمّ لا تُثْنِيهِ الصِّعابُ، ولا تردُّه الأهوال، بل هو دائماً في اشتياق كما قيل:

لا يرجع الطرْفُ عنها حين يُبصرُها حتى يعود إليها الطرْفُ مشتاقاً[٢].

وأمَّا كون البيت أمناً وأماناً فقد صرَّح به ربُّنا سبحانه في أكثرَمن موضع: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا(٩٧)﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ(٦٧)﴾ [العنكبوت]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا(٥٧)﴾ [القصص].

---

(1) محاسن التأويل(٢/٢٤٥) بتصرف.

(٢) هذه المعاني مقتبسة من (زاد المعاد: ١/٥١).

وكانت العربُ يعدو بعضُهم على بعض، ويغزو بعضُهم بعضاً، ويسلُبُون أموالَ بعضِهم بعضاً، ولا يتعرَّضون لقريشٍ تعظيماً لبيت الله ، يقولون هؤلاء أهل بيت الله ، وكان الرَّجُل يرى قاتِلَ أبيه وأخيه داخلَ الحرم فلا يتعرَّض له ولا يُخيفه .

وفي البيت من الآيات البيّنات مقامُ إبراهيم كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ** (٩٦) **فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ**(٩٧)﴾ [آل عمران] وهو الحَجَرُ الذي قام عليه إبراهيمُ لمَّا ارتفعت الجُدران، وقد أمر اللهُ بالصلاة عنده فقال: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**(١٢٥)﴾ [البقرة]

وكان ذلك موافقةً لعمر حين قال: **قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَوِ اتَّخَذْتَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى فَنَزَلَتْ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾** »[١]

﴿**وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**(١٢٥)﴾[البقرة] أي أمر اللهُ تعالى إبراهيمَ وإسماعيلَ بتنظيف البيت وتطهيره من كلِّ ما لا يليق به وبما جُعِل له من التوحيد والصلاة والذِّكر، فيكون المعنى وأوحينا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أن طهِّرا بيتيَ من الأصنام والأوثان التي هي سبب الشرك، وطهِّراه من الدَّنس والرِّجس ليصلح للعبادة والصلاة.

وأراد الخليلُ أن يدعو لأهل البلد الأمين أن يرزقهم اللهُ تعالى وخَشِيَ أن يعمَّ بالدعوة أهلَ البلد أجمعين فيردَّ عليه ربُّ العالمين كما ردَّ عليه حين قال : ﴿**وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**(١٢٤)﴾ [البقرة] فخصَّ بالدعوة المؤمنين فقال: ﴿ **رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ**

---

(١) متفق عليه :خ(٤٤٨٣/١٦٨/٨)، م(٢٣٩٩/١٨٦٥/٤)، ت(٤٠٣٧/٢٧٤و٢٧٥/٤)، جـه(١٠٠٩/٣٢٢/١).

وَالْيَوْمِ الآَخِرِ(١٢٦)﴾ [البقـرة] ففرَّق اللهُ تعالى لخليله بين الإمامة والرزق، فالرزق تفضل من الله على جميع الخلق فجعله حقاً لهم بلا شـرط كمـا قـال تعـالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْـلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ(٢٣)﴾ [الذاريات] فهو يرزقُهم في الدنيا جميعاً مَنْ آمن منهم ومـن كفر، ثمَّ في الآخرة يُنْعِمُ على المؤمنين بأحسن رزق، ويحرمه الكافرين كما قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْـطَرُّهُ إِلَـى عَـذَابِ النَّـارِ وَبِـئْسَ الْمَصِيرُ(١٢٦)﴾ [البقـرة]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَـادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِـي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا(٣٢)﴾ أي لهـم ولغيرهم، دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ(٣٢)﴾ [الأعـراف]، وقولـه تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ(٥٠)﴾ [الأعراف].

أمَّا الإمامةُ في الدِّين فإنَّها لا تليق بالظالمين الفاسقين الذين لـم يصـبروا على البلاء كما صبر إبراهيم، ولم يفوا كما وفَّى، والصبرُ والوفاءُ همـا سـببُ الإمامة كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَـبَرُوا وَكَـانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ(٢٤)﴾ [السجدة]

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ(١٢٧)﴾ [البقرة] "أي اذكر بناءَ البيت ورَفْعَهُما القواعدَ منه: جَمْعُ قاعدةٍ وهي الأساس والأصل لما فوقه"(١) وهذا يدلُّ على أَنَّ البيت كان موجوداً وأنَّهما رفعا القواعدَ ولم يؤسِّساها ابتـداء، كما يشير إليه قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لاَ تُشْـرِكْ بِـي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(٢٦)﴾ [الحج]، وكما يظهـر من هذا الحديث :

---

(١) محاسن التأويل(٢/٢٥٥).

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: « أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ فَقَالَتْ: لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَتْ: إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَا ثُمَّ رَجَعَتْ فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: رَبِّ ﴿إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ يَشْكُرُونَ(٣٧) ﴾ [إبراهيم] وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى أَوْ قَالَ: يَتَلَبَّطُ فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الْوَادِيَ ثُمَّ أَتَتِ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ: صَهٍ تُرِيدُ نَفْسَهَا ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيْضًا فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ أَوْ قَالَ: بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ ﷺ : يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا

قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا فَقَالَ: لَهَا الْمَلَكُ لاَ تَخَافُوا الضَّيْعَةَ فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ يَبْنِي هَذَا الْغُلاَمُ وَأَبُوهُ وَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ فَقَالَتْ: نَعَمْ وَلَكِنْ لاَ حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ قَالُوا: نَعَمْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الإِنْسَ فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ وَشَبَّ الْغُلاَمُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ فَشَكَتْ إِلَيْهِ قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ قَالَتْ: نَعَمْ جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ قَالَتْ: نَعَمْ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلاَمَ وَيَقُولُ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ قَالَ: ذَاكِ أَبِي وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَطَلَّقَهَا وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَت: اللَّحْمُ قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَت: الْمَاءُ قَالَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ وَلَوْ كَانَ لَهُمْ

دَعَا لَهُمْ فِيهِ قَالَ: فَهُمَا لا يَخْلُو -عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلاَّ لَمْ يُوَافِقَاهُ قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ قَالَ: ذَاكِ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلاً لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَهُمَا يَقُولاَنِ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)﴾ [البقرة] (١) ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)﴾ [البقرة].

وفي دُعائهما بالقَبول تعليمٌ للعاملين إذا أحسَنوا العملَ وأخلَصوه أَن يُلِحُّوا على الله بالدُّعاء ليقْبلَه، وفي دُعائهما بالتَّوبة تعليمٌ للعابدين أنَّهم لا يَسْلَمُون من تقصير فعليهم مع الاجتهاد بالاستغفار والتوبة، وفي قولهما:﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ تعليمٌ للحجَّاج بالحِرْص على تعلُّم المناسك قبل السفر فإن هم قصَّروا في التعليم، ثُمَّ كان منهم إخلالٌ بالمناسك أضرَّ ذلك بحجِّهم ونقص منه على قدر ذلك الخلل، وإن كان منهم تركٌ لركنٍ بطل حَجُّهم ولم يُعْذَرُوا بجهلهم، لأَنَّ تعلّم المناسك فرضٌ عليهم .

---

(١) خ (٣٣٦٤/٣٩٦ــ٣٩٨/٦) .

وفي سُؤالِهمَا اللهَ أَن يبعث في ذَرِّيتهما رسولاً يُعلِّمهم تَعْليمٌ للآباء أن يحرصوا على تعليم الأبناء دينهم وأن يعملوا على توفير المعلِّمين الذين يُعلِّمونهم الدّين، والعجبُ كُلُّ العجبِ من أَنَّ الآباءَ اليوم اهتمُّوا بتعليم أبنائهم كلَّ شيءٍ إلاَّ الدِّين، فموادُّ الدِّراسة كلِّها لها مُعلِّمون خصوصيُّون تُدْفَع لهم الأموالُ وإنْ كَثُرَتْ وعُلَماءُ الدِّين يُعلِّمون مجَّاناً والآباءُ قبل الأبناء عن هذه الدُّروسِ مُعْرِضون فاتقوا الله عباد الله في أنفسكم ، واحرصوا على مجالس العلم واصحبوا معكم أبناءكم، واغرسوا في نفوسهم حُبَّ الدِّين وعلومِه ف "**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**"[١]

* * *

---

(١)متفق عليه :خ(٦/٢١٧/٣١١٦)، م(٢/٧١٨/١٠٣٧).

الركن الخامس: الحج

قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)﴾[البقرة].

الحجُّ لغةً : القصد، والعُمْرة لغةً : الزيارة .

وهما في الشرع: قَصْدُ مكَّةَ لأداء المناسك من طواف وسَعْيٍ وغيرهما، وهما واجبان على كُلِّ مسلمٍ بالغٍ عاقلٍ حُرٍّ مستطيع مرةً واحدةً في العُمُر لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا (٩٧)﴾[آل عمران].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: « أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلاثًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ ثُمَّ قَالَ: ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»(١)،

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّه عَنْهمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « هَذِهِ عُمْرَةٌ اسْتَمْتَعْنَا بِهَا فَمَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ الْهَدْيُ فَلْيَحِلَّ الْحِلَّ كُلَّهُ فَإِنَّ الْعُمْرَةَ قَدْ دَخَلَتْ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(٢)،

وَعَنْ الصُّبَيِّ بْنُ مَعْبَدٍ قَالَ: أَتَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقُلْتُ لَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي كُنْتُ رَجُلاً أَعْرَابِيًّا نَصْرَانِيًّا وَإِنِّي أَسْلَمْتُ وَأَنَا حَرِيصٌ عَلَى الْجِهَادِ وَإِنِّي وَجَدْتُ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ مَكْتُوبَيْنِ عَلَيَّ فَأَتَيْتُ رَجُلاً مِنْ قَوْمِي فَقَالَ: لِي اجْمَعْهُمَا وَاذْبَحْ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَإِنِّي أَهْلَلْتُ بِهِمَا مَعًا فَقَالَ لِي عُمَرُ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ: هُدِيتَ لِسُنَّةِ نَبِيِّكَ ﷺ »(٣).

ولا يجب الحجُّ على الصَّبيِّ والعبد، فإن حجَّا فلهما الأجر وعليهما بعد ذلك حجَّةُ الإسلام لقوله ﷺ: « أيُّمَا صَبِيٍّ حَجَّ ثُمَّ بَلَغَ فَعَلَيْهِ حَجَّةٌ أُخْرَى، وَأَيُّمَا عَبْدٍ حَجَّ ثُمَّ أُعْتِقَ فَعَلَيْه حَجَّةٌ أُخْرَى»(٤).

والاستطاعة تتحقَّقُ بالصِّحةِ وملْك ما يكفيه ذهاباً وإياباً، فاضلاً عن حاجته وحاجةِ من تلزمه نفقتُه، وأَمْنِ الطريق، ويُشْتَرطُ في حقِّ المرأةِ خروجُ زَوْجِها

---

(١) م(٢/٩٧٥/١٣٣٧)، ن(٥/١١٠).

(٢) م(٢/٩١١/١٢٤١).

(٣)صحيح :[الإرواء:٩٨٣]، ن(٥/١٤٦)، د(٥/٢٣٠/١٧٢٢)، جه(٢/٩٨٩/٢٩٧٠).

(٤)صحيح :[الإرواء:٩٨٦]، هق(٥/١٥٦).

معها أو مَحْرَمٌ، فإن لم تجد فليستْ مستطيعةً وليس الحجُّ واجباً عليها وإن كانت صحيحةً وأَمِنَت الطريق :

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهمَا أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " لاَ يَخْلُـونَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ وَلاَ تُسَافِرَنَّ امْرَأَةٌ إلاَّ وَمَعَهَا مَحْرَمٌ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّـهِ اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا وَخَرَجَتِ امْرَأَتِي حَاجَّـةً قَـالَ: اذْهَـبْ فَحُـجَّ مَـعَ امْرَأَتِكَ"(١)، فإن سافرت المرأةُ للحجِّ والعُمرةِ بلا محرمٍ فهي آثمةٌ وعاصـيةٌ لله ورسوله ﷺ.

ومتى تحقَّقت الاستطاعةُ وجبت المبادرةُ بالحجِّ، لقولـه ﷺ : " **مَـنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ فَإِنَّهُ قَدْ يَمْرَضُ الْمَرِيضُ وَتَضِلُّ الضَّالَّةُ وَتَعْرِضُ الْحَاجَةُ**"(٢).

وللحجِّ مواقيتُ زمانيَّةٌ ومكانيَّةٌ، أمَّا الزَّمانيَّةُ فقد قـال فيهـا اللهُ تعـالى : ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ** (١٨٩)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ**(١٩٧)﴾ [البقرة]،

قال ابنُ عمر: " أشهرُ الحجِّ شوَّال وذو القِعْدة وعَشْرٌ من ذي الحِجَّة"(٣)،

وقال ابنُ عبَّاس: " مِنَ السنَّةِ أَن لا يُحْرِم بالحجِّ إلاَّ في أَشْهُرِ الحجِّ"(٤).

وأمَّا المواقيت المكانيَّة :

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَّتَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ ذَا الْحُلَيْفَـةِ وَلأَهْـلِ الشَّامِ الْجُحْفَةَ وَلأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنَ الْمَنَازِلِ وَلأَهْلِ الْيَمَنِ يَلَمْلَمَ هُنَّ لَهُنَّ وَلِمَنْ أَتَـى

---

(١) متفق عليه :خ(٣٠٠٦/١٤٢/٦)، م(١٣٤١/٩٧٨/٢).

(٢) صحيح :[ص.جه:٢٣٣١]، جه(٢٨٨٣/٩٦٢/٢).

(٣) صحيح الإسناد :[مختصر خ:٣١١ص٣٧٢]، خ(٣/٣١٩) تعليقاً.

(٤) الهامش السابق .

عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِهِنَّ مِمَّنْ أَرَادَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ وَمَنْ كَانَ دُونَ ذَلِكَ فَمِنْ حَيْثُ أَنْشَأَ حَتَّى أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ مَكَّةَ»(١)،

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «وَقَّتَ لأَهْلِ الْعِرَاقِ ذَاتَ عِرْقٍ»(٢).

فمن أراد مكَّة لنُسكٍ فلا يجوز له أن يتجاوزَ هذه المواقيتَ حتى يُحْرِم، ويُكْرُه الإحرامُ قبلَها فقد قال الإمامُ مالكٌ- رحمه الله - لرجلٍ أراد أن يُحْرِم قبلَ ذي الحُلَيْفة: لا تفعل فإنِّي أخشى عليك الفِتْنة، فقال: وأيُّ فتنةٍ في هذه ؟ إنَّما هي أميالٌ أزيدُها ؟ قال الإمامُ مالك : وأيُّ فتنةٍ أعظمُ من أن ترى أنك سبقتَ إلى فضيلةٍ قصَّر فيها رسول الله ﷺ ؟ إني سمعتُ اللهَ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٦٣)﴾ [النور]،

ومن جاوز الميقاتَ غيرَ مُحْرِمٍ، وهو يريد الحجَّ أوالعمرةَ، ثمَّ أحرم بعد مجاوزته فقد أثم بذلك ولا يذهب عنه الإثم إلاَّ أن يعود إلى الميقات فَيُحرِمَ منه، ثمَّ يُتِمَّ سائرَ نسكه ، فإن لم يَعُدْ فنسكُه صحيح. وقد لحقه الإثم، ولا دَمَ عليه.

والمناسك ثلاثة: إفرادٌ وقِرانٌ وتمتّع، والإفرادُ هو أن يُهِلَّ بالحجِّ وحده، والقِرَان أن يُهِلَّ بالحجِّ والعمرة إذا كان قد ساق الهَدْيَ معه من الحِلّ، والتَّمتُّع هو أن يُهِلَّ بالعمرة ثمَّ يتحلَّل منها بعد الفراغ منها، ويتمتَّع باستحلال ما حَرُم عليه بالنسك، فإذا كان يوم التروية أهلَّ بالحجِّ وحده، وهذا التمتع واجب، لأن النبيَّ ﷺ أمر أصحابَه جميعاً أن يُحِلّوا من إحرامهم، وأن يجعلوا طوافَهم

---

(١) متفق عليه :خ(١٥٢٤/٣٨٤/٣) وهذا لفظه، م(١١٨١/٨٣٨/٢)، د(١٧٧٢٢/١٦٢/٥)، ن (١٢٣/٥).

(٢) صحيح :[الإرواء:٩٩٨]، د(١٧٢٣/١٦٣/٥) هكذا مختصراً، ن(١٢٥/٥) مطولاً.

وسَعْيَهم عُمرة، إلاَّ من ساق الهَدْيَ منهم مِثْله ﷺ وغَضِبَ ﷺ على الـذين لـم يُبادروا إلى الاستجابة لأمره، وأكد ذلك بقوله: "**فَإِنَّ الْعُمْرَةَ قَدْ دَخَلَتْ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**"[١]، وقال ﷺ : "**وَلَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَمْ أَسُقِ الْهَدْيَ** "[٢]. فمتى وصل الحاجُّ إلى الميقات فعليه أن يغتسل لإحرامه، ولا فرق في هذا الغسل بين الرجل والمرأة، ولا فرق بين الحائض والطاهر، فالاغتسال للإحرام سُنَّةٌ للجميع، ويُستحبُّ للرَّجل أن يتطيَّب في بدنه، ولا يُستَحَبُّ ذلك للمرأة، فإن ما يوجد ريحُه من الطِّيب مَحُرَّم على المرأة عند خروجها من البيت، ثم يتجَّرد الرَّجلُ من ثيابه كلِّها الداخليَّة والخارجيَّة ويلبس الإزارَ والرِّداء، فإن كان السفرُ بالطائرة جاز الاغتسالُ في البيت قُبيل الخروج، وإن كان بالباخرة وتمكَّن الحاجُّ من الاغتسال فيها فبها ونعمت، وإن لا فلا حرج .

والمرأة تُحْرِمُ في جلبابها الذي تخرج به، ومن الخطأ اعتيادُ النِّساء الإحرام في الملابس البيضاءِ الشفَّافة ، فإنَّ هذه الثيابَ مُحَرَّمةٌ على المرأة في كل وقت فضلاً عن أن تلبسها لتطيع الله فيها .

ومتى حاز الميقاتَ في الجِّو أو البحر أهلَّ بنُسكه: لبَّيك اللَّهم بعمرة، ثمَّ يرفع صوتَه بالتلبية: "**لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ**"[٣]، ويُكْثِرُ منها ويرفع بها صوتَه فإنَّ **رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُلَبِّي إِلاَّ لَبَّى مَنْ عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ مِنْ حَجَرٍ أَوْ شَجَرٍ أَوْ مَدَرٍ حَتَّى تَنْقَطِعَ الأَرْضُ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا**"[٤]، **وسُئِلَ رَسُولُ**

---

(١) م(٢/٩١١/١٢٤١).
(٢) م(٢/٨٨٦/١٢١٨) ،د(٥/٣٨٥ـ٣٦٠/١٨٨٨)،ن(١٤٣و١٤٤/٥) ،جه(٣٠٧٤/١٠٢٢ـ٢/١٠٢٧) .
(٣) م(٢/٨٨٦/١٢١٨).
(٤) صحيح : [ص.ت:٨٢٨]، ت(٢/١٦٢/٨٢٨)، جه(٢/٩٧٤/٢٩٢٣)، ك(١/٤٥١).

اللَّهِ ﷺ "**أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ ؟ قَالَ الْعَجُّ وَالثَّجُّ**"(١)، والعَجُّ رَفْعُ الصَّوْت بالتلبيـــة، والثَّـــجُّ إراقةُ دماء الهدي والضحايا، فإذا فرغ من التلبية انشغل بالدُّعاء والذِّكر والاستغفار ونحوه حتى يصل مكة، فإذا دخل المسجد الحرامَ قدَّم رِجْلَه اليمنـــى وقال: "**أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُـلْطَانِهِ الْقَـدِيمِ مِـنَ الشَّـيْطَانِ الرَّجِيمِ**"(٢)،

"**بِسْمِ اللَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْـتَحْ لِـي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ وَإِذَا خَرَجَ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ**"(٣).

فإذا رأى البيتَ جاز له رفُع يديه والدُّعاء. فإذا أراد الطـــوافَ اضـــطَّبع، والاضطِّبَاعُ هو أن يدخل رداءه تحت إبطه الأيمن ويردَّ طرفَـــه علـــى مَنْكِبِـــه الأيسر، ويكون مَنْكِبُه الأيمن مكشوفاً ، ولا يضطبع إلاَّ بعد دخول المسجد عنـــد إرادة الطواف، ومن الخطأ الاضطباع من أوَّل الإحـــرام، فـــإذا أراد الطـــواف استقبل البيتَ بحذاء الحجر الأسود، ورفع يده اليمنى قائلاً: بسم الله والله أكبـــر، ومن الخطأ الحرصُ على الوصول للحجر في هذا الزحام الشديد ممـــا يترتـــب عليه أن يؤذيَ غيرَه، ثم يجعلُ البيتَ عن يساره ويأخذ في الطواف بـــه، ومـــن السنَّةِ الرَّملُ في الأشواط الثلاثة الأولى، واستلامُ الرُّكنِ اليمانيِّ كلما حازاه فـــي جميع الأشواط ، فإن عجز عن الوصول إليه لم يُشِرْ إليه، وهـــو بالخيـــار فـــي الطواف من حيثُ الذكرُ فليقرأ أو يستغفر أو يدعو، فليس في ذلك سُنَّةٌ ثابتةٌ عن النبِّي ﷺ إلاَّ أنه أُثر عنه ﷺ أنه كان يدعو بين الركنين: ﴿**رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الـــدُّنْيَا**

---

(١) صحيح :[ص.ت:٨٢٧]، ت(٢/١٦١/٨٢٧)، جه(٢/٩٧٥/٢٩٢٤).

(٢) صحيح :[ص.د:٤٤١]، د(٢/١٣٢/٤٦٢).

(٣) صحيح :[ص.جه:٦٢٥]، جه(١/٢٥٣/٧٧١)، ت(١/١٩٧/٣١٣).

حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(٢٠١)﴾ [البقرة]، فإذا فرغ من الأشواط السبعة استُحِبَّ له صلاةُ ركعتيْن خَلْفَ مقام إبراهيم، وفي موسم الحـــجّ يتعسَّـــر ذلك ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ(١٦)﴾ [التغابن]، وصلِّ سُنَّة الطواف في مكان تـــأمنُ فيه من مرور النساء وغيرهنَّ بين يديك، وتأمن فيه على نفسك وتجد فيه قلبك، ومن الخطأ الحرصُ على هاتين الركعتين خَلْفَ المقام مع كثرة الطائفين وشِـــدَّة الزِّحام بحيث لا يستطيع المصلِّي أن يركع ويسجد. ومن السنة في القراءةُ فـــي هاتين الركعتين أن يقرأ في الأولى بعد الفاتحة الكافرون، وفي الثانية الإخلاص، فإذا فرغ من الركعتين أتى زمزمَ فشَرِبَ وغسل رأسه، فإذا أراد السَّعْيَ اســـتلم الحجرَ الأسودَ ثم خرج إلى الصفا، فإذاَ أخذ في الصعود "**قَـــرَأَ : ﴿ إِنَّ الصَّـــفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ فَبَدَأَ بِالصَّفَا فَرَقِيَ عَلَيْـــهِ حَتَّـــى رَأَى الْبَيْتَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَوَحَّدَ اللَّهَ وَكَبَّرَهُ وَقَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْـــدَهُ أَنْجَـــزَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ ثُمَّ دَعَا بَيْنَ ذَلِكَ قَالَ مِثْلَ هَـــذَا ثَـــلاَثَ مَرَّاتٍ** " [(١)] ثُمَّ يَنزلَ مُتَّجِهاً إِلَى الْمَرْوَةِ فإذا انتهى إلى العَلَم الأخضر سعى ســـعياً شديداً إلى العَلَم الآخر، "**حَتَّى أَتَى الْمَرْوَةَ فَفَعَلَ عَلَى الْمَرْوَةِ كَمَـــا فَعَـــلَ عَلَـــى الصَّفَا حَتَّى إِذَا كَانَ آخِرُ طَوَافِهِ عَلَى الْمَرْوَةِ**"[(١)]، وليس في السَّعْيِ دعاءُ مُعَـــيَّنٌ ولا ذِكْرٌ مُعَيَّنٌ فلينشغل بما شاء، فإذا فرغ من سعيه وقد بَقِيَ على الحـــجِّ أيـــامٌ كثيرةٌ يطولٌ فيها شعره فليحْلِقْ، وإن قلَّت الأيَّامُ فليقصِّر، وبـــذلك يتحلَّـــل مـــن عمرته. ويُقيم حلالاً إلى يوم التَّروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة، فإذا كـــان صبح يوم الثامن اغتسلِ وتنظَّف ولَبِسَ ملابسَ الإحرام ثمَّ أهلَّ بالحج: لبيَّك اللهم بحجَّة، اللهم هذه حَجَّةٌ لا رياءَ فيها ولا سُمْعَة، ثمَّ يتوجَّه ضُـــحىً إلـــى مِنـــى

---

(١) م(١٢١٨/٨٨٦/٢).

فيصلِّي بها الظهرَ والعصرَ والمغربَ والعِشاَء قصراً بلا جمع، ثمَّ يبيتُ بها ليلةَ عرفةَ، ويُصلِّي فجرَ يوم عرفة بمنى، ثمَّ يتوجَّه ضُحىً إلى عرفة فينزل بنَمِرَةَ فيصلِّيَ بها الظهرَ والعصرَ جمعاً وقصراً ثمَّ ينشغل بالذِّكْرِ والدُّعاء حتى غُروبِ الشَّمس، فقد قَالَ ﷺ : «**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ**»(١)، فإذا غربت الشَّمسُ أفاض مع الناس إلى المُزْدَلِفة وصلَّى بها المغربَ والعِشاء جمعاً وقصراً للعشاء، ثمَّ يوتر وينام حتى الصبح، فإذا أصبح صلَّى الفجرَ في أوَّل وقته ثمَّ يُشْغِلُ نفسَه بذكرِ اللهِ كما قال الله تعالى:

[البقرة]، فإذا أسفر النَّهارُ وكادت الشَّمسُ أن تُشْرِقَ أفاض إلى مِنى وإن شاء إلى مَكَّة حسبما تيسَّر له، فإن أتى مِنى رمى الجمرة الكبرى جمرة العقبة بسبع حَصَياتٍ ويكبِّر مع كُلِّ حصاة، ثمَّ يَحْلِقُ رأسه، ويتحلَّل التحلُّلَ الأوَّلَ ثمَّ يذبح هَدْيَه وإن كان قد وكَّل فلا حرج .

ثمَّ ينزل مكة وهو حلالٌ قد لَبِسَ ملابسَه فيطوفُ بالبيت سبعاً مبتدئاً باستلام الحجر الأسود كما سبق ذِكْرُه ولا رَمَلَ في هذا الطواف، فإذا فرغ صلَّى ركعتيَن وأتى زمزمَ فَشرِبَ وغسلَ رأسَه ، ثمَّ عاد فاستلم الحجرَ الأسودَ ثمَّ صَعَدَ الصفا ففعل عليه ما سبق من الذِّكر والدُّعاء ويكرِّر ذلك ثلاثاً، ثمَّ ينزل مُتَّجِهاً إلى المروة ويسعى بين العلَمين، فإذا أتى المروة استقبل القبلة وهلَّل ودعا ثلاثاً، وهكذا حتى يُتِمَّ السَّبعةَ أشواط، وبذلك يتحلَّل التحلُّل كلَّه، ثمَّ يعود إلى منى فيبيت بها ليلةَ الحادي عشر فإذا كان يومُ الحادي عشر رمى الجمراتِ الثلاثَ كُلَّ جَمْرَةٍ بسبع حصيات مبتدئاً بالصغرى ، فإذا رماها انحرف عنها قليلاً واستقبل القبلة ودعا، ثمَّ رمى الوسطى، فإذا رماها انحرف عنها قليلاً ودعا ، ثمَّ يرمي الكبرى، ووقت الرَّمْيِ يبتدئُ بزوال الشمس ولا يجوز قبله ، ويستمرُّ إلى الليل ،

---

(١)حسن :[ص.ت:٣٥٨٥]، ت(٥/٢٣١/٣٦٥٥)، ط(٢٩١/٩٥٥).

ثمَّ يبيت بمنى ليلة الثاني عشر ويرمي الجمراتِ الثلاثَ بالعدد المذكور أيضاً، فإن تعجل بالانصراف فلا جناح عليه، ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ(٢٠٣)﴾ [البقرة].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ(١٩٧)﴾ [البقرة]، إشارةٌ إلى ما يحرم على الحاجِّ فِعْلُه وهو:

لبس المخيط ، والمراد بالمخيط كُلُّ ما فُصِّل على قدر عُضْوٍ مُعَيَّنٍ وإن لم يكن فيه خيط ، فالخُوذَةُ من محظورات الإحرام كالقُلُنسوة والعمامة والجورب.

والطيب، وحلق الشعر وقص الظفر، والجماع ودواعيه، والمعاصي، والجدال، ومن أكبر ما يُبتلى به المُحْرِم التدخين والغيبة والتصوير، فاتَّقِ اللهَ أيها المُحْرِمُ واعلم أنَّك بالإحرام تجرَّدتَ لله من الدنيا كُلِّها وتركتَ الحلالَ لعارض الإحرام، فكيف تترك ماهو حلالٌ بسبب الإحرام، ثمّ تأتي الحرامُ أصلاً في كل وقت.

فمن اضطُّرَّ لحلق الشعر لمرضٍ أو نحوه فعليه الفديةُ المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ(١٩٦)﴾ [البقرة].

ومن أحرم بالحجِّ أو العُمرة ثمَّ حِيلَ بينَه وبين الوصول إلى البيت لمرضٍ أو نحوه فعليه هدي ثمَّ يتحلل لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ(١٩٦)﴾ [البقرة] إلاَّ أن يكون قد اشترط عند الإحرام فقال: "**اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي**"(١)، فإن كان قد اشترط ذلك فَحُبِسَ فله أن يتحلَّل ولا شيء عليه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا(١٨٩)﴾ [البقرة]، إشارةٌ إلى ما يجب تركُه من الابتداع في الحج، والتَّعبُّدِ بما لم يتعبَّدنا اللهُ به:

---

(١) متفق عليه: خ(٥٠٨٩/١٣٢/٩)، م(١٢٠٧/٨٦٧/٢)، ن(١٦٨/٥).

عَنْ الْبَرَاءِ رَضِي اللَّه عَنْهُ قَالَ: "نَزَلَتْ هَذِهِ الآَيَةُ فِينَا كَانَت الأَنْصَارُ إِذَا حَجُّوا فَجَاءُوا لَمْ يَدْخُلُوا مِنْ قِبَلِ أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ ولَكِنْ مِنْ ظُهُورِهَا فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَدَخَلَ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ فَكَأَنَّهُ عُيِّرَ بِذَلِكَ فَنَزَلَتْ ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ "(١)،

قال أهلُ التفسير: "كان الناسُ في الجاهليَّة وفي أوَّل الإسلام إذا أحرم الرَّجُل منهم بالحجِّ أو العُمرة لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه، فإذا كان من أهل المَدرِ نقبَ نقباً في ظهر بيته ليدخلَ منه ويخرج، أو يتخذ سُلَّماً فيصعد منه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخَيْمَة والفِسْطاط، ولا يدخل ولا يخرج من الباب حتى يُحِلَّ من إحرامه ويرون ذلك بِرًّا"(٢).

ومن بدع الحُجَّاج اليوم توديعُهم بالطبل والزمر والموسيقى واستقبالُهم بذلك.

ومن البدع أيضاً: الإصرارُ على الإحرام بالشبشب البلاستيك، والاضطباع أوَّل الإحرام، والتلبيةُ جماعة، وزيارة المساجد والجبال التي بمكة، وقول: اللهم إنَّ البيتَ بيتُك والحرَم حرمُك والأمنَ أمنك (عند باب الكعبة) .

ومن البدع التمسُّحُ بحيطانِ الكعبة والمقام، وتقبيلُ الأركان كلِّها.

ومن البدع الخروجُ في اليوم الثامن من مكة إلى عرفة دون المبيت في منى، والصعود على جبل الرحمة، ورَمْيُ الجمراتِ بالنِّعال والحِجَارة الكبيرة، وذَبحُ الهدي قبل يوم النحر، والخروجُ من مكة لعمل عمرة، وتبييض بيتِ الحُجَّاج ورَسْمُ وسائل النَّقل عليه وكتابةُ آياتٍ قرآنيةٍ .

---

(١) متفق عليه خ(١٨٠٣/٦٢١/٣)، م(٣٠٢٦/٢٣١٩/٤).

(٢) تفسير البغوي(١/٢٣٣).

ومن الجدير بالذكر أنَّ زيارة المسجد النبوي لا علاقةَ لها بالحجِّ أصــلاً، فلو رجع الحاجُّ من مكة دون زيارة المسجد النبوى فحجُّه كاملٌ غير ناقص، إلاَّ أنَّ المسجد النبويَّ من المساجد التي تُشدَّ إليها الرحال ، ووجودُ الحاجِّ في تلــك البلاد فُرْصَةٌ لذلك يستحب قَصْدُ زيارة المسجد النبوي، ومن الخطأ قصدُ زيـــارة القبر، فإذا دخل المسجدَ وصلَّى فيه ما تيسر فقد أحسن، وليس بواجب أن يصلى أربعين صلاةً ولا أكثرَ منها، وليس في المدينة أماكنُ تُشرَعُ زيارتُها إلاَّ المسجدُ النَّبويُّ ومسجدُ قُباء فقد قال ﷺ : "**مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِه ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءَ فَصَلَّى فِيهِ صَلاةً كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ**"(١)، **وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي مَسْجِدَ قُبَاءٍ كُلَّ سَـبْتٍ مَاشِيًا وَرَاكِبًا فَيُصَلِّي فِيهِ رَكْعَتَيْنِ** »(٢)،

أمَّا زيارة المساجد السبعة والجبال وغيرها فهذه من البـــدع، إلاَّ زيـــارة البقيع وشُهداءِ أُحُد مع قبر الرسول ﷺ كقبور يستحب زيارتها كزيارة غيرها من القبور، ولا يخرج الحاج من مكة حتى يطوف طواف الوداع، فإنــه واجــب ، ورُخص في تركه للحائض .

* * *

---

(١) صحيح : [ص.جه:١١٦٠]، جه(١٤١٢/٠/٤٥٣/١).

(٢) متفق عليه : خ(١١٩٣و١١٩٤/٦٩/٣)، م(١٣٩٩/١٠١٦/٢)، د(٢٠٢٤/٢٥/٦).

الإحسان

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(١١٢)﴾ [البقرة].

إِنَّ الدِّينَ ثلاثُ درجات: الإسلام والإيمان والإحسان، لحديث عمرَ المشهورِ في مجيء جبريلَ إلى النبيِّ ﷺ وسؤاله عن هذه الثلاث فلمَّا أجابه صدَّقه ثمَّ انصرف، فقال النبي ﷺ : "**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**"[(١)]، وقد فسَّر النبيُّ ﷺ الإحسانَ في هذا الحديث بقوله: "**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**"[(١)]، "وهذا كلامٌ وجيزٌ بليغ من جوامع كَلِمِ النبيِّ ﷺ الذي اختُصَّ به والمرادُ منه "**أُعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**" لأن الذي يقوم إلى العبادة وهو يرى اللهَ تبارك وتعالى لن يألُوَ جُهْداً في تحسين هذه العبادة وإتْقانها وإخلاصِها وجَمْعِ ظاهرِه وباطنِه عليها والإقبالِ بكلِّيتَه على اللهِ عزّ وجلّ فيها، فأراد النبيُّ ﷺ أن يقول للعابد اعبد الله تعالى في جميع أحوالك كعبادتِكَ في حال المُعاينة فإن لم تكن تراه فإنَّه سبحانه وتعالى يراكَ فاعبده أبداً كأنك تراه وإن لم تكن تراه لأنه سبحانه دائماً يراك، والمقصود من هذا الحثُّ على مراقبةِ الله تعالى في كُلِّ عمل والإخلاصِ له في العبادة والخشوع"[(٢)] ، وقد كَثُر في القرآن الكريم الأمرُ بالمراقبة والحثُّ عليها قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(١)﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

---

(١) م(٨/٣٦/١)، ت (٢٧٣٨/١١٩-٤/١٢٤)، د(٤٦٧٠/٤٥٩-١٢/٤٦٤)، جه (٦٣/٢٤و ١/٢٥) .

(٢) مسلم بشرح النووي (١/١٥٨) .

رَقِيبًا(٥٢)﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا(٥٥)﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ(٣٠)﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(٤٩)﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٧)﴾ [المجادلة]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٦١)﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ(٢٣٥)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى(١٤)﴾ [العلق]، وقال ﷺ : "تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"(١)، وقال ﷺ : " اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ "(٢)، أي في سرِّك وعلانيتك، في حَضَرِك وفي سَفَرِك، في اختلاطك وفي عُزْلتك، كما قال القائل:

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تقل　　خلوتُ ولكن قلْ عليَّ رقيبُ

ولا تحسبنَّ اللهَ يغفل ساعةً　　ولا أن ما تُخفي عليه يغيبُ

---

(١) سبق .

(٢) حسن: [ص.ت:١٩٨٧]، ت(٣/٢٣٩/٢٠٥٣)، حم(١٩/١٨٥/٣٦).

ومن هذه النصوص يتضّح معنى المراقبة وأنّها دوامُ علْمِ العبدِ وتيقُّنه باطلاع اللهِ على ظاهرِه وباطنِه كما قال الخليلُ إبراهيمُ عليه السلام : ﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ**(٣٨)﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿**أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ**(٥)﴾ [هود]،وقال تعالى: ﴿**سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ**(١٠)﴾ [الرعد]، وإن شئتَ قلت المراقبةُ معناها: التعبُّد بأسماءِ الله الحسنى : الرّقيب، الحفيظ، الشهيد الحسيب، السميع البصير، العليم اللطيف الخبير، فمن أتقن فَهْمَ هذه الأسماء وضَبْطِها وتعبَّد اللهَ بها فقد راقبَ الله عزَّ وجلَّ، ولذلك كان بعضُ الصالحينُ يُلَقِّن ولَده أن يقول صباح مساء، اللهُ ناظرٌ إليّ، الله مُطَّلِعٌ عليَّ، اللهُ شاهدٌ عليَّ.

ومراقبةُ العبد ربَّه هي أساسُ الاستقامة على طاعة اللهِ عزَّ وجلَّ، وعدمُ المراقبة هي سببُ الرَّوغان عن طريقة الله سبحانه وتعالى، فمن راقبَ اللهَ استقام كما أمر الله، ومن لم يراقب اللهَ زاغ وراغ عن طريق الله عزَّ وجلَّ، فمراقبةُ الله تبارك وتعالى هي التي تجعل المصلِّي يصلّى بخضوعٍ وخشوعٍ، وإقبالٍ على الله عزَّ وجلَّ واستحضارٍ لعظمة الله وكبريائه وعِزّته وجلاله، استحضاراً يُهَوِّنُ عليه الصلاة ويُخفِّفُها مهما ثَقُلَت أوْ طالَت كما قال تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ**(٤٥)**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**(٤٦)﴾ [البقرة]، وعَدَمُ مُراقبةِ الله عزَّ وجلَّ هي التي تجعل الصلاة ثقيلةً على العبد، فلا يكاد يقوم إليها إلاَّ مع الكسل يجرُّ رِجْلَيْه إليها جراً، وهذا شأن المنافقين والعياذُ بالله الذين قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً**(١٤٢)﴾ [النساء]، وعدمُ المراقبة قد تُقْعِدُ الإنسانَ عن

الصلاة بالمرَّة كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ(٧)﴾ [الماعون]، بل إنَّ عدمَ مراقبة الله عزَّ وجلَّ قد تجعل الإنسانَ ينهى عن الصلاة ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى(١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى(١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى(١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى(١٤)﴾ [العلق]،

ومراقبةُ الله تبارك وتعالى هي التي تُعين الصَّائمين على الصيام، وتجعلُهم يتركون شهواتِهم من أجل الله عزَّ وجلَّ، كما قال الله عزَّ وجلَّ في الحديث القدسي: "**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي**"(١)، فالذي يراقبُ اللهَ تعالى في صيامه يَدعُ طعامَه وشَهْوتَه من أجل الله وهو في بيته لا يراه أحدٌ مِنْ خَلْقِ الله ولكنّه صام لله لا للناس، فهو يدع طعامَه وشَهْوتَه من أجل الله، والذي يراقبُ النَّاس ولا يراقب الله قد يأكل في بيته ويشرب ويأتي ما شاء من الشهوات ويتظاهر للناس بالصوم.

ومراقبةُ الله تبارك وتعالى هي التي تحمل المتصدِّق على إخفاء صدقته ما وجد إلى الإخفاء سبيلاً، "**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ** —ومنهم— **وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ**"(٢)، لأنه لا يَهمُّه أن تعلم شمالُه ما تُنْفِقُ يمينهُ لأنه يُنْفِقُ لله وهو على يقينٍ من أنَّ الله يراه بل هو على يقينٍ من أنَّ صدقته تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير.

ومراقبةُ الله سبحانه وتعالى هي التي تُعين على غَضِّ البصر، لقد نهى اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ عن النظر إلى ما حرَّم النظر إليه ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٣٠)

---

(١) متفق عليه: خ(١٩٠٤/١١٨/٤)، م(١١٥١-١٦٣-/٨٠٧/٢) واللفظ له، ن(١٦٣/٤).

(٢) متفق عليه: خ(٦٦٠/١٤٣/٢)، م(١٠٣١/٧١٥/٢)، ت(٢٥٠٠/٢٤و٢٥/٤).

وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ (٣١)﴾ [النور]، والمراقبةُ هي التي تُعين على غضِّ البصر، من راقبَ اللهَ لم ينظر إلى ما حرَّم الله، ومن لم يراقب اللهَ لم يغضَّ بصره عما حرَّم الله، واللهُ تعالى يقول: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩)﴾ [غافر]، وخائنةُ الأعين هو الرجلُ يكون ضيفاً على قوم فتمرُّ به امرأةٌ من الدار وصاحبُ الدار بجواره فيغضُّ بصره ويُظْهِرُ النُّسكَ والعبادَة والزُّهدَ والصَّلاح فإذا فارقه صاحبُ الدار فمرَّت المرأة تمنَّى أن لو اطلع إلى زينتها المستورة، مراقبةُ الله هي التي تعين على غضِّ البصر، ولذلك قيل للإمام الجُنَيْد: بما يُستعانُ على غضِّ البصر؟ قال: بعلمك أنَّ نظَر اللهِ إليك أسبقُ من نظرك إليها.

مراقبةُ الله تبارك وتعالى هي التي تمنعُ الإنسانَ من الفواحش، وتَعْصمُه من الزلل، مراقبةُ الله تعالى هي التي منعت يوسفَ عليه السلام من إجابةَ امرأة العزيز إلى ما دعته إليه، ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)﴾ [يوسف]،

مراقبةُ الله تبارك وتعالى هي التي تجعلُ من أراد الزنى يتركه بعد أن تمكَّن منه كما قام ذلك الرجلُ عن ابنة عمِّه وقد جاءتْه يوماً سائلة فقال: لا حتى تمكنيني من نفسك فرجعت الفتاةُ حزينةً مكسورةَ الخاطر فلما اشتدّت بها الحاجة أتته تسأله قال: لا حتى تمكنيني من نفسك وتحت ضغط الحاجة وإلحاحها نامت له مقابل مائة دينار قال: « **فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَت: اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَ بِحَقِّهِ فَقُمْتُ وَتَرَكْتُ الْمِائَةَ دِينَارٍ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا فَفَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَخَرَجُوا**»(١).

---

(١) متفق عليه :خ(٣٤٦٥/٥٠٥و٦/٥٠٦)، م(٢٧٤٣/٢٠٩٩/٤)، د(٣٣٧١/٢٤٤/٩).

مراقبةُ الله عزَّ وجلَّ هي التي تَعْصِمُ من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، مراقبةُ الله تعالى هي التي تمنع الزوجَ من خيانة زوجه، خرج عمرُ ذاتَ ليلةٍ وهو أميرُ المؤمنين إلى طرقات المدينة يتحسَّس أخبارَ الرعيَّة ويطمئنُ عليها، فمرَّ على دارٍ وإذا بصَوْت امرأة ينطلق خارجَ الدار وهي تقول :

تتطاولُ هذا الليلُ واسودّ جانبُه و أرّقني أن لا خليلَ أُدعَابُه

فَوَاللهِ لولا اللهِ أنِّي أُراقبُه لَحُرِّكَ من هذا السرير جَوانبُه

فسأل عمرُ عن المرأةَ فأُخْبِرَ أنَّ زوجها في الجهاد غائبٌ عنها من سنة، فسأل عمرُ حفصةَ بنت عمر، كم تصبر المرأةُ على غياب زوجها؟ قالت: أربعةَ أشهرٍ أو ستَّة ، فأَمر أميرُ المؤمنين قادةَ جيوشه أن لا يؤخِّروا المجاهدين عن النزول إجازةً أكثرَ من أربعة أشهر(١)، فمراقبة الله هي التي منعت الزوجَ أن تخونَ زوجَها في غيابه .

مراقبةُ الله هي التي تمنع العاملَ أن يخون صاحبَ المال، كم من ذوي أموال عندهم عُمَّالٌ في محلاَّتهم الصغيرة ، في مصانعهم الكبيرة ، في كل مكان أربابُ الأموال عندهم عُمَّالٌ، وكم نسمع عن خيانة العمال لذوي الأموال، عاملٌ يختلس كذا ويفرُّ، وآخرُ يتنهبُ كذا ويهرب، وثالث ورابع وهكذا، مراقبةُ الله هي التي تمنع العاملَ من خيانة صاحب المال، ولذلك دخل ابنُ عمرَ رضي الله عنهما يومًا الصحراء، فلما حضر الغداءُ وضع السُّفرَة وبسط الطعامَ عليها فمرَّ عليه غلامٌ يرعى غنماً فقال ابنُ عمر: أيُّها الغلام انزل فتغدَّ معنا، فقال الغلام: إني صائم قال: أيها الغلام تصوم في الصحراء في هذا الحرِّ الشديد؟ قال: إني أُقَدِّم لأيَّامي الخالية، فأراد ابنُ عمر أن يختبرَ الولدَ لينظر مدى صحة هذا

---

(١) ابن كثير (١/٢٦٩) .

الكلام، قال: بِعْنَا شاةً من هذه الشياه، قال: إنها ليست لي، إنها لسيِّدي- إنه عامل والغنمُ لصاحب المال- قال ابنُ عمر وأين سيِّدُك؟ بعنا شاةً فخذ ثمنَها فإن سألك سيدك عنها فقل: عدى عليها الذئبُ، وعُدْوانُ الذئب على الشياه والغنم في الصحراء عند العرب شيء مألوف، فولَّى الغُلامُ مدْبِراً يركضُ ركضاً وهو يقول: فأينَ الله ؟ فأين الله ؟! إنها مراقبةُ الله، إذا خان العاملُ صاحبَ المال في غيابه فهل يغيب الله؟ مالك المُلْكِ ومَالكُ الأموال، فدخل ابنُ عمرَ المدينَة فسأل عن مالك الغُلام فاشتراه فأعتقه ثم اشترى منه الغنم فوهبها للغلام، ثم كان ابنُ عمر كُلّما تذكَّر القِصَّة يقول: قال الراعي: فأين الله؟(١) مراقبة الله تعالى منعت العاملَ أن يخون صاحبَ المال.

ومراقبةُ الله أيضاً هي التي تمنع ذوي المال أن يأكلوا أجر العمال، كما أنَّ مراقبةَ الله تمنع العاملَ أن يخون صاحبَ المال، كذلك صاحبُ المال لو راقبَ اللهَ لم يأكل أجر الأجير، ولم يمنع العاملَ حقَّه في المرتَّب الذي سمَّاه له، ولذلك قال أحد الثلاثة الذين انحدرت عليهم صخرة فسدَّت عليهم الغار "**أَنَّهُ كَانَ لِي أَجِيرٌ عَمِلَ لِي عَلَى فَرَقٍ مِنْ أَرُزٍّ فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ وَأَنِّي عَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الْفَرَقِ فَزَرَعْتُهُ فَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِّي اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَأَنَّهُ أَتَانِي يَطْلُبُ أَجْرَهُ فَقُلْتُ: لَهُ اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ فَسُقْهَا فَقَالَ: لِي إِنَّمَا لِي عِنْدَكَ فَرَقٌ مِنْ أَرُزٍّ فَقُلْتُ: لَهُ اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ فَإِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الْفَرَقِ فَسَاقَهَا فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا فَانْسَاحَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ**"(٢)،

مراقبةُ الله تمنع العمَّالَ أن يخونوا ذوي الأموال، ومراقبةُ الله تمنع ذوي الأموال أن يأكلوا أجرَ العمَّال.

---

(١) الدر المنثور (٢٧٢و٢٧٣/٨) .

(٢) متفق عليه : خ(٣٤٦٥/٥٠٥و٥٠٦/٦)، م(٢٧٤٣/٢٠٩٩/٤)، د(٣٣٧١/٢٤٤/٩).

ومراقبةَ الله تعالى تمنع المدينَ أن يجحد الدَّين وأن يُنْكِرَه، هذه الديُّون التي أصبحت مشكلةَ العصر، وهي مشكلةٌ ظاهرةٌ غير خافية، والشيكات ووصلات الأمانة، وغير ذلك مما تعرفون وأَجْهَلُ، هو أسباب امتلاء السُّجون، مشكلةُ العصر جُحودُ الدَّين وإنكارُه، وذلك لعدم مراقبةِ الله، مراقبةُ الله تمنَع المدينَ أن يجحد الدَّينَ أو أن ينكره أو أن يُماطِلَ في السداد وهو قادرٌ عليه، ذكر النبيُّ ﷺ «أَنَّ رَجُلاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ فَقَالَ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا قَالَ: فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ قَالَ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلاً قَالَ: صَدَقْتَ فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلاَنًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي كَفِيلاً فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلاً فَرَضِيَ بِكَ وَسَأَلَنِي شَهِيدًا فَقُلْتُ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا فَرَضِيَ بِكَ وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ فَأَخَذَهَا لأَهْلِهِ حَطَبًا فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لآتِيَكَ بِمَالِكَ فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا»(١)، مراقبةُ الله تمنع المدينَ أن يجحد الدَّين، كما تمنعه أن يماطل في سداده وهو قادرٌ عليه.

---

(١) خ(٢٢٩١/٤٦٩/٤).

مراقبةُ الله تبارك وتعالى هي التي تجعل البائعَ في السُّوق إمَّا أن يَمِيزَ الخبيث من الطيِّب، والجَيَّد من الرديء فيجعل هذا على حدة وهذا على حدة، وإلاَّ جعل الرديء أعلى الجيد لا العكس، والسائدُ في أسواقنا اليومَ هو العكس، والسائدُ في أسواقنا اليوم أن البائع يضع الجَيِّدَ أعلى والرديءَ أسفل، والنبيُّ ﷺ "**مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلاً فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟! قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي**"(١)، ولكنْ أسواقُنا خلتْ من مراقبة الله ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ(٢٤)﴾ [ص].

مراقبةُ الله هي التي تعصم من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، مراقبةُ الله في القلب هي الحارسُ الداخليُّ، الحارسُ الذي لا ينام ولا يغفل، مراقبةُ الله هي التي تمنع الطُّلابَ من الغشِّ في الامتحان، وإنْ أَذِنَ المراقبون الآدميوُّن في الغش، الطالبَ الذي يُراقب اللهَ لا يَغُشُّ لأنه يعلم أن الغش حرام، وأن المراقب الذي يراقب عليه ليس مأذوناً له أن يأذن في الغش، فإنْ قال له المراقبُ أَخْرِجْ ما معك، حُلَّ الأسئلة، قال: إني أخاف الله رب العالمين.

فهل نجدِّد العهد بالله ونقوِّي في القلوب مراقبَةَ الله، هذه المراقبة التي هي درجةٌ من درجات الدِّين بل هي أعلى درجات الدِّين، الإسلام والإيمان والإحسان، وما هو الإحسان يا رسول الله قال: "**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**"(٢).

---

(١) م(١/٩٩/١٠٢)، ت(٢/٣٨٩/١٣٢٩).

(٢) سبق .

نحن بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى مراقبة الله، حتى يُتْقِنَ كُلُّ عاملٍ عملَه، إنْ عبادةً أتقنَها وإنْ وظيفةً أتقنها، نحن بحاجةٍ إلى مراقبة الله حتى نُتْقِنَ كلَّ ما نؤدِّي من عمل، فإنَّ النبيَّ ﷺ يقول: « **إنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه** »(٣). والإتقان لا يأتي إلاَّ من المراقبة، فراقب اللهَ أيها العبد ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**(١)﴾ [النساء]، واعلم أنَّ الله تعالى قد شدَّد عليك الخِناقَ في المراقبة فلم يكتف سبحانه باطلاعه عليك ونظرِه إليك، حتى كلَّف بك كراماً كاتبين ﴿**عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ**(١٧)﴾ [ق] ﴿**مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**(١٨)﴾ [ق]، وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ** (١٠) **كِرَامًا كَاتِبِينَ** (١١) **يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**(١٢)﴾ [الانفطار]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**(١٢)﴾ [يس]، وليس هذا وحسب بل إنَّ جوارح الإنسان وأعضاءه تراقبه لله وتشهد عليه يوم القيامة أمام الله، قال تعالى:﴿**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ** (١٩) **حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (٢٠) **وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** (٢١) **وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ**(٢٢) **وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ**(٢٣) **فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ**(٢٤)﴾ [فصلت]،

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ فَقَالَ: "هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قَالَ: قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ: يَارَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ قَالَ: يَقُولُ بَلَى قَالَ: فَيَقُولُ فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ

شَاهِدًا مِنِّي قَالَ: **فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا قَالَ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ انْطِقِي قَالَ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ قَالَ ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلامِ قَالَ فَيَقُولُ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**»[(١)]، ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)**﴾[يس]، ستشهد عليك يُدك كم أخذتْ من حرام، وكم امتدت إلى حرام، وكم لطمت في الحرام، وكم سفكت في الحرام، وستشهد عليك رِجْلك كم سعتْ إلى الحرام، فاتّقِ اللهَ يا عبد الله، إن لم تستحي من الله وتمنعك مراقبته من معصيته، فاستحي من أعضائك أن تشهد عليك ، ما بالك إذا أردت أن تعصيَ اللهَ اختفيت عن الناس، أمَا سَمِعْتَ الله يقول عن المنافقين: ﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨)**﴾ [النساء]، وقد أوحى اللهُ إلى نبيٍّ من الأنبياء أن قُلْ لقومك: ما بالكم تسترُون عيوبَكم عن الناس وتُظْهِرونها لي، إنْ كنتم تعتقدون أنِّي لا أراكم فقد كفرتم، وإنْ كنتم تعتقدونَ أنِّي أراكم فلم جعلتموني أهونَ الناظرين إليكم.

دائما قل: اللهُ معي، اللهُ ناظرٌ إليّ، اللهُ شاهدٌ عليّ، اللهُ مطلِّعٌ عليَّ، حتى تُنَمِّي في قلبك مراقبةَ الله، فإنَّ مراقبةَ الله هي أساسُ استقامتك، واستقامتُك أساسُ سعادتك، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢)**﴾ [فصلت].

* * *

---

(١) م(٢٩٦٩/٢٢٨٠/٤).

ثمرات المراقبة

عرّفنا المراقبةَ بأنَّها دوامُ عِلْمِ العبدِ وتيقُّنه باطِّلاعِ الله عزَّ وجلَّ على ظاهره وباطنه، قال أبو حامد الغزالي:

«من كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يُراقِبَ جميعَ حركاتهِ وسكناته، وخطراتهِ ولحظاته، وجميعَ اختياراته، وله فيها نظران: نظرٌ قبل العمل، ونظرٌ في العمل، أمَّا قبل العمل فينظرُ ما ظهرَ له وتحرَّك بفعله خاطرُه، أهُوَ للهِ خالصاً، أم لِهَوى النَّفس ومتابعةِ الشيطان؟ فيتوقَّف فيه ويتثبَّت حتى ينكشف له ذلك الوهمُ بنُور الحقِّ، فإن كان لله أمضاه، وإن كان لغير الله استحيا من الله وكفَّ عنه ثمَّ لام نفسه على رغبته فيه وهَمِّه به ومَيْله إليه، وأما النَّظرُ عند الشروع في العمل، فذاك مطلوبٌ ليتفقَّد كيفيَّة العمل»[1]. فإن كان موافقاً للسُّنة ومتابعاً لها أمضاه، وإن كان مُغايراً للسنَّة ومخالفاً لها تركه ولام نفسَه على رغبته في عملٍ يخالف السُّنة، "فإنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**(١١٠)﴾ [الكهف]، وقال في سورة البقرة: ﴿**بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**(١١٢)﴾ قال سعيدُ بن جُبير: ﴿**بَلَى مَنْ أَسْلَمَ**﴾ أي أخلص ﴿**وَجْهَهُ**﴾ أي دينَه ﴿**وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾ أي اتَّبَع فيه الرسولَ ﷺ فإنَّ للعمل شرطيْن: أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشريعة فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُتقَبَّل، ولهذا قال ﷺ: "**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً**

---

(١) إحياء علوم الدين(٤٠٠و٤٠٢/٤).

لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١)،

وإن كان العملُ موافقاً للشريعة في الظاهر ولكن لم يُخلص العامل قصده لله فهو أيضاً مردود، كما قال تعالى في المنافقين المرائين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً(١٤٢)﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ(٧)﴾ [الماعون]»(٢)، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ(١٨)﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ(٤٠)﴾ [النور]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٢٦٤)﴾ [البقرة].

وقد كثُرَ في القرآن الكريم والشريعة الأمر بالإخلاص قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ(٢)﴾ [الزمر]، وأمر رسوله ﷺ أن يصدع بهذا الأمر فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ

---

(١) م(١٧١٩/١٣٤٣/٣)، خ تعليقاً(٣/٣٥٥)، بزيادة في أوله.

(٢) تفسير ابن كثير(١٥٤و١٥٥/١) بتصرف.

عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤)﴾[الزمر]، وقد أمر اللهُ تعالى المؤمنين بما أمر به خاتمَ النبيين فقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ(١٤)﴾[غافر]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٦٥)﴾ [غافر]، وبذلك أمر اللهُ تعالى الأولين فقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ(٥)﴾ [البينة]، وقال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ(١٣)﴾[الشورى]، قال أبو العالية: "وصَّاهم بالإخلاص في عبادته"[١]، لكنَّهم لم ينقادوا للأمر ولم يُخْلِصوا دينَهم لله، وهدانا اللهُ لذلك دُونَهم ولذلك أَمَر رسولَ الله أن يقول لهم: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ(١٣٩)﴾ [البقرة]، يعني وأنتم به مشركون ثمَّ تزعُمونَ أنَّكم أَوْلى بالله مِنَّا فكيف يتم ذلك.

عَنْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ "[٢].

فمن أخلص دينَه لله آتاه اللهُ ثوابَ الدنيا وحُسْنَ ثوابِ الآخرة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا (٩)﴾ [الإنسان]، قال مجاهد وسعيد بن جبير: والله ما قالوها بألسنتِهم ولكنَّ الله اطَّلع على ذلك في قلوبهم فأثنى عليه[٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى(١٤)لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى(١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى(١٦)وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى(١٧)الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨)

---

(١) فتح الباري (١/١١).

(٢) متفق عليه :خ(١/٩/١)، م(١٩٠٧/١٥١٥/٣)، د(٢١٨٦/٢٨٤/٦)، ت(١٦٩٨أ١٠٠/٣)، جه(٤٢٢٧/١٤١٣/٢)، ن(١/٥٩).

(٣) تفسير ابن كثير(٤/٤٥٥).

وَمَا لأَحَد عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى(١٩)إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّـهِ الأَعْلَـى(٢٠)وَلَسَـوْفَ يَرْضَى(٢١)﴾ [الليل].

ومَنْ أخلص دينَه لله أثابه اللهُ على كل عمل أتاه ولو كان لنفسه فيه حَـظٌّ وشَهْوة، ولذلك قال ﷺ : "**إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ**"(١) وقال لسعدِ بنِ أبي وقّاص وقد دخل عليه يعودُه وهو مريض: "**إِنَّكَ لَـنْ تُنْفِـقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَـمِ امْرَأَتِـكَ**"(٢)، وقال ﷺ : "**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا**"(٣)، فإذا نوى الرَّجلُ بالمعاشرة إعفافَ نفسهِ وامرأتهِ وطلبَ الذريَّةِ الصّالحةِ كان له أجر، ومن أخلص نيَّته لله ثمَّ عجز عمـا أراد من العمل فله الأجر وإن لم يعمل:

عَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ قَالَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " مَنْ سَـأَلَ اللَّـهَ الشَّـهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ "(٤)، ولمَّا حثَّ ﷺ على الجهاز لغزوة تبوك جاءه الفقراء يسألونه أن يحملهم **﴿قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَـا أَحْمِلُكُـمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ(٩٢)﴾** [التوبـة]، فلمَّا رجع ﷺ من تبوك قال:" **إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلاَ وَادِيًا إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ "**(٥)، وفي رواية: " **إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالاً مَا سِرْتُمْ**

---

(١) متفق عليه :خ(٥٥/١٣٦/١)، م(١٠٠٢/٦٩٥/٢).

(٢) متفق عليه:خ(٥٦/١٣٦/١)،م(١٦٢٨/١٢٥٠/٣)، د(٢٨٥٧/٦٤/٨)، ت(٢١٩٩/٢٩١/٣)

(٣) م(١٠٠٦/٦٩٧/٢).

(٤) م(١٩٠٩/١٥١٧/٣)، د(١٥٠٦/٣٨٣/٤)، ت(١٧٠٥/١٠٣/٣)، جه(٢٧٩٧/٩٣٥/٢).

(٥) خ(٢٨٣٩/ /٦).

مَسِيرًا وَلاَ قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلاَّ كَـانُوا مَعَكُـمْ حَبَسَـهُمُ الْمَـرَضُ» وفـي روايـة «**إِلاَّ شَرِكُوكُمْ فِي الأَجْرِ**»(١).

وقال ﷺ : «**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَـلُ مُقِيمًـا صَحِيحًا**»(٢).

عَنْ أَبِي كَبْشَةَ الأَنَّمَارِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَـا الـدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِـلُ فِيـهِ رَحِمَـهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَـالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِـهِ فَأَجْرُهُمَـا سَوَاءٌ وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْـرِ عِلْـمٍ لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلاَ يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَـثِ الْمَنَـازِلِ وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالاً وَلاَ عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيـهِ بِعَمَـلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ»(٣).

فعلى كل مسلمٍ أن يُخلِصَ نيته لله في كل عمل يعمله فإنَّ الأجرَ والثَّـوابَ لايترتَّب على صالح العمل إلاَّ إذا كان خالصاً لله كما قال تعالى: ﴿**لاَ خَيْرَ فِـي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّـاسِ وَمَـنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**(١١٤)﴾ [النساء]، وليحـذَر المسلمُ من الرِّياء فإنَّه أخطر داء يُبْتَلى به، ولذلك قال ﷺ : «**إنَّ أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر،قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء**»(٤).

---

(١) م(١٩١١/١٥١٨/٣).

(٢) خ(٢٩٩٦/٢٣٦/٦).

(٣) صحيح :[ص.ت:٢٣٢٥]، ت(٢٤٢٧/٣٨٥/٣)، جه(٤٢٢٨/١٤١٣/٢).

(٤) صحيح :[ص.ج:١٥٥١]، البغوي (٤١٣٥/٣٢٣/١٤).

وهو أن يبتغيَ الإنسانُ بعمله غيرَ الله، كأن يبتغيَ مدحَ الناس أو منزلةً عندهم أو مكانةً عندهم ونحوَ ذلك من المقاصد السَّيئة التي يقصدها المراؤن، فمن راءى فقد حبط عمله وليس له عند الله أجر ولا ثواب، لأنَّ الله تعالى قال: « **أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ** »(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»(٢).

وصدق الله العظيم ﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)**﴾ [هود]

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ لاَ

---

(١) م(٤/٢٢٨٩/٢٩٨٥).

(٢) م(٣/١٥١٣/١٩٠٥).

يَتَعَلَّمُهُ إِلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَعْنِي رِيحَهَا »[١].

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ»[٢].

أمَّا المتابعةُ لرسولِ الله ﷺ في الأعمال حتى تكون نحواً من عمله ﷺ فقد أمر اللهُ بها فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي (٣١)﴾ [آل عمران]، فمن كان لرسول اللهِ متَّبعاً كان للهِ مُحِبّاً، والعكس بالعكس، وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)﴾ [الأعراف]، فمن كان لرسولِ الله مُتَّبعاً كان مُهْتَدِياً، ومن لم يتَّبعْه فقد ضلَّ سواءَ السبيل، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)﴾ [القصص]، ولذلك قال ابنُ مسعود: « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاَءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً وَيَحُطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةً وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»[٣].

---

(١) صحيح:[ص.د:٣١١٢]، د(١٠/٩٧/٣٦٤٧)، جه(٢٥٢/٩٢و١/٩٣).

(٢) حسن:[ص.ت:٢٦٥٤]، ت(٢٧٩٢/١٤٠و١٤١/٤).

(٣) م(٦٥٤/٤٥٣/١)، د(٥٤٦/٢٥٤/٢)، جه(٧٧٧/٢٥٥/١)، ن(١٠٨/٢).

لقد بعث الله رسولَه بالهدى ودين الحق يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وجعله المثلَ الأعلىَ والأُسوةَ الحسنةَ والقُدوةَ الطَّيبة، وجعله إمامَ الهدى، وفرضَ على الناس اتِّباعَه وطاعتَه وأَكْثَر عليهم من الأمر بذلك فقال تعالى: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**(٥٤)﴾[النور]، وقال تعالى: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ**(٣٢)﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**(١٢)﴾ [التغابن]، وجعل سبحانه طاعةَ الرسولِ طاعةً لله فقال: ﴿**مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**(٨٠)﴾ [النساء]، ومفهومُها ومن يعص الرسولَ فقد عصى الله، وقد صرَّح الرسولُ بذلك فقال: « **مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ** »[(١)] ، والله تعالى يقول: ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا**(٣٦)﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ**(١٤)﴾ [النساء]، وقبل ذلك قال: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**(١٣)﴾ [النساء]، فمن أراد الوصولَ فعليه باتِّباع الرسول، فلا وصولَ من غير طريق الرسول كما قال الإمامُ الجنيد: الطُّرقُ كلُّها مسدودةٌ إلاَّ طريقَ من اقتفى أثرَ محمدٍ ﷺ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قال لرسوله : وعِزَّتي وجلالي لو أَتونْي من كلِّ طريقٍ واستفتَحوا من كل بابٍ ما فتحتُ لهم حتى يدخُلوا خَلفَك، ومصداقُ ذلك قولُ النبي ﷺ : « **كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى قَالَ مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى** »[(٢)]،

فيا عبادَ الله عليكم بالسنة فاتَّبِعُوها، واجعلوها الحاكمةَ عليكم، وإذا استطاع أحدُكم أن لا يَحُكَّ رأسَه إلاَّ بأثرٍ فليفعل،«**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ**

---

(١) متفق عليه : خ(١٣/١١١/٧١٣٧)، م(٣/١٤٦٦/١٨٣٥)، جه(٢/٩٥٤/٢٨٥٩).
(٢) خ (١٣/٢٤٩/٧٢٨٠).

بِدْعَةٌ وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ »[(١)].

وإذا هَمَّ أحُدكم بالأمر فليسأل نفسَه قبل الشروعُ سؤالين: لِمَ، وكيفَ، فـإِنْ كان الجوابُ للهِ و على مِلَّةِ رسولِ الله فليفعل، وإلاَّ فَلْيُرِحْ نفسَه من عناءِ عَمَـلٍ يعود عليه بسخطِ الله والنار .

نسأل الله أن يرزقنا الإخلاصَ في السرِّ والعلانية، والمتابعةَ لرسولِه ﷺ في الصغيرة والكبيرة .

* * *

(١) صحيح :[ص.د:٣٨٥١]، د(٤٥٨٣/٣٥٨/١٢)، ت(٢٨١٦/١٤٩/٤)، جه(٤٢/١٥/١).

الكافرون هم الظالمون

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٧)﴾ [البقرة].

قال ابنُ منظور: « الكفرُ لغةً: تغطيةُ الشيء تغطيةً تستهلكه ،

قال الليثُ: يُقال إنَّما سُمِّيَ الكافرُ كافراً لأنَّ الكفرَ غطَّى قلبَه كلَّه، قال الأزهري: معنى قول الليث هذا يحتاجُ إلى بيان يدلُّ عليه، وإيضاحُه أنَّ الكفرَ في اللُّغةِ التَّغطيةُ، والكافر ذو كفر أي ذو تغطية لقلبه بكفره، كما يقال للابس السلاح كافر، وهو الذي غطَّاه السلاح، ومِثْلُه رجلٌ كاسٍ أي ذو كسوة، وماءٌ دافق ذو دفق .

قال: وفيه قولٌ أحسنُ مما ذهب إليه، وذلك لأنَّ الكافر لما دعاه اللهُ إلى توحيده فقد دعاه إلى نعمة وأحبَّها له إذا أجابه إلى ما دعاه إليه، فلما أبى ما دعاه إليه من توحيده كان كافراً نعمةَ الله أي مغطِّياً لها بإبائه حاجباً لها عنه،والكفر نقيض الإيمان »(١).

وقد أطلق الكفرُ وما يُشْتَقُّ منه مقابلَ الإيمان وما يُشتَقُّ منه في القرآن الكريم في كثيرٍ من الآيات وفي سورة البقرة في مواضع منها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(٢٦)﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَءَامِنُوا

---

(١) لسان العرب(١٤٤-٥/١٤٦).

بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ(٤١)﴾،

وقال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ(٨٥)﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ(٨٨)﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ(٩١)﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٠٤)﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ(١٠٨)﴾، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا(١٠٩)﴾، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(١٢١)﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الأَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٢٦)﴾، وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا(٢١٢)﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ(٢٥٣)﴾، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥٧)﴾ [البقرة]،

فإذا أُطْلِقَ الكفرُ مقابلَ الإيمان، وكان الإيمانُ أَن تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه، كان الكفرُ هو الكفرُ بهذه الجملة أو بأحدها ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا(١٣٦)﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا

لِلَّه وَمَلائِكَتِه وَرُسُلِه وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (٩٩)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِه وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِه وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١)﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّه وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِه كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِه وَمَنْ يَكْفُرْ بِه مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ (١٧)﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥)﴾ [الرعد]، كما يدخلُ في الكفرِ التكذيبُ بشيءٍ مما جاء به النبيُّ ﷺ مما عُلِمَ من الدِّين بالضرورة، أو استحلالُ ما ثبتت حُرْمته من الدِّين بالضرورة، كمن جحدَ وجوبَ الصلاة والزكاة مثلا، أو أنكر حُرْمَة الرِّبا والزنا ونحو ذلك.

والكفرُ أربعةُ أنواع: كفرُ إنكار، وكفرُ جحود، وكفرُ معاندة، وكفرُ نفاق: فأمَّا كفر الإنكار: فهو أن يكفرَ بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يُذْكَر له من التوحيد، كالذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [البقرة] أيَّ الذين كفروا بتوحيد الله.

وكفرُ الجحود : هو أن يعترفَ بقلبِه ولا يُقِرَّ بلسانه ككفر إبليس وفرعون وكفر اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِه (٨٩)﴾ [البقرة]، وقال الله تعالى في فرعون وملائه: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا

سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا (١٤)﴾ [النمل]، وقال تعالى في مشركي العرب: ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾** [الأنعام].

وأَمَّا كفر المعاندة : فهو أَن يعرف اللهَ بقلبه ويُقِرَّ بلسانه ويأبى أَن يقبل كأبي طالب الذي قال:

ولقد علمتُ بأَنَّ دينَ محمَّدٍ من خيرِ أديانِ البريَّةِ ديناً
لو لا الملامةُ أو حَذَارِ مَسَبَّةٍ لوجدتَني سَمْحاً بذاكَ مبيناً

ومع ذلك أبى أَن يُسلم ويُعلن إيمانَه.

وأَمَّا كفر النفاق: فهو أن يُقِرَّ بلسانه ويكفرَ بقلبه»(١).

وإذا كان الإيمانُ عند الإطلاق يشملُ الإسلام، ويُطْلَقُ الإسلامُ ويُراد به الإيمان، فكذلك الكفر عند الإطلاق يشمل النِّفاقَ، ويُطْلَقُ النِّفاقُ ويُراد به الكفر، ويُطلقُ الشركُ ويرادُ به الكُفر، فالكُفرُ والشِّرْكُ والنِّفاقُ إذا أطلق لفظٌ منها شَمِلَ ما سواه. قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾** [النساء]، وقال تعالى: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١)﴾** [البينة].

والكفرُ بالله ضلالٌ مبين، وظُلْمٌ عظيم، يحُبِطُ الأعمالَ ويوجب الذُّلَّ والخسران، والخُلودَ في النيران ، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)﴾** [البقرة]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلاَلاً بَعِيدًا (١٦٧)﴾** [النساء] وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ**

(١) انظر لهذه الأنواع: تفسير البغوي(١/٤٠)، لسان العرب(٥/١٤٤)، نضرة النعيم(٥٤٤٤-١١/٥٤٤٥).

وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا(١٣٦)﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٥٤)﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(١٣)﴾ [لقمان]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا(٤٨)﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا(١١٦)﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨)إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩)﴾ [النساء]، ولذلك يقول الله تعالى يوم القيامة لزبانية جهنم: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ(٢٣)﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا(١٠٦)﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ(١٨)﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ(٤٠)﴾ [النور]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(٢٣)﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ(٦٦)﴾ [الزمر].

لذلك كان الكفرُ أكبرَ الكبائر حتى قال العامَّةُ ليس بعد الكفر ذَنب، وأكَّد الرسولُ ﷺ ذلك بقوله: " أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثَلاَثًا؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ "(١)،

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ ...... "(٢)،

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: " أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ ...... "(٣).

وهؤلاء الكافرون أعداءُ الله والله عدوُّهم، وهم أولياءُ الشيطان: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا(١١٩)﴾[النساء]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥٧)﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ(٩٨)﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ(٣٢)﴾[آل عمران].

ومع ذلك فإنَّ الله تعالى يدعوهم إلى التَّوبة والإنَابة والانتهاء عن الكفر والدُّخولِ في الإيمان فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١)خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ

---

(١) متفق عليه: خ(٥/٢٦/٢٦٥٤)، م(١/٩١/٨٧)، ت(٣/٣٧٥/٢٤٠١).

(٢) متفق عليه: خ(٥/٣٩٣/٢٧٦٦)، م(١/٩٢/٨٩)، د(٨/٧٧/٢٨٥٧).

(٣) متفق عليه: خ(٨/١٦٣/٤٤٧٧)، م(١/٩٠/٨٦)، ت(٥/١٧/٣٢٣٢)، د(٤٢٢،١/٢٢٩٣).

الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ(١٦٢)﴾ [البقرة] فقوله تعالى ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ شرطٌ في دخولهم النار، فلو أسلموا أنجاهم اللهُ من النار كما قال تعالى: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(١٩٢)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ(٣٨)﴾ [الأنفال]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩)إِلاَّ مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(٧٠)﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا(١٤٦)﴾ [النساء]، فمن استجاب لهذه الدعوة فقد فاز ونجى، ومن رفض الاستجابةَ حال اللهُ بيْنَه وبين قلبه وعطَّل حواسَّه عن الانتفاع بالمواعظ بعد ذلك كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٦)خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٧)﴾ [البقرة]، وإنَّما كان الخَتْمُ بعد كفرهم وإصرارهم عليه ورفضهم الدعوة الموجهة إليهم للإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ(٨٨)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ(٥)﴾ [الصف]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١١٠)﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً(١٥٥)﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ(٣)﴾ [المنافقون]، والختم على القلوب هو الاستيثاق منها حتى لا يدخلها خيرٌ ولا يخرج منها شرٌّ، وذلك أشبه بما يُعرف بالشَّمع الأحمر، والختم على السمع كالختم علي

القلوب، وجملة ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ(٢٣)﴾ [الجاثية]، ولذلك كان الكفَّارُ كما وصفهم الله ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ(١٨)﴾ [البقرة]، فهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يفقهون ولذلك شبَّههم اللهُ بالأنعام فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ(١٧١)﴾ [البقرة]، «والنَّعق صَوْتُ الراعي بالغنَم ومعناه: مَثَلُك يا رسولنا ومَثَل الكفَّار في وعْظِهم ودعائهم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ كمثَل الرَّاعي الذي ينعق بالغنم وهي لا تسمع»(١).

هذا الكفرُ الذي وصفناه هو ما سمّاه العلماءُ الكفرَ الأكبر وهو الموجِبُ للخلُود في النار خلوداً ليس له نهاية كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦)يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ(٣٧)﴾ [المائدة]، وهناك أعمالٌ محرَّمةٌ في الشرع أطلقَ عليها الشَّارِعُ اسمَ الكفر تنفيراً منها وتحذيراً لهم من اقترافها، وذلك مثْلُ قولِ الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ(٤٤)﴾ [المائدة]، وقولِ النبي ﷺ:

« الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاَةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»(٢)،

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»(٣)،

---

(١) تفسير البغوي(١/١٩٦).

(٢)صحيح :[ص.جه:٨٨٤]، جه(١/٣٤٢/١٠٧٩)، ت(٤/١٢٥/٢٧٥٦)، ن(١/٢٣١).

(٣)متفق عليه :خ(١/١١٠/٤٨)، م(١/٨١/٦٤)، ت(٤/١٣١/٢٧٧٢)، جه(١/٢٧/٦٩).

(٤)صحيح :[ص.ت:٢١٩٣]،ت(٣/٣٢٩/٢٢٨٩)، جه(٢/١٣٠٠/٣٩٤٢).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»(٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ : «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»(١).

وهذا الكفرُ هو المرادُ بالكفرِ الأصغر الذي أطلقه العلماءُ على هذه الأعمال التي يقع فيها المسلم، وعلى ذلك ترجم الإمامُ البخاريُّ في صحيحه في كتاب الإيمان فقال: « بَاب كُفْرَانِ الْعَشِيرِ وَكُفْرٍ دُونَ كُفْرٍ» ثم أسند عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ يَكْفُرْنَ قِيلَ أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ قَالَ: يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ »(٢).

قال الحافظُ في الفتح: « قال القاضي أبو بكر بن العربي في شرحه: لا يُراد الكفرُ المُخْرِجُ من المِلَّة»(٣)، ثم ترجم البخاريُّ عقب هذه الترجمة ترجمةً أخرى فقال: بَاب الْمَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَلاَ يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلاَّ بِالشِّرْكِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ(٤٨) ﴾ [النساء]»(٤)، ثم ثلَّث: بقوله: بَاب ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا(٩) ﴾ [الحجرات] فَسَمَّاهُمُ الْمُؤْمِنِينَ»(٤)، قال الحافظ: « قولُه المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفُر صاحبُها إلاَّ بالشرك: يعني أَنَّ كُلَّ معصيةٍ تؤخذ من تركِ واجب أو فعلِ مُحرَّمٍ

---

(١) م(٦٧/٨٢/١).

(٢) متفق عليه :خ(٥١٩٧/٢٩٨/٩) ،م(١٩٠٧/٦٢٦/٢)،ن(١٤٦ـ١٤٨/٣).

(٣) فتح الباري(٨٣/١).

(٤) فتح الباري(٨٤/١).

فهي من أخلاق الجاهلية، والشركُ أكبر المعاصي ولهـذا اسـتثناه ، ومُحَصِّـلُ الترجمة أنَّه لمَّا قدَّم أنَّ المعاصي يُطْلَقُ عليها الكفرُ مجازاً على إرادة كُفْرِ النِّعمة لا كُفْرِ الجُحود أراد أن يُبيِّن أنَّه كفر لا يخرج عن الملة خلافاً للخوارج الـذين يكفِّرون بالذنوب، ونَصُّ القرآن يردُّ عليهم وهو قولُه تعالى: ﴿**وَيَغْفِـرُ مَـا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**(٤٨) ﴾ [النساء] فصير ما دون الشرك تحتَ إمكان المغفرة، والمرادُ بالشرك في هذه الآية الكفر، لأن من جحد نُبُوَّة محمد ﷺ مثلاً كان كافراً ولو لم يجعل مع الله إلها آخر، والمغفرُة منفيَّةٌ عنه بلا خلاف، وقد يَرِدُ الشِّرْكُ ويُرادُ به ما هو أخصُّ من الكفر كما في قوله تعالى: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِـنْ أَهْـلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ**(١)﴾ [البينة] "(١).

واستدل البخاريُّ أيضاً على أنَّ المؤمنَ إذا ارتكب معصيةً لا يكفر بأنّ الله أبقى عليه اسم المؤمن فقال تعالى: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا**(٩) ﴾ ثـم قال: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**(١٠)﴾ [الحجرات] فسماهم المؤمنين مع الاقتتال ومـع قول النبي ﷺ :« **لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»(٢)، ومـع شديد الوعيد الذي جاء في القرآن في حَقِّ قتل المؤمن قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَقْتُـلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**(٩٣)﴾ [النساء]، ومع ذلك أثبت لهم أخوَّة الإيمان، كما أثبتها للقاتل مع أولياء المقتول فقال تعالى: ﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**(١٧٨)﴾ [البقرة]، ثم ترجم البخاريُّ بعد ذلك فقال: **بَاب ظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ** ثـم أسند **عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ** ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْـمٍ**(٨٢)﴾ [الأنعام] **قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَيُّنَا لَـمْ يَظْلِـمْ فَـأَنْزَلَ اللَّـهُ عَـزَّ وَجَـلَّ**

---

(١) فتح الباري (٨٤ و ١/٨٥) .

(٢)صحيح :[ص.ت:٢١٩٣]،ت(٢٢٨٩/٣٢٩/٣)، جه(٣٩٤٢/١٣٠٠/٢).

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(١٣)﴾ [لقمان]، قال الحافظ: " قولُه باب ظُلْمٍ دون ظلم أي بعضُها أخصُّ من بعض وهو في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ(٤٤)﴾ [المائدة] فاستعمله المؤلِّفُ ترجمةً، واستدلَّ بالحديث المرفوع، ووجه الدِلالةِ منه أَنَّ الصَّحابَة فَهِمُوا من قوله "بظلم" عُمومَ أنواع المعاصي ولم يُنْكِرْ عليهم النبيُّ ﷺ وإنَّما بيَّن لهم أنَّ المرادَ أعظمُ أنواع الظلم وهو الشرك، فدلَّ على أَنَّ الظلمَ مراتبُ متفاوتة، ومناسبة إيراد هذا عقب ما تقدم من أن المعاصي غير الشرك لا يُنْسَبُ صاحبُها إلى الكفر المُخْرِجِ عن الملة على هذا التقرير ظاهرة "(١).

* * *

---

(١) فتح الباري (١/٨٧) .

لا ترجعوا بعد إيمانكم كفارا

قال تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢١٧)﴾ [البقرة].

الرِّدَّةُ لُغةً: "هي الرجوعُ في الطريق الذي جاء منه، ومنه قولُه تعالى في حَقِّ موسى وفتاه: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا(٦٤)﴾ [الكهف]، قال الخطَّابي: الرِّدَّةُ اسمٌ لُغَوِيٌّ لكلِّ من انصرَف عن أمرٍ كان مُقْبِلاً عليه. وسُمِّي المرتَدُّ بذلك لأنَّه ردَّ نفسَه إلى كفره.

والرِّدَّةُ في الاصطلاح: هي رجوعُ المُسْلِمِ عن الإسلامِ إلى الكفر"(١).

وفي هذه الآية يحِّذر اللهُ تعالى المسلمين المؤمنين من كيد الكافرين الذين يحسدُونهم على ما آتاهم اللهُ من فضله، ويَسْعَوْن جادِّين لإزالة هذه النِّعمة عن المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ (١٠٥)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ(١٠٩)﴾ [البقرة] ، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ(٢)﴾ [الممتحنة]، وقال تعالى:﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ

---

(١) نضرة النعيم(١٠/٤٥٣٢).

وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (١٢٠)﴾ [البقرة]، وقد بيَّن سبحانه أنهم يبذلون جُهدَهم ويُنفقون أموالَهم لهذه الغاية وما هم ببالغيها فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)﴾ [الأنفال]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا (٢١٧)﴾ [البقرة]، وهذا الشرطُ عُنوان العَجْزِ يعني أنَّهم لن يستطيعوا أن يردوُّكم عن دينكم وإنْ قاتلوكم، لأنَّ الإيمانَ إذا خالطت بشاشتُه القلوبَ لا يرجع عنه صاحبُه سُخْطَةً له، كما قال هرَقْل لأبي سُفيان وقد سأله عن أتبْاعِ النبيِّ ﷺ "أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ"(١)، ولذلك قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ (٤١)﴾ [المائدة]، فلا يرجعُ عن دينه إلاَّ مَن آمنَ بلسانه ولم يدخلِ الإيمانُ قلبَه، وأولئك لا يستحقُّون الحُزْنَ عليهم، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)﴾ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦)﴾ [آل عمران].

وهذا التعبيرُ من اللطيفِ الخبير ﴿وَلاَ يَزَالُونَ﴾ "يكشفُ عن الإصرارِ الخبيث على الشرِّ وعلى فتنةِ المسلمين عن دينهم بوصفها الهدفَ الثابتَ المستقرَّ لأعدائهم، وهو الهدفُ الذي لا يتغيَّر لأعداءِ الجماعة المسلمةِ في كلِّ أرضٍ وفي كلِّ حين.

---

(١) متفق عليه : خ(٧/٣١ـ١/٣٣)،م(١٧٧٣/١٣٩٣ـ٣/١٣٩٧).

إنَّ وجودَ الإسلام في الأرض هو بذاته غَيْظٌ ورُعْبٌ لأعداء هذا الدِّين ولأعداءِ الجماعةِ المسلمة في كلِّ حين، إنَّ الإسلامَ بذاتهِ يُؤْذيهم ويَغيظُهم ويُخيفُهم، فهو من القوَّةِ ومن المتانةِ بحيثُ يخشاه كُلّ مُبْطِل، ويَرْهَبُه كلُّ باغٍ، ويكرهُه كُلُّ مُفْسد. إنَّه بذاته وبما فيه من حَقٍّ أبلج، ومن مَنهجٍ قويم، ومن نظامٍ سليم. إنَّه بهذا كلِّه حربٌ على الباطل والبَغْي والفساد. ومِنْ ثَمَّ لا يُطيقه المُبطلون البُغاة المفسدون. ومِنْ ثَمَّ يرصدون لأهله ليفتنوهم عنه، ويردُّوهم كفاراً في صورة من صور الكفر الكثيرة. ذلك أنهم لا يأمنُون على باطلِهم وبَغْيِهم وفسادِهم، وفي الأرضِ جماعةٌ مُسْلِمةٌ تؤمن بهذا الدِّين، وتتَّبِعُ هذا المنهج، وتعيش بهذا النظام.

وتتنوع وسائلُ قتال هؤلاء الأعداءِ للمسلمين وأدواتُه، ولكنَّ الهدفَ يظلُّ ثابتاً أن يردُّوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا،وكلما انكسر في يدهم سلاحٌ انْتَضَوا سلاحاً غيرَه، وكلما كلَّت في أيديهم أداةٌ شَحذُوا أداةً غيرها»[١].

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ(٢٠)﴾ [البروج]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٣٠)﴾ [الأنفال].

وقد نهى اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين عن طاعةِ الكافرين وحذَّرهم من الركون إليهم فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ(١٥٠)﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا

---

(١) في ظلال القرآن (٣٣٠و١/٣٣١).

الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(١٠٢)﴾[آل عمران] وقال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ(١١٣)﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ(٥٤)﴾ [المائدة]، واشتدَّت لُغُة التَّهديد حتى صاحبَها التحذيرُ فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢١٧)﴾ [البقرة].

ومتى يكون المسلم مرتداً ؟

إنَّ أحسنُ ما يُجاب به عن هذا السؤال قولُ الإمامِ الطَّحاويِّ رحمه الله : "ونُسَمِّي أهلَ قبلَتنا مسلمينَ مؤمنينَ ما داموا بما جاء به النبيُّ ﷺ معترفين وله بكل ما قال وأخبر مصدِّقين، ولاُ نكفِّر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحلّه، ولا يخرجُ العبدُ من الإيمان إلاَّ بجحود ما أدخله فيه "(١)، فكل من شهد أن لا إله إلاَّ اللهَ وأنَّ محمداً رسولُ الله خالصاً بها قلبُه، ورَضِيَ بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً فهو مسلمٌ مؤمنٌ لا يخرج عن دينه ولا يصيرُ مُرتَداً عنه إلاَّ بجحود التوحيد أو النبوة، أو بصدور قولٍ أو فعلٍ منه يناقض ما يُعلنُه من الإسلام كإنكار ما عُلِمَ من الدِّين بالضرورة من أركان الإسلام والإيمان، أو استحلال الحرام، أو تحريم الحلال، وكَسَبِّ الدِّين والرَّبِّ والنَّبيِّ، والاستهزاء بالكتاب والسنة أو شيءٍ من الدِّين، أو ادِّعاء النبوة ونحو ذلك"(٢).

---

(١) العقيدة الطحاوية تعليق شيخنا الألباني(٣٨-٤٢) .

(٢) فقه السنة(٣٨٤و٢/٣٨٥).

فمن فعل من ذلك شيئاً وهو بالغٌ عاقلٌ مختارٌ مؤثراً الكفرَ على الإيمان صار مرتداً، يستتيبهُ العلماءُ المعتبرون منْ قبل السُّلطان فإن تابَ تابَ اللهُ عليه فإن كان حَسنَ النيَّة وتاب ظاهراً وباطناً عاد إلى إسلامه وعفا اللهُ عنه لقوله تعالى: ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(٨٧)خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ(٨٨)إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٨٩)**﴾ [آل عمران]. **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ أَسْلَمَ ثُمَّ ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِالشِّرْكِ ثُمَّ تَنَدَّمَ فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ سَلُوا لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ فَجَاءَ قَوْمُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ فُلاَنًا قَدْ نَدِمَ وَإِنَّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَنَزَلَتْ ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأَسْلَمَ»**(١).

وفي قول الطحاوي: "ولا نكفِّر أحداً من أهل القبلة بذنبٍ ما لم يستحلَّه" تنبيهٌ على أنَّ المعاصيَ لا تكون كفراً بمجرد ارتكابها إلاَّ أن يستحلَّها العبد فإن استحلَّها بقلبه فقد كفر وإن لم يرتكبها، ومن ارتكبها من غير استحلالٍ فهو عاصٍ إن تاب تاب اللهُ عليه، وإن لم يتب فأمرُه إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذَّبه لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ(٤٨)**﴾ [النساء].

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَجْلِسٍ فَقَالَ : " تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلاَ تَزْنُوا وَلاَ تَسْرِقُوا وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ أَصَابَ

---

(١) صحيح الإسناد : [ص.ن:٤٠٧٩]، ن(٧/١٠٧).

شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ»(١).

ولذلك قال الطحاويُّ: "وأهلُ الكبائر من أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ في النار لا يُخلَّدون إذا ماتوا وهم مُوَحِّدون وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله مؤمنين وهم في مشيئته وحُكْمِه إن شاء غفرَ لهم وعفا عنهم بفضله كما ذكر عزَّ وجلَّ في كتابه ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**(٤٨)﴾ [النساء]، وإن شاء عذَّبهم في النار بعدْله ثمَّ يُخْرِجُهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ثمَّ يبثعهم إلى جنته، وذلك بأنَّ الله تعالى تولَّى أهلَ معرفته ولم يَجْعلْهم في الدَّارين كأهل نُكْرَته الذين خابوا من هدايته ولم ينالوا من ولايته "(٢).

فإن تاب وإلاَّ حكم الحاكمُ بقتله، لقوله ﷺ : "**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**"(٣)،

وقوله ﷺ : "**لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ أَحَدُ ثَلاَثَةِ نَفَرٍ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالثَّيِّبُ الزَّانِي وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**"(٤).

فإذا قُتِلَ المرتدُّ عومل معاملةَ موتى الكافرين: لا يُغسَّل ولا يُكفَّن ولا يُصلَّى عليه ولا يُدْفَنُ في مقابر المسلمين ولا يَرِثُه أقاربُه المسلمون.

إنَّ مسألة التَّكفير من أخطرِ المسائل التي ابتُليتَ بها الأمة، ففرَّقت جمعَها ومزَّقت شملَها، وخرج بسببها بعضُهم على بعض فسفَكوا الدِّماءَ وقتلوا الأبرياءَ،

---

(١) متفق عليه:خ(٨/٦٣٧/٤٨٩٤)، م(٣/١٣٣٣/١٧٠٩)، ت(٢/٤٤٧/١٤٦٧).

(٢) العقيدة الطحاوية (٤٥) .

(٣)خ(١٢/٢٦٧/٦٩٢٢)، ت(٣/٩/١٤٨٣)، د(١٢/٣/٤٣٢٩)، جه(٢/٨٤٨/٢٥٣٥)، ن (١٠٤و١٠٥/٧) .

(٤) متفق عليهخ(١٢/٢٠١/٦٨٧٨، م(٣/٣٠٢/١٦٧٦)، ت(٢/٤٢٩/١٤٢٣)، ن(٩٠و٩١/٧) جه(٢/٨٤٧/٢٥٣٤) .

وسَلَبُوا الأموالَ واستحلُّوا الأعراض، والواجبُ على من يحذرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّه أن يُعظِّم حُرمات المسلمين لأنَّ حُرْمةَ المسلم أعظَم من حرمة الكعبة كما قال ابن عمر(١)، وأن لا يتتبَّع عورات المسلمين وزلاَّتهِم وهفَواتِهم، ويشغلَ بالَه بمن دخلَ في الإسلام وبمن خرجَ منه، ويُنَصِّبَ من نفسه قاضياً عليهم وحاكماً، لأنَّ هذا من شأن كبار العلماء لا دخلَ فيه لطالب علم فضلاً عن العامة، ولأنْ يُخْطِئَ العبدُ في الحُكم بإسلام مائة كافرٍ خيرٌ له من أن يُخْطِئَ في الحُكم بكفرِ مسلمٍ كما رُوِيَ عن الإمام مالكٍ أنه قال: "مَنْ صدرَ عنه ما يحتملُ الكُفْرَ من تسعةٍ وتسعين وجهاً ويحتملُ الإيمانَ من وجهٍ حُمِلَ أمره على الإيمان"(٢)، وذلك لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: "**أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لأَخِيه كَافِرٌ فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا**"(٣)، وفي رواية "**مَنْ دَعَا رَجُلاً بِالْكُفْرِ أَوْ قَالَ: عَدُوَّ اللَّهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلاَّ حَارَ عَلَيْه**"(٤)، ففي هذه الأحاديث وما ورد موردَها أعظمُ زاجرٍ وأكبرُ واعظٍ عن التسرُّعِ في التكفير، وقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا**(١٠٦)﴾[النحل] فلابُدَّ مِنْ شَرْحِ الصَّدرِ بالكفرِ وطُمأنينة القلب به، وسُكونِ النَّفس إليه، فلا اعتبارَ بما يَقعُ من طوارئ الشر، لا سيِّما مع الجهلِ بمخالفتِها لطريق الإسلام، ولا اعتبارَ بصدُور فِعْل كُفْرِيٍّ لم يُرِدْ به فاعلُه الخُروجَ إلى مِلَّةِ الكفر، ولا اعتبارَ بلفظٍ يلفَظُ به المسلمُ يدلُّ على الكفر وهو لا يعتقد معناه.

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ!

---

(١) حسن: [ص.ت:٢٠٣٢]، ت(٢١٠١/٢٥٥/٣).

(٢) فقه السنة(٢/٣٨٤).

(٣) متفق عليه خ(٦١٠٤/٥١٤/١٠)،م(٦٠/٧٩/١)،ت(٢٧٧٤/١٣٢/٤)،د(٤٦٦٢/٤٤٣/١٢).

(٤) متفق عليه:خ(٦٠٤٥/٤٦٤/١٠)، م(٦١/٧٩/١).

اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "سُبْحَانَ اللَّهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ"(١)، ومع ذلكَ عَذَرهم ولم يُكفِّرْهم، لأنَّهم لم يُريدُوا بهذه الكلمةِ الخُروجَ عن الإسلام .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ: لَمَّا قَدِمَ مُعَاذٌ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَا هَذَا يَا مُعَاذُ! قَالَ: أَتَيْتُ الشَّامَ فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتِهِمْ فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "فَلَا تَفْعَلُوا فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا "(٢)، ولم يَحْكُمْ النبيُّ ﷺ على معاذ بالكفرِ لسجُودهِ لغيرِ الله لأنه لم يُردْ بذلك السجُودِ الخُروجَ عن الإسلام، فالواجبُ علينا إذا سمعنا شخصاً يقول كلمَة الكفر، أو رأينا شخصاً يفعل فِعْلَ الكفر أن لا نتسرَّع في إطلاق الكُفْرِ عليه بل نقول: قال كلمةَ الكفر، ولكن هل كَفَر أم لا؟ هذا نتركه لأهلِّ الحلِّ والعَقْدِ حتى يُبيِّنُوا له ويستتيبُوه فإنْ تاب قَبلُوا توبته وإن أصرَّ على الكفر حكموا عليه بالرِّدَةِ وقضى عليه القاضي بالقتل لقوله ﷺ : "**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**"(٣) "(٤).

* * *

(١) صحيح :[ص.ت:٢١٨٠]، ت(٢٢٧١/٣٢١/٣).

(٢) حسن صحيح :[ص.جه:١٥٠٣]، جه(١٨٥٣/٥٩٥/١).

(٣) خ(٦٩٢٢/٢٦٧/١٢)، ت(١٤٨٣/٩/٣)، د(٤٣٢٩/٣/١٢)، جه(٢٥٣٥/٨٤٨/٢)، ن (١٠٤و١٠٥/٧).

(٤) القول الفصل المبين (١٠-١٢)

المنافقون هم الفاسقون

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [البقرة].

النِّفاقُ لغةً : «اسمٌ مأخوذٌ من مادة نَ فَ قَ التي تدلُّ على الخروج»، فالنَّفقُ سَرَبٌ في الأرض له مَخْلصٌ إلى مكان، والنَّفق: المسلكُ النافذُ الذي يمكن الخروجُ منه، وعلى ذلك نبَّه القرآنُ الكريم بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧)﴾ [التوبة]، أي الخارجون عن الشَّرع.

قال ابنُ رجب: "والذّي فسَّره أهلُ العلم المعتبرون أنَّ النّفاقَ في اللغـة: من جنس الخداع والمكر وإظهار الخير وإبطان خلافه"[١].

والنِّفاق اصطلاحاً: "هو إظهارُ الإيمانِ باللسانِ وكتمانُ الكُفْرِ بالقلب"[٢].

وهو اسمٌ إسلاميٌّ لم تعرفْه العربُ بالمعنى المخصوصِ به وإن كان أصلُه في اللّغةِ معروفا.

قال ابنُ كثير: نزلت صفاتُ المنافقين في السُّور المدنيَّةِ دون المكيَّةِ لأنَّ مكَّةَ لم يكن فيها نفاقٌ بل كان خلافُه من الناس يظهر الكفرَ مستكرَهاً وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة وكان بها الأنصارُ من الأوْس والخزْرَج وكانوا في جاهليَّتهم يعبدُون الأصنامَ على طريقةِ مُشْركي العرب، وبها اليهودُ من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل بنو قَينُقاع حُلَفاءُ الخزْرَج، وبنو النضير وبنو قريظة حُلفاءُ الأوس، فلمَّا قَدِمَ ﷺ المدينةَ وأسلم مَنْ أسلم مِنَ الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج وقلّ مَنْ أسلم مَنَ اليهود إلاَّ عبدُ الله بن سلام. ولم يكن إذ ذلك نفاقٌ أيضاً لأنه لم يكن للمسلمين شوكةٌ تُخاف بل قد كان ﷺ وادَع اليهودَ وقبائلَ كثيرةً من أصل العرب حوالي المدينة، فلمَّا كانت وقعة بدرٍ العُظمى وأظهرَ اللهُ كلمتَه وأعزَّ الإسلامَ وأهلَه قال عبدُ الله ابنُ أُبَيٍّ بن سلول وكان رأساً في المدينة وهو من الخزرج وكان سيِّدَ الطائفتين في الجاهلية وكانوا قد عزموا على أن يملِّكوه عليهم فجاءهم الخيرُ وأسلموا وانشغلوا عنه فوقع في نفسه من الإسلام وأهلِه، فلمَّا كانت وقعةُ بدرٍ قال هذا أمرٌ توجَّه فأظهر الدُّخولَ في الإسلام ودخل معه طوائفُ ممن هو على طريقته ونِحْلته وآخرون من أهل الكتاب، فَمِنْ ثَمَّ وُجِدَ النِّفاقُ في أهل المدينة ومَنْ حولها

---

(١) جامع العلوم (٣٧٥).

(٢) نضرة النعيم (٥٦٠٤و٥٦٠٥/١١).

منَ الأعراب»(١). وصار الناسُ ثلاثَ طوائف: مؤمنون خُلْص، وكافرون خُلْص، ومنافقون ﴿**مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ**(١٤٣)﴾ [النساء]، وإنَّما هم مؤمنون ظاهراً، وكافرون باطناً، فلَيْسُوا من المؤمنين الخُلْص الذين آمنوا بقلوبهم وألسنتهم ولا من الكافرين الخلص الذين كفروا بقلوبهم وصرَّحوا بكفرهم بألسنتهم، وإنَّما هم مؤمنون ظاهراً، وكافرون باطناً فليسوا من الفريقين، كما قال تعالى:﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ**(١٤)﴾ [المجادلة].

وقد تحدَّث اللهُ تعالى عن الطوائف الثلاثِ في مطلع سُورةِ البقرة، فتحدَّث عن المؤمنين في أربع آيات، وتحدَّث عن الكافرين في آيتين، وتحدَّث عن المنافقين في ثلاثَ عَشْرَةَ آية، استفتحها بقوله:﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ**(٨)﴾ [البقرة]، ثمَّ كذَّبهم بقوله﴿**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**(٨)﴾ [البقرة] كما قال تعالى:﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**(١)﴾
﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا**(٩)﴾ [البقرة] لأنَّ الإيمانَ قولٌ وعَمَل، قولُ القَلْبِ واللِّسان وعَملُ القلب والأركان، والمرادُ بقولِ القلب الاعتقادُ، والمرادُ بقولِ اللِّسان الإقرارُ، فمن اعتقدَ بقلبه ولم يقرَّ بلسانه فهو كافرٌ جاحد، ومن أقرَّ بلسانه ولم يعتقْد بقلبه فهو مُنافق.

ولماذَا يَكْذِبُ المنافقون ويقولُون بأفواههم ما ليس في قلوبهم؟ والجواب ﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا**﴾ «والمخادعة أن يُظْهِرَ المُخَادِعُ لمن يُخادِعُه شيئاً ويُبطنَ خلافَه لكي يتمكَّن من مقصوده»(٢)، أن يُظْهِرَ المحبَّةَ ويُبْطِنَ

---

(١) تفسير ابن كثير(١/٤٧).

(٢) تفسير السعدي(١/٤٨)

العداوة، أن يُظْهِرَ الخيرَ ويُبْطِنَ الشرَّ، أن يظهر الأمانَ ويبطن الغدر، والمنافقون أظهرُوا الإسلامَ وأبطنُوا الكفرَ يُخادِعُون الرَّسولَ والذين آمنوا، والرسولُ والذين أمنوا أولياءُ اللهِ وهو وَليُّهم، من عاداهم فقد عادى الله، ومن خادعهم فقد خادع الله، ومن حاربهم فقد حارب الله، ومن آذاهم فقد آذى الله، ولذلك جعل مُخَادَعةَ المنافقين للرَّسُولِ ﷺ والمؤمنين مُخَادعةً له فقال: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وفي المقابل جعل مُبايعةَ المؤمنين للرَّسُولِ ﷺ تحتَ الشَّجرةِ بيعةَ الرِّضوان مُبايَعةً له فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ(١٠)﴾ [الفتح]، وفي هذه الآية ترغيبٌ للمؤمنين وترهيبٌ للمنافقين وسائر الكافرين، فيها ترغيبٌ للمؤمنين في المحافظة على إيمانهم الذي يُسْكُب في قلوبهم طُمأنينةً لا حَدَّ لها، وهم يرون اللهَ – جلَّ شأنُه–يجعل قضيَّتهم قضيَّتَه، ومعركتَهم معركتَه، وعَدُوَّهم عَدُوَّه، ويأخذهم في صَفِّه، ويرفعُهُم إلى جواره، فأنَّى ينالُهم كيدُ العدوِّ ويضرُّهم خداعُه وهم في هذا الجوار الآمن.

وفي هذه الآية تهديدٌ رهيب للذين يُحاولون خِداعَ المؤمنين والمكرَ بهم وإيصالَ الأذى إليهم، تهديدٌ لهم بأنَّ معركتَهم ليست مع المؤمنين وَحْدَهم إنَّما هي مع اللهِ القويِّ الجبَّار القهَّار، وأنَّهم يُحارِبُونَ اللهَ حين يُحارِبُون أولياءَه، وإنِّما يتصدَّون لنقَمةِ الله حين يُحَارِبُون هذه المحاولةَ اللئيمة، وهذه حقيقةٌ جديرةٌ بأن يتدبَّرها المؤمنون ليَطْمئِنُوا ويثبتُوا ويَمْضُوا في طريقهم لا يُبالُون كيدَ الكائدين، ولا خِداع المخادعين، ولا أذى الشِّريرين، فاللهُ معهم وهو حافظُهم وناصرُهم، وهو حسبُهم وكافيهم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٦٤)﴾ [الأنفال]، فهل يخشى المؤمنون الكافرين بعد ذلك، لا والله، وكيف ؟ ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى

مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(١٥)﴾[التوبة]، وهذه الحقيقةُ جديرةٌ أن يتدبَّرها أعداءُ المؤمنين فيفزَعُوا ويرتاعُوا ويَعْرِفُوا مَنِ الذي يُحارِبُون ويتصدَّون لنِقْمته حينَ يتصدَّوْن للمؤمنين»(١).

ولذلك خُتِمَتِ الآيةُ بقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٩)﴾ [البقرة] « لأنَّ الله لا يتضرَّر بخِداعِهم، وعبادَه المؤمنين لا يضرُّهم كيدُهم شيئاً، فلا يضرُّ المؤمنين أنْ أظهرَ المنافقون الإيمانَ فَسلِمَتْ بذلك أموالُهم وحُقِنَتْ دماؤُهم وصار كيدُهم في نُحورهم وحصل لهم بذلك الخِزْيُ والفضيحةُ في الدنيا، والحُزْنُ المستمرُّ بسبب ما يحصل للمؤمنين من القُوةِ والنُّصرة، ثمَّ في الآخرة لهم العذابُ الأليم المُوجِعُ المُفْجِعُ بسبب كَذِبهم وكُفْرِهم وجُحودِهم، ولكنَّهم لجهلهم وحَماقتهم لا يشعرون بأنَّهم هم المخدوعون المقهورون المغلوبون»(٢).

ولذلك قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ(١٠)﴾ [البقرة]، والقلبُ المريضُ لا يُحْسِنُ أداءَ وظيفته، شأنُه في ذلك شأنُ سائر الأعضاء، كالعيْن المريضةِ لا تُحْسِنُ الرُّؤيَة، والأُذنِ المريضةِ لا تُحْسِنُ السَّمع، وكذلك القلبُ المريضُ لا يُحْسِنُ الاهتداءَ ولا يعرفُ الطريقَ المستقيمَ والنهجَ القويم ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ(٤٥)﴾ [التوبة]، ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ(١٤٣)﴾ [النساء]، ولما كان المرَضُ إذا لم يُعالَج استَفْحَل، وهؤلاء المنافقونَ أهَملُوا قلوبَهم ولم يُعالِجُوها بالقرآنِ الذي جعلَه اللهُ شفاءً لما في الصدور، فعاقبهم اللهُ بزيادة المرض فقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا(١٠)﴾ [البقرة]، ﴿جَزَاءً وِفَاقًا(٢٦)﴾ [النبأ]، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ(٥)﴾ [الصف]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ(٣)﴾ [المنافقون]،

---

(١) في ظلال القرآن الكريم (٤٥و١/٤٦) بتصرف وزيادة.

(٢) تفسير السعدي (٤٨و١/٤٩) بتصرف.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ(١٠)﴾ [البقرة]. في قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ(٨)﴾ [البقرة].

ثمَّ شرح الله شدَّة فساد قُلوبهم التي قَلبَتِ الموازينَ وغيَّرت الحَقائِقَ فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ(١١)﴾ [البقرة] بالنفاق والكذب والمكر والخداع وصَدِّ الناس عن الإيمان﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ(١١)﴾ [البقرة] "فلم يكتفوا بأن يَنْفَوْا عن أنفسهم الإفسادَ، بل تجاوزُوه إلى التبجِّح والتبرير: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ "[1]، وهل رأيتَ فساداً في القلوب أعظمَ من هذا الفساد؟ وهل رأيتَ ضلالاً أضلَّ من هذا الضلال؟ وهل رأيتَ غفلةً أشدَّ من هذه الغفلة؟ وصدق اللهُ العظيم﴿إنهم اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ(٣٠)﴾ [الأعراف]، ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآَخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ(٢٢)﴾ [هود]، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا(١٠٦)﴾ [الكهف]، ولذلك ردَّ اللهُ عليهم ما نَفُوه عن أنفسهم فقال: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ(١٢) ﴾ [البقرة]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ(١٣)﴾ [البقرة]أيّ أَخْلِصُوا بواطنَكم لله واجْعلوها موافقةً لما أقررتُم به بألسنتكم فهذا هو الإيمانُ حقاً الذي آمن به محمدٌ ﷺ وأصحابُه﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ(١٣)﴾ [البقرة] جَمْعُ سفيهٍ وهو الأحمقُ الجاهلُ ضعيفُ الرَّأي سيِّئُ التصرُّف، فجعلوا أنفسَهم العُقلاءَ الراشدين، وجعلوا المؤمنينَ السفهاءَ الأرذلين، وهذا من فسادِ قُلوبِهم أيضاً ولكن متى عَلِمَ الجاهلُ أنه جاهل، ومتى عَلِمَ المجنونُ أنه مجنون، ومتى

---

(١) في ظلال القرآن (١/٤٧).

علم السَّفيهُ أنَّه سفيه، ثمَّ يردُّها اللهُ عليهم فيقول: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ(١٣)﴾ .

ثمَّ يكشف الله تعالى " عن مدى الارتباط بَيْنَ المنافقينَ في المدينةِ وبَيْنَ اليهودِ الحانقين فيقول: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ(١٤)﴾ [البقرة] إنَّهم لا يقفون عند حَدِّ الكذبِ والخداع والسَّفه والادِّعاء إنَّما يَضيفُون إليها الضَّعفَ واللُّؤمَ والتآمرَ في الظلام.

وبعضُ النَّاسِ يحسبُ اللُّؤمَ قُوةً، والمكرَ السَّيِّئَ براعةً، وهو في حقيقته ضَعْفٌ وخِسَّة، فالقويُّ ليس لئيماً ولا خبيثاً، ولا خادعاً ولا متآمراً، ولا غمَّازاً في الخفاء لمَّازاً، وهؤلاءِ المنافقونَ الذين كانوا يَجْبُنُونَ عن المُواجهة، ويتظاهَرُون بالإيمانِ عند لقاء المؤمنين ليتَّقوا الأذى، وليتَّخذُوا هذا الستارَ وسيلةً للأذى.. هؤلاء كانُوا إذا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهم وهم غالباً اليهودُ الذين كانُوا يَجِدُونَ هؤلاءِ المنافقين أداةً لتمزيقِ الصَفّ الإسلاميِّ وتفتيته، كما أنَّ هؤلاءِ كانوا يَجِدُونَ في اليهودِ سَنَدا وملاذًا، هؤلاء المنافِقُون كانُوا ﴿ إِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ بالمؤمنين بما نُظْهِرُه من الإيمان والتصديق. وما أن يَنْتَبِهُوا من مقولَتهم تلكَ حتى يَسْمَعُوا من التَّهديدِ ما يَهُدُّ الرَّواسيَ ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١٥)﴾ [البقرة]، وما أَبْأَسَ مَنْ يَستهزئُ به جبّارُ السموات والأرض وما أشقاه! وإنَّ الخيالَ ليمتدُّ إلى مَشْهدٍ مُفْزِعٍ رهيب، وإلى مصيرٍ تقشعرُّ مِنْ هَوْلهِ القلوبُ وهو يقرأ ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فيدعُهم يَخبطونَ على غيرِ هُدىً في طريقٍ لا يعرفُونَ غايتَه، واليدُ الجبَّارةُ تتلَقفُهم في نهايته، كالفِئْران الهزيلة تتوائبُ في الفَخِّ، غافلةً عن المقْبضِ المكين، وهذا هو الاستهزاءُ الرعيب، لا

كاستهزائهم الهزيل الصغير. ومن هذه الآية أيضاً تتجلّى تلك الحقيقةُ التي ذكرناها من قبلُ حقيقةُ تولّي اللهِ سبحانَه للمعركةِ التي يراد بها المؤمنون. وما وراء هذا التولِّي من طمأنينةٍ كاملةٍ لأولياء الله، ومصير رعيبٍ بِشِعٍ لأعداءِ الله العاملينَ المتروكينَ في عماهُم يَخبْطون، ثمَّ يُصوِّرُ اللهُ تعالى حقيقةَ القوم ومدى خَسارتهم فيقول: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى**(١٦)﴾ [البقرة]، كأغفل ما يكون المتجَّرُون»[١].

« وإذا كانَ من يبذلُ ديناراً في مقابلة درهم خاسراً، فكيفَ بمن يبذلُ جوهرةً ويأخذ بَعْرةً، فكيف بمن يبذلُ الهُدىَ مقابلَ الضَّلالة، واختار الشَّقاءَ على السَّعادة، ورَغِبَ في سافلِ الأمور وترك عَالِيَها ﴿**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**(١٦)﴾ [البقرة]، ﴿**أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**(١٥)﴾ [الزمر]»[٢].

وزيادةً في كَشْفِ حقيقةِ القوم وبيانِ زَيْغهم وضَلالهم ضربَ اللهُ تعالى لهم مَثَليْن فقال: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ**(١٧)﴾ [البقرة]، وذلك مَثَلُ مَنْ آمنَ منهم ثمَّ كفر، كما قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ**(٣)﴾ [المنافقون]، فضربَ اللهُ لهؤلاءِ مثلاً كمثلِ رَجُلٍ دخل مغارةً مُظْلِمَةً في ليلةٍ باردةٍ فاستوقَد مِنْ غيرِهِ ناراً يستضيءُ بها فما هو أن دخلَ المغارةَ وأبصرَ ما فيها وعرَفَ مكانه حتى انطفأت النَّارُ فقام حَيْرانَ لا يدري مِنْ أينَ يخرُج ولا إلى أينَ يذهب، وكذلك المنافِقُونَ لمَّا آمنُوا سَعى نُورُ الإيمانِ بين أيديهم فانْتَفعُوا به ومَشَوا به في الناس، فلمَّا كَفَرُوا فَقدُوا هذا النُّورَ وقامُوا حيارَى في طُغيانهم يَعْمَهُون لا يُبْصِرُون طريقاً ولا يهتَدون سبيلاً فهم ﴿**صُمٌّ**﴾

---

(١) في ظلال القرآن (٤٨و٤٩/١)بتصرف .

(٢) تفسير السعدي (٥٣/١).

لا يسمعون ﴿بُكْمٌ﴾ لا ينطقون ﴿عُمْيٌ﴾ لا يُبصرون ﴿فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ(١٨)﴾ [البقرة] ثمَّ ضرب الله مثلاً آخرَ للفريق الثَّاني من المنافقين وهم الحيارى المتردِّدون الذين ينجلي لهم الحقُّ أحياناً فيهمُّونَ بقبوله، ثمَّ تضعفُ إرادتُهم فينكصُون فقال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ(١٩)﴾ [البقرة] فمَثَلُ هؤلاءِ الحيارَى المتردِّدين كمَثَلِ رَجُلٍ في صحراءَ في ليلةٍ شاتيةٍ ذاتِ رَعْدٍ وبَرْقٍ فهو خَائِفٌ مُسْتَوْحِشٌ إذا سَمِعَ الرَّعْدَ خافَ على سَمْعِه فجعلَ أصابعهَ في أُذُنَيْه، وإذا رأى البرقَ خاف على بصره، وما مَنَع حَذَرٌ من قَدر ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ(٢٠)﴾ [البقرة] لأنَّهم في قَبْضتِه وتحتَ قهرِه ومشيئتِه ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾، وهذا الرَّجلُ في تلكِ الظُّلمَةِ إذا أضاء له البَرْقُ مشى، وإذا أظلم قامَ حَيرَانَ، وكذلك هؤلاء المنافقونَ المذبْذبُون يتجلَّى لهم الحَقُّ فيكادُ يأخذ بقلُوبهم، ثمَّ تغلب ظُلْمةُ قلوبهم نُورَ الحقِّ فينتكسون.

هذا هو النِّفاقُ الذي كان على عهد النبيِّ ﷺ "وهو النِّفاقُ الأكبرُ نفاقُ الاعتقاد" أن يُظْهرَ الرَّجلُ الإيمانَ ويُبطِنَ الكُفْر، وهذا النِّفاقُ كُفْرٌ عظيم، ولذلك يُعذَّب صاحبُه في النَّار أشدَّ من عذاب الكافرين، فإنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ(٦٨)﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(٧٣)﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ(١٣)﴾ [الحديد]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ

جَمِيعًا(١٤٠)﴾ [النساء]

وهكذا أخبر اللهُ تعالى أنَّه مُعَذِّبُ المنافقينَ والمنافقاتِ والمشركينَ والمشركاتِ ثمَّ أخبرَ أنَّ المنافقين أسفلَ من الكافرين في النار فقال: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا(١٤٥)**﴾ [النساء].

ومعلومٌ أنَّ النَّار دركاتٌ أسفلُها أشدُّها عذاباً، وأعلاها أهونُها عذاباً، "وقد فرَّق اللهُ بين عذابِ الكافرينَ والمنافقينَ فوصفَ الأوَّل بكونه عظيماً فقال: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٧)**﴾ [البقرة]، ووصفَ الثاني بكونه أليماً فقال: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ(١٠)**﴾ [البقرة]، قال في المُحْكم: الأليمُ من العذابِ الذي يبلغُ إيجاعُه غايةَ البلوغ، ومنه يُعْلَمُ وجْهُ إيثارِه في عذاب المنافقينَ على عظيمِ المتقدِّمِ في وصف عذابِ الكافرين»(١).

وهناك نوع ثان من النفاق وهو « النفاق الأصغر، نفاق العمل، وهو أن يُظْهِرَ الإنسانُ علانيةً صالحةً ويُبْطِنُ ما يُخالِفُ ذلك، وأصولُ هذا النِّفاق ترجعُ إلى الخِصَالِ المذكورةِ في قولِ النبيِّ ﷺ : «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا وَإِنْ كَانَتْ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فيه كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ**» ، وفي روايةٍ « **إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»(٢)،

قال الحسن البصري: كان يقال: النِّفاقُ اختلافُ السرِّ والعلانيَّة، والقولِ والعمل، والمدخل والمخرج، ومن أعظم خصال النِّفاق العمليِّ أن يعمل الإنسانُ عملاً ويُظهِرَ أنه قصد الخير وإنَّما عَمِلَه ليتوصَّل به إلى غرضٍ سيِّئٍ فيتمَّ له

---

(١) محاسن التأويل (٢/٤٦).

(٢) متفق عليه :خ(٣٤/٨٩/١)، م(٥٨/٧٨/١)، ت(٢٧٦٨/١٣٠/٤)، د(٤٦٦٣/٤٤٣/١٢).

ذلك ويتوصلَ بهذه الخديعة إلى غَرَضه ويفرحَ بمكرِه وخداعِه وحَمْدِ النّاس له على ما أظهرَه ويتوصّل به إلى غرضِه السيِّئ الذي أبطنه، وهذا النِّفاقُ الأصغرُ هو الذي خافه الصَّحابةُ على أنفسهم حتى قال ابنُ أَبي مُلَيكة: **"أَدْرَكْتُ ثَلاَثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ"، عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: " مَا خَافَهُ إِلاَّ مُؤْمِنٌ وَلاَ أَمِنَهُ إِلاَّ مُنَافِقٌ"**[(١)].

ولذلك لمَّا رأى حنظلةُ أنَّ قلبَه يَرِقُّ ويخشَعُ بحضرةِ النبيِّ ﷺ ثمَّ يتغيَّرُ إذا رجع إلى أهله خافَ أن يكون ذلك منه نفاقاً:

عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ قَالَ: وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا قَالَ: أَبُو بَكْرٍ فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا ذَاكَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلاَثَ مَرَّاتٍ"[(٢)(٣)].

---

(١) فتح الباري (١٠٩و١١٠/١).

(٢) م(٢٧٥٠/٢١٠٦/٤)، ت(٢٦٣٣/٧٥/٤)، جه(٤٢٣٩/١٤١٦/٢).

(٣) جامع العلوم(٣٧٥و٣٧٦) بتصرف.

وإذا علمنا أنَّ النِّفاقَ اختلافُ السرِّ والعلانيَّةِ وكان السرُّ الذي في القلب لا يعلمُه إلاَّ اللهُ وجب علينا الاحترازُ من رَمي المسلمِ بالنِّفاق كما يجبُ علينا الاحترازُ من رَمْيه بالكفر، وفي ذلك يقولُ الإمامُ الطَّحاوي رحمه الله: "ولا نُنْزِلُ أحداً منهم جنَّةً ولا ناراً، ولا نَشْهدُ عليهم بكفرٍ ولا بشركٍ ولا نفاقٍ ما لم يظهرْ منهم شيءٌ من ذلك، ونردُّ سرائرَهم إلى الله تعالى. قال الشارح: لأنَّا أُمِرْنا بالحُكْمِ بالظَّاهرِ ونُهِينَا عن اتِّباعِ الظَّنِّ واتِّباعِ ما ليس لنا به علمٌ قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**(١٢)﴾ [الحجرات]، وقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**(٣٦)﴾ [الإسراء]،"(١)

فإن قال قائل: لابُدَّ من تكفير الكافر، لأنَّ الرضى بالكفرِ كفرٌ، ومن لم يكفِّر الكافرَ فهو كافر؟ قلتُ: لا خلافَ في ذلك في الكفر البَواحِ الذي عندكم من الله فيه بُرْهان، فنحنُ نقول: من بلغته الدَّعوةُ من غيرِ المسلمين من طريقٍ صحيحٍ ثابتٍ تقومُ به الحُجَّةُ ثمَّ لم يُسلم فهو كافر، ولا نَرضى بهذا الكفر ولا نُقرُّه بل نسعى جاهدين في دعوة هؤلاءِ الكافرين إلى الإسلام، إنَّما الخلاف في التَّسرُّعِ بتكفير المسلم ورَمْيهِ بِالنِّفاق والزَّندقةِ والإلحاد وهو لم يَشْرَحْ بالكفرِ صدراً، ولم يُؤْثِرِ الكفرَ على الإيمان، فهذا الذي نُحذِّرُ من إطلاقِ اللِّسان في عِرْضِه والقَدْحِ فيه ورَمْيِهِ بالكفرِ والنِّفاق والشِّرك، فنحن لنا الظاهرُ واللهُ يتولَّى السرائر، ولقد اشتدَّ إنكارُ رسولِ الله ﷺ على أسامةَ بنِ زَيْدٍ حين قَتَلَ كافِراً محارباً أثناء الحرب بعد أن قال لا إله إلاَّ الله .

عَنْ جُنْدَبٍ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكُمْ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ بَعْثًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَإِنَّهُمُ الْتَقَوْا فَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا

---

(١) شرح الطحاوية (٤٢٧) .

شَاءَ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى رَجُلٍ منَ الْمُسْلمينَ قَصَدَ لَهُ فَقَتَلَهُ وَإِنَّ رَجُلاً منَ الْمُسْلمينَ قَصَدَ غَفْلَتَهُ قَالَ وكُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْد فَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْه السَّيْفَ قَالَ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ فَقَتَلَهُ فَجَاءَ الْبَشيرُ إِلَى النَّبيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ حَتَّى أَخْبَرَهُ خَبَرَ الرَّجُلِ كَيْفَ صَنَعَ فَدَعَاهُ فَسَأَلَهُ فَقَالَ لمَ قَتَلْتَهُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّه أَوْجَعَ فِي الْمُسْلمينَ وَقَتَلَ فُلاَنًا وَفُلاَنًا وَسَمَّى لَهُ نَفَرًا وَإِنِّي حَمَلْتُ عَلَيْه فَلَمَّا رَأَى السَّيْفَ قَالَ لاَ إِلَهَ إلاَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : «أَقَتَلْتَهُ قَالَ نَعَمْ قَالَ فَكَيْفَ تَصْنَعُ بلاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقيَامَة قَالَ يَا رَسُولَ اللَّه اسْتَغْفرْ لي قَالَ وكَيْفَ تَصْنَعُ بلاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقيَامَة قَالَ فَجَعَلَ لَا يَزِيدُهُ عَلَى أَنْ يَقُولَ كَيْفَ تَصْنَعُ بلاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقيَامَة»[١]

فعلى كُلِّ من كان يحذرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّه أن يعرفَ قَدْرَ نَفْسه، وأن يُمْسِكَ لسانَه عن أَعْراضِ المسلمين ويَغُضَّ الطرْفَ عن عوراتهم «فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِه»[٢].

* * *

---

(١) م(٩٧/٩٧و١/٩٨).

(٢) حسن صحيح : [ص،د:٤٠٨٣]، د(١٣/٢٢٤/٤٨٥٩).

أمراض القلوب وسلامتها

قال تعالى: ﴿**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا**(١٢٢)﴾ [الأنعام].

أي: أَوَ مَنْ كان كافراً مَيِّتَ القلب مغموراً في ظُلمةِ الجهل فَهَديْناه لرُشْدِه ووفَّقناه للإيمانِ وجَعْلنا قلبَه حيّاً بعد موته مُشْرِقاً مستنيراً بعدَ ظُلمتِه، فجعلَ الكافرَ بمنزلةِ الميِّت، والمؤمنَ بمنزلة الحيّ.

وقال تعالى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ** (٦٩) **لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ**(٧٠)﴾ [يس] فأخبر أنَّ الانتفاعَ بالقرآنِ إنَّما يحصل لمن هو حيُّ القلب وأطلق الكافرين في مقابلة الحيِّ، فدلَّ على أنَّهم موتى، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**(٢٤)﴾ [الأنفال] فأخبر سبحانه وتعالى أَنَّ حياتنا إِنَّما هي باستجابتنا لما يدعُونا إليه اللهُ ورسولُه من العلم والإيمان، فعُلِمَ أنَّ موتَ القلب وهلاكَه يَفقْد ذلك، ولذلك شبَّه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور فقال تعالى: ﴿**وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ**(٢٢)﴾ [فاطر] وهذا من أحسن التشبيه فإنَّ أبدانهم قبورٌ لقلوبهم فقد ماتت قلوبُهم وقُبِرَتْ في أبدانهم كما قال القائل:

وفي الجهل قبلَ الموتِ موتٌ لأهلهِ   وأجسامُهم قبلَ القبورِ قبورُ

وأرواحُهم في وحشةٍ من جُسومهم   وليس لهم حتَّى النُّشورِ نشورُ

وهكذا جعلَ اللهُ تعالى القلوبَ قِسميْن: مَيِّتٌ وحيٌّ، وقال في سورة البقرة عن المنافقين: ﴿ **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا**(١٠)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ**

كَافِرُونَ(١٢٥)﴾[التوبة]، وقال تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ(٢٩)**﴾ [محمد].

فصارت القلوبُ على ثلاثةِ أقسام: قلبٍ سليم، وقلبٍ مريض، وقلبٍ ميِّت، وقد جمع اللهُ سبحانه هذه القلوبَ الثَّلاثةَ في قوله: ﴿**لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٣٥) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٥٤)**﴾ [الحج] فجعل سبحانه القلوبَ في هذه الآياتِ ثلاثةً: قلبيْن مفتونيْن، وقلباً ناجياً، فالمفتونَانِ القلبُ المريضُ والقلبُ القاسي، والنَّاجي القلبُ المؤمنُ المخبت إلى ربِّه وهو المطمئِنُ إليه الخاضِعُ له المستسلمُ المنقاد، فالقلبُ السليمُ ليس بينَه وبيْن قبولِ الحقِّ ومحبَّتِه وإيثارِه سوى إدراكِه، فهو صحيحُ الإدراك للحقِّ، تامُ الانقيادِ والقبولِ له.

والقلبُ الميِّت لا يقبله ولا ينقادُ له، والقلبُ المريضُ إنْ غَلب عَلَيْهِ مرَضُه الْتَحقَ بالميِّت، وإنْ غلَبت عليه صِحتُه الْتَحقَ بالسَّليم، ولذلك قال تعالى عن المنافقينَ يومَ أُحُدٍ: ﴿**هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ(١٦٧)**﴾ [آل عمران] فما يُلقيه الشَّيطانُ في الأسماعِ من الألفاظ، وفي القلوبِ من الشُّبَه والشُّكوكِ فتنةٌ للقلبِ الميِّت والقلبِ المريض، وقوةٌ للقلب الحيِّ السليم، لأَنَّه يردُّ ذلكَ ويكرهُه ويُبْغِضُه، ويَعْلَمُ أنَّ الحقَّ في خِلافه، فَيُخْبِتُ للحقِّ ويطمئنُّ وينقاد، ويعلمُ بُطْلانَ ما ألقاه الشيطانُ فيزدادُ إيماناً بالحقِّ ومحبَّةً له وكُفْراً بالباطل وكراهيةً له.

ولا يزال القلبُ المفتونُ في مرضه من إلقاء الشَّيطان، وأَمَّا القلبُ الصَّحيحُ السَّليم فلا يضرُّه ما يُلقيه الشيطانُ كما في الحديث:

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: " تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ

أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»(١)،

فشبَّه عَرْضَ الفِتَن على القُلوبِ شيئاً فشيئاً كعَرْضِ عِيدانِ الحصيرِ شيئاً فشيئاً، وقسَّم القلوبَ عند عَرْضِها عليها إلى قسميْن: قلبٍ إذا عُرِضَتْ عليه فتنةٌ أُشربَها كما يَشْرَبُ الإسفنجُ الماء، فتُنْكَتُ فيه نُكتَةٌ سوداء، فلا يزال يَشْرَبُ كُلَّ فتنةٍ تُعرضَ عليهِ حتى يسودَّ وينتكسَ وهو معنى قوله "**كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا**" أي مكبوباً منكوساً، فإذا اسودَّ وانتكس عرضَ له من هاتيْن الآفتيْن مرَضَانِ خطيرَانِ مترامِيانِ به إلى الهلاك:

أحدُهما: اشتباهُ المعروفِ عليه بالمنكر، فلا يَعرفُ معروفاً ولا يُنكرُ مُنكَراً، وربّما استحكمَ هذا المرضُ حتى يعتقدَ المعروفَ منكراً والمُنكرَ معروفاً، والسُّنَّةَ بدعةً والبِدْعة سُنَّةً، والحقَّ باطلاً والباطلَ حقاً، كما حكَى اللهُ تعالى عن المنافقين: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ(١١)أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ(١٢)وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ(١٣)**﴾ [البقرة].

الثاني: تحكيمُ هواهُ على ما جاء به رسولُ الله ﷺ وانقيادُه للهوى واتِّباعُه له كما قال الله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ(٢٣)**﴾ [الجاثية]،

والقسم الثاني : وقلبٌ أبيضَ قد أشرقَ فيه نورُ الإيمان وأزهرَ مِصْباحهُ فإذا عُرِضَتْ عليه الفتنُ أنكَرها وردَّها فازداد نورُه وإشراقُه وقُوّتُه.

---

(١) م(١٢٨/١٤٤و ١/١٢٩).

فإن قيل: فهل لحياة القلبِ ومرضهِ وموتهِ من علاماتٍ تدلُّ عليه؟ قلنا نعم.

فالقلبُ الصَّحيحُ هو القلبُ السَّليمُ الذي لا ينجو يومَ القيامةِ إلاَّ من أتى الله به، كما قال اللهُ تعالى: ﴿**يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ**(٨٨)**إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**(٨٩)﴾ [الشعراء]،

وهو الذي سَلِمَ من كلِّ شَهْوَةٍ تُخالفُ أمرَ اللهِ ونهيَه، ومن كلِّ شُبْهَةٍ تُعارِضُ خبرَه، فسَلِمَ من عُبوديَّةِ ما سواه وسَلِمَ من تحكيمِ غيرِ رسوله، فَسلِمَ من أن يكونَ لغيرِ اللهِ فيه شرْكٌ بوجهٍ ما، بل قد خَلُصَتْ عبُوديَّتُه للهِ تعالى: إرادةً ومحبَّةً وتوكلاً وإنابةً، وإخباتاً وخشيةً ورجاء، وخَلُص عملُه لله، فإنْ أحبَّ أحبَّ لله، وإنْ أبغضَ أبغضَ لله، وإنْ أعطَى أعطَى لله، وإنْ منَع منَع لله، ولا يكفيه هذا حتى يَسْلَم من الانقيادِ والتَّحكيمِ لكلِّ من عدا رسول الله ﷺ فيعقدُ قلبُه عقْداً مُحْكَماً على الائتمامِ والاقتداءِ به وحده دونَ كلِّ أحدٍ في الأقوالِ والأعمالِ، فيكونُ الحاكمُ عليه في ذلك كلِّه دِقِّه وجِلِّه هو ما جاء به الرَّسولُ ﷺ فلا يتقَّدم بين يديْه بعقيدةٍ ولا قولٍ ولا عملٍ كما قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**(١)﴾ [الحجرات].

ومن علاماتِ صِحَّة القلب: أن يرتحلَ عن الدُّنيا حتى ينزلَ بالآخرةِ ويحلَّ فيها حتى يبقى كأنَّه من أهلِها وأبنائِها جاء لهذه الدار غريباً يأخذُ منها حاجتَه ويعودُ إلى وطنه، كما قال ﷺ لابنِ عُمر: "**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**"(١)

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: " ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً وَارْتَحلَتِ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا

---

(١) خ(٦٤١٦/٢٣٣/١١)، ت(٢٤٣٥/٣٨٨/٣).

فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ وَغَدًا حِسَابٌ وَلاَ عَمَلٌ »(١).

ومنها: أَنَّه لا يزالَ يضربُ على صاحبهِ حتى ينيبَ إلى الله ويُخبتَ إليه ويتعلَّق به تعلُّقَ المُحِبّ المضطَّرِ إلى محبُوبهِ الذي لا حياةَ له ولا فلاحَ ولا نعيمَ ولا سرورَ إلاَّ برضَاهُ وقُرْبهِ والأنُسِ به، فبهِ يطمئن، وإليه يسكنُ وإليه يأوي، وبه يفرحُ وعليه يتوكَّل، وبه يثق، وإيَّاه يرجُو، ومِنْه يخافُ فإذا حصل له ذلكَ سكنَ واطمأنَّ وزَال عنه القَلقُ والاضطِّراب، فالقلبُ السليمُ دائماً يَضرُبُ على صاحبِه ليُنيبَ إلى ربِّه ويُخْبِتَ له حتى يسكنَ القلبُ ويطمئن، فإنّ فى القلبَ فاقةً لا يسدُّها شيءٌ سِوَى الله، وفيه شَعَثٌ لا يلمُّه إلاَّ الإقبالُ عليه وفيه مرضٌ لا يشفيه غيرُ الإخلاصِ له، فإذا سكنَ القلبُ إلى ربِّه واطمأنَّ له باشرَ روحَ الحياة وذاقَ طعمَها، وصار له حياةٌ أخرى غيرُ حياةِ الغافلين المحرومين، ولذلك قال بعض العارفين: «**مساكينُ أهلِ الدُّنيا خرَجوا منها وما ذَاقوا أطيبَ ما فيها قيل: وما أطيبُ ما فيها؟ قال: محبَّةَ اللهِ والأنسُ به والشَّوقُ إلى لقائهِ والتنعُّم بذكرِه وطاعته**» .

وقال أبو الحسن الورَّاق: «**حياةُ القلوب في ذكر الحيِّ الذي لا يموت**» .

ومنها: أن لا يفتُرَ عن ذِكْرِ ربِّه ولا يسأمَ من خِدْمَتِه ولا يأنسَ بغيرِه إلاَّ بمن يدلُّه عليه ويذكِّرُه به ويُذَاكِره بهذا الأنس.

ومنها: أَنَّه إذا فاته وِرْدُه وجدَ لفَواتِه ألماً أعظمَ من تألُّمِ الحريصِ بفواتِ ماله وَفقْده.

ومنها: أَنَّه يشتاقُ إلى حَضْرته كما يشتاقُ الجائعُ إلى الطَّعام والشَّراب، وأَنَّه إذا دخل في الصلاة ذهب عنهُ همُّه وغَمُّه بالدُّنيا، واشتَّد عليه خروُجه منها،

---

(١) فتح الباري (١١/٢٣٥).

ووجد فيها راحتَه ونعيمَه وقُرَّة عينهِ وسُرورَ قلبه.

ومنها: أن يكون همُّه واحداً وأن يكونَ في الله، وأن يكون أشحَّ بوقتِه أن يذهب ضائعاً من أشدِّ الناس شُحاً بماله.

ومنها: أن يكون اهتمامُه بتصحيح العملِ أعظمَ مِنْه بالعمل، وأن يحرص على الإخلاصِ فيه والنَّصيحةِ والمتابعةِ والإحسان، ويشهدَ مع ذلك مِنَّة اللهِ عليه فيه وتقصيرَه في حقِّ الله.

وبالجُملةِ فالقلبُ الصَّحيحُ هو الذي همُّه كلُّه في الله وحُبُّه كلُّه له وقَصْدُه له وبدنُه له، وأعمالُه له، ونومُه له، ويقظتُه له، وحديثُه والحديثُ عنه أشهى إليه من كلِّ حديث، وأفكارُه تحومُ على مراضيهِ ومحابِّه، الخلوةُ به أحبُّ عنده من الخلطة إلاَّ حيث تكون الخلطة أحب إليه وأرضى له، قرة عينه به وطمأنينته وسكونُه إليه، فهو كُلَّما وجَد من نفسه التفاتاً إلى غيره تلا عليها ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨)**﴾ [الفجر] فهو يردِّدُ عليها الخطابَ بذلك ليَسْمَعَهُ من ربِّه يومَ القيامة.

والقلبُ الميت ضِدُّ القلب الحيِّ، فهو لا يعرفُ ربَّه ولا يعبدُه بأمِره وما يُحِّبه ويرضاه، بل هو واقفٌ مع شهَواتهِ ولذَّاتهِ ولو كان فيها سخطُ ربِّه وغضبُه، فهو لا يُبالي إذا فاز بشَهْوتِه وحَظِّه رَضِيَ ربُّه أم سَخِطَ، فهو مُتعبِّدٌ لغير الله: حُبَّاً وخوفاً ورجاءً ورضاً وسخطاً وتعظيماً وذُلاً،إنْ أحبَّ أحبَّ لهواه، وإنَّ أبغضَ أبغض لهواه،وإنْ أعطى أعطى لهواه، وإنْ منَع منع لهواه، فهو آثرُ عنده وأحبُّ إليه من رضى مولاه، فالهوى إمامُه، والشَّهوةُ قائدُه، والجهلُ سائقهُ، والغفلةُ مركبُه، فهو بالفكرِ في تحصيلِ أغراضهِ الدُّنيويَّة مغمورٌ، وبشدَّة الهَوى وحُبِّ العاجلة مخمور، يُنادَى إلى الله والدَّارِ الآخرةِ من مكان بعيد، ولا يستجيبُ لناصح ويتَّبعُ كل شيطانٍ مريد، الدُّنيا تُسْخِطُه وتُرضِيْه، والهَوى يُصِمُّه عما

سوى الباطل ويُعميه فهو في الدُّنيا كما قيل في ليلى:

عدوٌّ لمن عادتْ وسِلْمٌ لأهلِها ومن قرَّبت ليلى أحبَّ وقرّبا

فمُخالطةُ صاحبِ هذا القلبِ سُقْمٌ، ومُعاشَرتُه سُمٌّ، ومجالستُه هلاك

أماالقلبُ المريضُ فهو قلبٌ له حياةٌ وبه عِلَّة، فله مادتَّان تمدُّه هذه مـرةً، وهذه أُخرى، وهو لما غَلَبَ عليه منهما.

ومرضُ القلبِ نوعان: مرضُ شَهْوةٍ ومرضُ شُبْهةٍ، فالأوَّلُ هو الذي قال اللهُ فيه: ﴿**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا(٣٢)**﴾[الأحزاب]، والثَّانى هو الذي قال اللهُ فيه: ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا(١٠)**﴾ [البقرة]، والثاني أخطرُ على القلبِ وأضرّ من الأول، لأنَّ الأوَّل يتعلَّق بالعمل، والثَّاني يتعلَّق بالعقيدة وفسادُ العقيدةِ أخطرُ من فساد العمل، بل إذا فسَدت العقيدةُ فسدَ صالحُ العمل، ولكن إذا صلَحت العقيدةُ فإنَّها بإذن الله تُصْلِحُ ما فسدُ من العمل، ولذلك قال ﷺ : "**أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ**"[(١)]، "وفي ذلك إشارةٌ إلى أَنَّ صلاحَ حركاتِ العبدِ بجوارحِه واجتنابه للمحرَّماتِ واتِّقاءْه للشَّهواتِ بحسَب صلاَحِ قلبه، فإنْ كان قلبُه سليماً ليس فيه إلاَّ محبَّةُ اللهِ ومحبَّةُ ما يُحبُّ وخَشْيَةُ اللهِ وخشيةُ الوقوعِ فيما يكرهُه صلَحتَ حركاتُ الجوارح كلّها ونشأَ عن ذلك اجتنابُ المحرَّمات كلّها وتَوقِّي الشُّبهَاتِ حَذراً من الوقوع في المحرَّمات، وإن كان القلبُ فاسداً قد استولى عليه اتِّباعُ الهوى وطَلَبُ ما يُحِبَّه ولو كَرِهَهُ اللهُ فسدَتْ حركاتَ الجوارح كلّها وانبعَثتْ

---

(١) متفق عليه : خ (١/١٢٦/٥٢)، م (١٥٩٩/١٢١٩و١٢٢٠/٣)، د (٦/١٧٧/٣٣١٣)، ت (١٢٢١/٣٤٠/٢)، جه (٢/١٣١٨/٣٩٨٤).

إلى كلِّ المعاصي والمشتبهات بحسب اتِّباع هوى القلب»(١).

وعلامةُ مرضِ القلبِ أن يتعذَّر عليه القيامُ بما خُلِقَ له من معرفةِ اللهِ ومحبَّته والشَّوق إلى لقائه، والإنابةِ إليه، وإيثارِ ذلك على كلِّ شَهْوة، فمن آثرَ على ربِّه شيئاً منَ المحبُوبات فقلبُه مريض، ولكن قد يمرَضُ القلبُ ويشتدُّ مرضُه ولا يَعْرِفُ صاحبُه لانشغالهِ وانصرافهِ عن معرفةِ صِحَّته وأسبابها، بل قد يموتُ وصاحبُه لا يشعُر بموته، وعلامةُ ذلك أن لا تُؤْلِمَهُ جِراحَاتُ القبائحِ ولا يُوجِعُه جهلُه بالحقِّ وعقائدُه الباطلة، وإنَّ القلبَ إذا كان فيه حياةٌ تألمَّ بورود القبيح عليه وتألَّم بجهله بالحقِّ بحسب حياته، وما لِجُرحٍ بميِّت إيلام.

إنَّ المرضَ إذا أُهْمِلَ استَشْرى واستَفحل، فمن كان في قلبه مرضٌ وجب عليه أن يُبادِرَ بالعِلاج طلباً للشفاء، وإلاَّ عُوقِبَ بزيادة المرض حتى يُفْضِيَ به إلى الهلاك كما قال تعالى في المنافقين: ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا**(١٠)﴾ [البقرة]، ودواءُ القلوب الشافي هو القرآنُ الكريم فقد سمَّاه اللهُ تعالى شفاءً فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**(٥٧)﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**(٨٢)﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ**(٤٤)﴾ [فصلت].

وقد ذكرنا أنَّ مرضَ القلُوب نوعان: أمراضُ الشُّبُهات والشَّهوات، والقرآنُ شفاءٌ للنَّوعين: ففيه من الآياتِ البيِّناتِ والبراهين القطعياتَ ما يبيِّن الحقَّ من الباطل، فتزول أمراضُ الشُّبهةِ المفسدةِ للعلم والتصوُّر والإدراك، بحيثُ يرى الأشياءَ على ما هي عليه، وليس تحتَ أديمِ السَّماء كتابٌ متضمِّنٌ

---

(١) جامع العلوم والحكم (٦٥).

للبراهين والآيات على المطالبِ العاليةِ من التوحيد وإثبـاتِ الصـفاتِ والمعـادِ والنُّبوَّات، وردِّ النِّحلِ الباطلةِ والآراءِ الفاسدةِ مثل القرآن، فإنَّه كفيلٌ بذلك كلِّـه، متضمِّنٌ له على أتمَّ الوجوه وأحسنِها وأقربِها إلى العقول، وأفصحِها بياناً، فهـو الشِّفُاء على الحقيقةِ من أدواءِ الشُّبهِ والشُّكوك، لكنَّ ذلك موقـوفٌ علـى فَهمـهِ ومعرفةِ المرادِ منه ، فمن رزَقه اللهُ تعالى ذلك أبصرَ الحقَّ والباطلَ عياناً بقلبِه ، كما يرى الليلَ والنهار .

وأَمَّا شفاؤه لمرض الشَّهوات فذلك بما فيه من الحكمةِ والمَوْعظَة الحسـنة بالتَّرغيب والتَّرهيب والتَّزهيد في الدُّنيا والتَّرغيـب فـي الآخـرة، والأمثـالِ والقَصصِ التي فيها أنواعُ العِبر والاستبصار، فيرغب القلبُ السـليم إذا أبصـر ذلك فيما ينفعُه في معاشِه ومعادِه، ويرغب عما يضرُّه فيصيرُ القلبُ مُحبًّا للرُّشدِ مُبْغِضاً للغَيّ .

فاقرءوا القرآنَ يا أُمَّةَ القرآن « **اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَـأْتِي يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِه**»(١)، واهتَدُوا بالقرآن يا أُمَّة القرآن ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**(٩)﴾ [الإسراء]، واستَضيئُوا بنورِ القرآنِ يا أُمَّة القرآن ﴿**ولَكِـنْ جَعَلْنَـاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**(٥٢)﴾

﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَـةٌ لِلْمُـؤْمِنِينَ**(٨٢)﴾ [الإسـراء]، وتدبَّروا القُرآن يا أُمَّة القرآن ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ**(٢٩)﴾ [ص].

وإذا كان مدارُ الصِّحَةِ على حِفْظِ القوَّةِ والحِمْيَة عن المؤذي، واسْـتفراغِ الموادِّ الفاسدة، فإنَّ القلب محتاجٌ إلى ما يحفظ عليه قُوتَّه وهـو الإيمـانُ وأورادُ

---

(١) م(٨٠٤/٥٥٣/١).

الطَّاعات، وإلى حِمْيَتِه عن المؤْذي الضَّارَّ وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنواعِ المخالفات وإلى استفراغِه من كلِّ مادَّةٍ فاسدةٍ تَعرض له وذلك بالتوجُّهِ والتضرُّعِ واستِغْفارِ غَافرِ الخطيئات.

ففي دَحْضِ الشَبهِ التي تتعلَّق بالإله من حيثُ الذَّاتُ والأسماءُ والصِّفاتُ يقول تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(٤)**﴾ [الإخلاص]، وقال تعالى: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ(٩١)**﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا(٢٢)**﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿**أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ(٢٢)**﴾ [النحل].

وفي دَحْضِ الشُّبَهِ التي تتعلَّق بالنُّبوَّةِ يقول تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ(١١٩)**﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨)مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ(٢٩)**﴾ [الفتح]، وقال تعالى: ﴿**لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ(١٦٦)**﴾ [النساء]،

وفي دَحْضِ الشبَهِ التي تتعلَّق بالقُرآنِ يقول تعالى:﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢)**﴾ [الشعراء]، ﴿**وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ(٢١٠)**﴾ [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿**فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨)وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ (٣٩)إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ (٤١)وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢)تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٤٣)**﴾ [الحاقة]، وقال تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا(٨٢)**﴾ [النساء].

وفي دَحْضِ الشُّبَهِ التي تتعلَّق بالبَعثِ بعدَ الموتِ يقول تعالى: ﴿**وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا(٦٦)أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ**

وَلَمْ يَكُ شَيْئًا(٦٧)فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا(٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا(٧٠)﴾ [مريم]، وقال تعالى:﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ(٧٧)وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ(٧٨)قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ(٧٩)﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ(٥٧)أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ(٥٨)ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠)عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٦١)وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ(٦٢)﴾ [الواقعة] .

وهكذا تجدُ القرآنَ الكريمَ الدَّواءَ الشَّافِيَ والجوابَ الكافِيَ والرَّدَّ المُفْحِمَ على كلِّ شُبْهةٍ تَعْرِضُ للإنسانِ في دينه .

وكذلك مَرَضُ الشَّهوةِ عالَجَهُ القُرآنُ الكريمُ بما ذكرَ فيه من التَّرْغيبِ والتَّرهيب والقَصصِ والأمثالِ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة ، فتقرأُ في النَّهْيِ عن الزنا ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً(٣٢)﴾ [الإسراء]،

ثم تقرأُ في التوعُّدِ عليه: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (٦٩)﴾ ثم يفتحُ اللهُ بابَ التَّوبةِ فيقول: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا(٧١)﴾ [الفرقان]،

وتقرأُ في القرآنِ الكريمِ عن الخَمْرِ والمَيْسر وهُمَا من الشَّهوات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ

فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ثم يأتي الترهيب والتخويف ﴿ **وَاحْذَرُوا (٩٢)** ﴾ [المائدة]، من العصيان، لَمَّا أمرَ بالطاعةِ ورغَّب جاء بالتحذير من العصيان وخَوَّف ورهَّب .

وهكذا ما من شَهْوةٍ تعترضُ القلبَ وتُفْسِدُه إلاَّ في القرآن الكريم ما يُعالِجُها ويَشْفِي القلبَ منها شفاءً لا يُغادِرُ سَقماً بإذنِ اللهِ حين يُحْسِنُ الإنسانُ الاستشفاءَ بكتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

* * *

صفات الكافرين والمنافقين

قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٢٧)**﴾ [البقرة].

عَرَفْنا أَنَّ أمراضَ القُلوبِ نوعان: مرضُ شَهوةٍ ومرضُ شُبهة، وأَنَّ علاجَ الأمراضِ بنَوْعَيْها في القرآن الكريم، فما مِنْ شهوةٍ إلاَّ وعالجها، وما من شُبْهةٍ إلاَّ وأبطلها القرآنُ وأدْحضَها، وقد تضمَّنتْ هذه الآياتُ شُبْهةً من تلك الشُّبَهِ التي عرَضتْ للكافرينَ والمنافقينَ في كَوْنِ القُرآنِ كلاَمَ اللهِ ربِّ العالمين، وتقرير هذه الشبهة: "أَنَّه قد جاء في القرآن الكريم ذِكْرُ النَحْلِ والذُّبابِ والعنكبُوت والنَّمل، وهذه الأشياءُ لا يليق ذِكْرُها بكلام الفُصَحَاء، فاشْتِمَالُ القُرآنِ عليها يقدَحُ في فَصاحتِه فَضْلاً عن كَوْنِه مُعْجِزاً. فأجاب اللهُ تعالى بأَنَّ صِغَرَ هذه الأشياءِ لا يقدحُ في الفَصاحةِ إذا كان ذِكْرُها مُشْتَمِلاً على حِكَمٍ بالغة"(١). فقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾ "أي لا يَتْرُكُ ضَرْبَ أيِّ مَثَلٍ من الأمثال حياءً منه، سواءٌ كان بعوضةً فما فوقَها أي أصغرَ منها حَجْماً، أو أقلَّ عندَ الناسِ شأناً"(٢)، "لأنَّ الأمثالَ تُضْرَبُ لإيضاحِ الحَقِّ، واللهُ لا يستَحْيي من الحق"(٣) ثم "اللهُ ربُّ الصغيرِ والكبيرِ، وخالقُ البَعُوضَةِ

---

(١) الرازي(٢/١٤٤).

(٢) المنار(١/٤٣).

(٣) السعدي(١/٦٥).

والفيل، والمُعْجِزَةُ في البَعُوضَةِ هي ذاتُها المُعْجِزَةُ في الفيل. إنَّها مُعْجِزَةُ الحيَاة، مُعْجِزَةُ السِّرِّ المُغْلَقِ الذي لا يعلَمُه إلاَّ الله»(١)، «فما استنكَرهُ السُّفهاءُ وأهلُ العِنادِ والمراء، واستَغربُوه من أن تكونَ المُحقَّراتُ من الأشياءِ مضرُوباً بها المثلُ ليس بموضعٍ للاستِنْكارِ والاستِغْرابِ، مِنْ قِبَلِ أنَّ التَّمثيلَ إنَّما يُصَارُ إليه لما فيه من كَشْفِ المعنى، ورفعِ الحجابِ عن الغَرضِ المطلوب، وإدْناءِ المتوهَّم من المُشاهدَ»(٢) «فليس في ذلك مَحلٌّ للاعتراض، بل هو من تعليمِ الله لعباده ورحمته بهم فيجبُ أن يُتلَقَّى بالقبول والشكر»(٣)، والله تعالى يقول: ﴿**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(٢١)**﴾ [الحشر]، ويقول تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ(٤٣)**﴾ [العنكبوت]، والعالِمُون هم المؤمنون والكافرُون لا يعقلون ولا يَعْلَمون، قال تعالى: ﴿**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٥٤)**﴾ [الحج]، وقال تعالى: ﴿**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٦)**﴾ [سبأ]، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ(١٧١)**﴾ [البقرة]، وبيَّن سبحانه أنَّ سببَ إعراضِهم عن الحقِّ هو الجهلُ فقال تعالى: ﴿**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ(٢٤)**﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ(٣٩)**﴾ [يونس]، وكذلك فَعلُوا في الأمثالِ في القرآن: فلمَّا ضربَ اللهُ المثَلَ بالعنكبوتِ والذُّباب قال المُشْرِكونَ: اللهُ أَعْظَمُ من أنَّ يضربَ الأمثالَ بمثل هذه المحقَّرات،

---

(١) في ظلال القرآن (١/٥٧).

(٢) محاسن التأويل (٢/٨٦).

(٣) السعدي (١/٦٥).

ولمَّا ضربَ اللهُ المثلَ للمنافقينَ بالمستَوْقدِ والصيِّب قالوا اللهُ أعلى وأعظمُ من أنَّ يضربَ الأمثالَ بمثل هذه الأشياء التي لا بالَ لها، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ**(٢٦)﴾ [البقرة] فهم بهِ مؤمنون، وله مُسْتَسْلِمُون، يتفكرُّون فيما ضربَ لهم من الأمثال " فإنْ عَلِمُوا ما اشتملتْ عليه على وجْهِ التَّفصيلِ ازدادَ بذلك عِلْمُهم وإيمانُهم، وإنْ خَفِيَ عليهم وَجْهُ الحَقِّ فيها آمنوا أنَّها الحقُّ من ربِّهم وما اشتملتْ عليه حَقٌّ، لعلْمِهم أنَّ الله لم يَضْرِبْها عبثاً بل لحكمة بالغةٍ ونعْمَةٍ سابغة»[١]، ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً**(٢٦)﴾ [البقرة]، وقد قُلْتُ أَنَّ الكفرَ عند الإطلاقِ يشملُ الشِّرْكَ والنِّفاقَ، وقد جمعَ اللهُ بيْن الكافرين والمنافقين في الذِّكْرِ في قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً**(٣١)﴾ [المدثر] "ولم يقل سبحانه: وأمَّا الذين كفروا فإنهم لا يعلمون، ليقابل سابقة، لما في هذا من المبالغة في ذَمهِّم والتنبيهِ بأحسنِ وَجْهٍ على كمال جَهْلهم، لأنَّ الاستِفْهَام إمَّا لعدمِ العلمِ أو للإنكارِ، وكُلٌّ منهما يدلُّ على الجَهْلِ دلالةً واضحة»[٢]، وذلك كقوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ**(١٦)﴾ [محمد].

ثمَّ كشفَ سُبحانَه للجهلةِ عن حِكمته في ضَرْبِ الأمثال فقال تعالى: ﴿**يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا**(٢٦)﴾ [البقرة] أيّ "يُضِلُّ به كثيراً من الكافرين

---

(١) تفسير السعدي(١/٦٥).

(٢) الألوسي (١/٢٠٨).

والمنافقين، ويهدي به كثيراً من المؤمنين. فيزيدُ الأَّولين ضلالةً إلى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علِمُوه حقاً يقيناً من المَثلِ الذي ضربَه الله بما ضرَب لهم وأَنَّهُ لما ضُرِبَ له مُوافِقٌ، ويهْدي به المؤمنينَ فيزيدُهم هدىً إلى هُداهم وإيماناً إلى إيمانهم لتصديقهم بما قد علِمُوه حقّاً يقيناً أَنَّه مُوافقٌ لما ضرَبه الله مثلاً وإقرارهم به»[(١)]، فسبحان من جعل الآيات القرآنيَّةَ سبباً للهداية والإضلال في آنٍ واحد، «فلا أعظمَ نعمةً على العباد من نُزولِ الآياتِ القرآنيَّة، ومعَ هذا تكونُ لقومٍ محْنةً وحَيْرةً وضلالةً وزيادةَ شرٍّ إلى شَرِّهم، وتكونُ لقومٍ منْحةً ورَحمةً وزيادةَ خَيْرٍ إلى خَيْرهم، فسُبحانَ من فاوت بين عباده وانفرد بالهداية والإضلال»[(٢)]، قال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا(٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا(٧٦)**﴾[مريم]، وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ(١٢٧)**﴾ [التوبة].

ثم ذكر حِكْمتَه وعَدْلَه في إضلاله من يُضلُّ فقال تعالى: ﴿**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ(٢٦)**﴾[البقرة] الذين فَسقُوا عن أمرِ ربِّهم وخرَجُوا عن طاعته إلى معصيته، والمرادُ بهم الكافرون والمنافقون لقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٥٥)**﴾[النور]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٦٧)**﴾[التوبة]، وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ(٩٩)**﴾[البقرة]،

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٦٥).

(٢) السعدي(١/٦٦).

وقد أطلق ربُّنا سبحانه "الفاسقون" مقابل "المؤمنون" فقال تعالى: ﴿**مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**(١١٠)﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا**(١٨)﴾ [السجدة]، وسمّى الكافرين فاسقين وقال تعالى: ﴿**وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ**(٨٤)﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿ **استغفر لهم أو لاتستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لايهدى القوم الفاسقين**(٨٠)﴾ [التوبة] وهذا هو الفسقُ الأكبر لأن "الفِسْقَ نوعان: نوعٌ مُخْرِجٌ من الدِّينِ وهو الفِسْقَ المُقْتَضي للخُروجِ من الإيمان كالمذكور في هذه الآيات، ونوعٌ غيرُ مُخْرِجٍ من الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا**(٦)﴾ [الحجرات]"(١)، وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**(٤)﴾ [النور] وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ**(٢٨٢)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿**وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ**(١١)﴾ [الحجرات]،

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ"(٢)، والمراد بالفِسْق هنا الفِسْقُ الأصغر، وكذلك المرادُ بالكُفْرِ الكُفْرُ الأصغر، فالكُفْرُ كُفْران: أكبرُ وأصغرُ، والفِسْقُ فِسْقَانِ أكبرُ وأصغر.

ثم وصفَ الفاسقين الذين أضلَّهم بعَدْله فقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**(٢٧)﴾ [البقرة] فهم لا عَهْدَ لهم كلَّما عاهَدُوا عَهْداً نقضُوه، سواء في ذلك عَهْدُ اللهِ وعَهْدَ العباد، وقد عَهِدَ اللهُ إليهم أن يعبدُوه ولا يُشْرِكُوا به شيئاً

---

(١) السعدي(٦٦و٦٧/١).

(٢) متفق عليه:خ(٤٨/١١٠/١)، م(٦٤/٨١/١)، ت(٢٧٧٣/١٣١/٤)، جه(٦٩/٢٧/١).

فأَبَوْا إلا أن يُشْرِكُوا به شيئاً، وقد عاهدَ رسولُ الله ﷺ اليهودَ حين دخل المدينة فنقَضُوا عَهْدَهم، وعاهدَ المشركينَ يومَ الحُدَيْبَية فنقَضُوا عهدَهم، وعاهد المنافقون ربَّهم فنقضوا عهدهم: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) **فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ**(٧٦)﴾ [التوبة]، ونَقْضُ العَهْدِ يقطعُ الصِّلَة، لأَنَّ المُعاهَدَة صِلَةٌ بين المُعَاهِد والمعُاهَد، فمن نقضَها فقد قطعَ هذه الصِّلَةَ ، ولذلك كان من صفات الفاسقين أنهم ﴿**يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**(٢٧)﴾ [البقرة]،

"وقد أمرنا اللهُ بصِلاَتٍ كثيرةً: أمرَنا أن نَصِلَ ما بيننا وبينَه بالإيمان به والقيام بعبُودِّيته، وأمَرنا أن نَصِلَ ما بيننا وبين رسولِ الله بالإيمانِ بهِ ومحبّتِه وتعزيرِه والقيام بحقوقه، وأَمرنا أن نَصِلَ ما بيننا وبين الوالِدَيْن والأقاربِ والأصحابِ وسائرِ الخلقِ بالقيام بحقوقهم"(١)، "فإذا قُطِعَ ما أمرَ اللهُ به أن يوصل فقد تفكَّكتِ العُرَى، وانحلَّت الرَّوابُط ووقع الفسادُ في الأرض وعمَّت الفوضى. ولذلك كانت الصِّفَةُ الثانيَّةُ من صفات الفاسقين ﴿**وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ**(٢٧)﴾ [البقرة]، والفسادُ في الأرض ألوانٌ شتَّى تنبُع كلُّها من الفُسوقِ عن كَلِمةِ الله، ونَقْضِ عَهْدِ الله، وقَطْعِ ما أمرَ اللهُ به أن يوصل"(٢)، والمُفْسِدُون في الأرضِ لا يُفْلِحُون أبداً ولذلك قال اللهُ تعالى: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**(٢)﴾ [البقرة]، " لأنَّهم استَبدَلُوا النقضَ بالوفاء، والقطعَ بالوصل، والفسادَ في الأرض بالصلاح، والعِقابَ بالثواب، وهذه الصفاتُ مبايِنَةٌ تماما لصفات المؤمنين قال تعالى: ﴿ **أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ** (١٥) **الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ** (٢٠) **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا**

---

(١) السعدي(١/٦٧).

(٢) في ظلال القرآن(١/٥٩).

أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ(٢١)﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(٢٥)**﴾[الرعد]»[١]،

ومن اتَّصف بصفاتِ الكافرينَ والمنافقينَ وعَمِلَ عَمَلَهم دُون أن يعتقدَ مُعْتَقَدَهم ففيه من الكُفْرِ والنِّفاقِ العَمليِّ على قَدْرِ ما يتَّصفُ به من هذه الصفات ويأتي من هذه الأعمالِ ولذلك قال النبيُّ ﷺ : «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»[٢]،

وقَالَ ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ** »[٣]،

قال الحافظُ : قال النوويُّ: هذا الحديثُ عدَّه جماعةٌ من العلماء مُشْكِلاً من حيثُ أَنَّ هذه الخصالَ قد توجَدُ في المسلم المُجْمَعِ على عَدَمِ الحُكْمِ بكُفْره. وليس فيه إشكالٌ بل معناه صحيح، والذي قاله المحقِّقُونَ أَنَّ معناه أَنَّ هذه خِصَالُ نِفَاقٍ وصَاحِبُها شبيهٌ بالمنافقينَ في هذه الخصالِ ومُتَخَلِّقٌ بـأَخْلاقِهم، قـال الحـافظُ: وأحْسَنُ من هذا الجوابِ ما ارْتضَاه القُرْطبيُّ وهو أَنَّ المرادَ بالنِّفاقِ نفاقُ العمل واستدلَّ بقولِ عُمرَ لحُذَيْفَة: هل تعلم أَنَّ فِيَّ شيئًا من النفاق؟ فإِنَّه لم يُـرِدْ بـذَلكَ نِفَاقُ الكُفْرِ وإِنَّما أرادَ نفاقَ العَمَلِ الذي كان الصَّحابَةُ يخْشَوْنَه على أنفُسِـهم»[٤]، كما قال البخاري: **قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ:«أَدْرَكْتُ ثَلاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَالَ الْحَسَنِ:مَا خَافَهُ إِلاَّ مُؤْمِنٌ وَلاَ أَمِنَهُ إِلاَّ مُنَافِقٌ**»[٥].

---

(١) القاسمي(٢/٨٨).
(٢) متفق عليه: خ(١/٨٩/٣٣)، م(١/٧٨/٥٩)، ت(٤/١٣٠/٢٧٦٦).
(٣) متفق عليه: خ(١/٨٩/٣٤)، م(١/٧٨/٥٨)، د(١٢/٤٤٣/٤٦٦٣)، ت(٤/١٣٠/٢٧٦٨).
(٤) فتح الباري (١/٩٠).
(٥) فتح الباري (١٠٩).

يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٢١)﴾[البقرة]. "لمَّا بيَّن اللهُ سبحانه فِرَقَ المكلَّفين وقسَّمهم إلى مؤمنين وكفَّارٍ ومُذَبْذَبين، وقال في الطائفة الأولى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٣)﴾[البقرة]، وقال في الثانية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ(٦)﴾[البقرة]، وقال في الثالثة : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(٩)﴾[البقرة]، وشَرحَ ما ترجع إليه أحوالهم دنيا وأخرى فقال سبحانه في الأولى : ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥)﴾[البقرة]، وقال في الثانية: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٧)﴾[البقرة]، وقال في الثالثة: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ(١٠)﴾[البقرة]، أقبلَ عزَّ شأنُه عليهم بالخطاب"(١)، "وهو من باب الالتفاتِ من الغَيْبةِ إلى الخطاب، وفيه فوائد :

أحدُها : أنَّ فيه مزيدَ هزٍّ وتحريكٍ من السامع كما أنَّك إذا قُلتَ لصاحبك حاكياً عن ثالث: إنَّ فلاناً مِنْ قِصَّته كذا وكذا، ثم قُلْتَ لصاحبك: وأنت يا فلان من حقِّكَ أن تسلُكَ الطريقَة الحميدَة في جميع أُمورك، فهذا الانتقالُ من الغَيْبَةِ إلى الحُضور يُوجبُ مزيدَ تحريكٍ لذلك الثالث.

وثانيها: كأنَّه سبحانه وتعالى يقول: جَعَلْتُ الرسولَ واسطةً بيني وبينَك أوَّلاً، ثم الآن أزيدُ في إكْرامِكَ وتقريبِكَ فأُخاطِبُكَ من غيرِ واسطة، ليحصلَ لك مع النيَّة شرفُ المُخاطَبة والمكالمة.

---

(١) روح المعاني(١/١٨١).

وثالثها: أَنَّه مُشْعِرٌ بأَنَّ العبدَ إذا كان مُنْشَغِلاً بالعُبوديَّةِ فإنَّه يكون أبداً في الترقِّي. بدليلِ أَنَّه في هذِه الآيةِ انتقلَ من الغَيْبة إلى الحُضور.

ورابعها: أنَّ الآيات المتقدِّمة كانت في حكايةِ أحْوالهم، وأمَّا هذه الآياتُ فإنَّها أمرٌ وتكليف، ففيه كُلْفَةٌ ومشقَّةٌ فلابُدَّ من راحةٍ تُقابلُ هذه الكُلْفة، وتِلْكَ الرَّاحةُ هي أَن يَرْفَع مَلِكُ المُلُوكِ الواسِطةَ من النَّبيِّين ويُخاطِبُهم بذاته، كما أَنَّ العَبدَ إذا أُلْزِمَ تكليفاً شاقاً فلو شافهه المولى وقال أرُيدُ مِنْكَ أَن تفعلَ كذا فإنَّه يصبرُ بذاك الشاقِّ لذيذاً لأجل ذلك الخطاب»[(١)].

قال الزمخشري: «فإنْ قلتَ لم كَثُر في القرآن النِّداءُ بهذه الطريقةِ ما لم يكثُر في غيره ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ[(٢١)]﴾ [البقرة]؟ قلت: لاستقلالهِ بأوجُهٍ من التأكيد وأسبابٍ من المبالغة، لأَنَّ كلَّ ما نادى اللهُ له عبادَه من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعْدِه ووعيدِهِ واقتصاصِ أخبارِ الأُمم الدارجةِ عليهم وغيرِ ذلك مما أنطق اللهُ كتابَه أمورٌ عظامٌ، وخطوبٌ جسام، ومعانٍ عليهم أَن يتيقَّظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت الحالُ أَن يُنَادَوا بالآكد الأبلغ»[(٢)].

وقد اختُلفَ في المُراد بالنَّاس الذين ناداهم اللهُ تعالى بنفسِه وأمرَهم بعبادته، فاختار الطبريُّ أَنَّ المرادَ الكافرون والمنافقون وغيرُهم من سائر المشركين، أمرهم بعبادته وحده دون سائر ما يعبدون من الأوثان والأصنام ليكونوا بذلك مع المتقين وهم الصنف الأول الذي تحدَّث عنهم في مطلع السورة الكريمة، فيقيهمُ اللهُ بذلك سخطَه وغضبَه وعقابَه، وذهب غيرُه إلى أَنَّ لفظ الناس عامٌّ وهو يشملَ الطوائفَ الثلاثَ المتقين والكافرين والمنافقين، وأمْرُ الكافرين

---

(١) تفسير الرازي(٩٠/٢).

(٢) الكشاف(٤٤/١).

والمنافقين بالتَّقوى واضح، وأمرُ المتقين بالتَّقوى معناه الأمرُ بالثّباتِ والحِـرْصِ على الزيادة كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّـهَ وَلَا تُطِـعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١)﴾ [الأحزاب]، مع قوله ﷺ : " **أَمَـا وَاللَّـهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ**"(١)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا آمِنُـوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ(١٣٦)﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُـوا اللَّـهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ(٢٨)﴾ [الحديد] فهم مؤمنون مُتَّقُون ومع ذلك يأمرُهم اللهُ بالإيمان والتقوى حثاً لهم على الثَّباتِ والازدياد، كما أخبر سبحانه أَنَّهم مهتدون فقال في وصفهم ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥)﴾ [البقرة]، ومع ذلك أمرهم أن يسألوه الهدايَة في الصلاة بقولهم: ﴿اهْـدِنَا الصِّـرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ(٦)﴾ [الفاتحة] ذلك لأَنَّ ما لم يحصلْ للعبدِ من الهدايةِ أضعافُ أضعافُ ما حصَل له .

وقد جاء الأمرُ للمؤمنين وحدَهم بعبادَةِ ربِّهم في قوله تعالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُـوا وَاسْـجُدُوا وَاعْبُـدُوا رَبَّكُـمْ وَافْعَلُـوا الْخَيْـرَ لَعَلَّكُـمْ تُفْلِحُونَ(٧٧)﴾ [الحج].

وعبادةُ الله هي الغايةُ التي من أجلها خَلَـقَ الخَلْـقَ كمـا قـال تعـالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(٥٦)﴾ [الذرايات]، وبها أرسـل اللهُ الرُّسـلَ وأنزل الكتُبَ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْـهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ(٢٥)﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُـلِّ أُمَّـةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّـهَ وَاجْتَنِبُـوا الطَّـاغُوتَ(٣٦)﴾ [النحـل]، وقـال تعـالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ(٢)﴾ [النحل]،

---

(١)متفق عليه : خ(٥٠٦٣/١٠٤/٩)، م(١٤٠١/١٠٢٠/٢).

وقد اتفقتْ كلمةُ الأنبياءِ في دَعْوة أقوامِهم على ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ(٥٩) ﴾[الأعراف]، وخلَق اللهُ الجنَّة لمن قام بهذه الوظيفة وحقَّق هذه الغاية، وخلَق اللهُ النارَ لمن استكبر عنها قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ(٦٠)﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِه وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْه جَمِيعًا (١٧٢)فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِه وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا(١٧٣)﴾ [النساء].

وقد ذكر أهلُ التفسير أنَّ العبادةَ في القرآن على وجْهَين أحدهما: التوحيد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِه شَيْئًا(٣٦)﴾ [البقرة] أي وحِّدوه .

والثاني: الطاعة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي ءَادَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(٦٠)وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(٦١)﴾ [يس]»(١)،

قال أبو هلالٍ العَسْكري: «الفرقُ بين الطَّاعةِ والعِبادةِ أَنَّ العبادةَ غايةُ الخُضوع، ولا تُستَحقُّ إلاَّ بغاية الإنعام، ولهذا لا يجوز أَن يُعبَد غيرُ الله تعالى، ولا تكون العبادة إلاَّ بمعرفة المعبود: أَمَّا الطَّاعة فهي الفعلُ الواقع على حسَبِ إرادة المريد، متى كان المريدُ أعلى رتبةً ممن يفعل ذلك، وتكون للخالق والمخلوق، كما أَنَّ الطاعةَ لا يصحبُها قصدُ الاِّتباع، كالإنسان يكون مطيعاً للشيطان وإن لم يقصد أَن يُطيعَه ولكنَّه اتَّبع دعاءَه وإرادته»(٢).

---

(١) نضرة النعيم(٣/٢٧٤٣/٧).

(٢) نضرة النعيم(٢/٢٧٤٢/٧).

والعبادةُ لا تنحصرُ في الصلاةِ والصيام ونحوِهما من الشَّعائر الظَّاهرة ولكنَّ « العبادَة اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه اللهُ ويرضاه من الأقوالِ والأعمالِ الباطنةِ والظاهرة ، فالصلاةُ والصيام والزكاة والحجُّ ، وصِدْقُ الحديث والأمانةُ وبرُّ الوالديْن، وصِلْة الأرحام، والوفاءُ بالعهد والأمرُ بالمعروف والنهيُّ عن المنكر ، والجهاد للكفَّار والمنافقين، والإحسانُ إلى الجار واليتيم والمسكين وابنِ السبيل والمملوك من البهائم والآدميِّين، والدُّعاء والذِّكر والقراءةُ وأمثالُ ذلك من العبادة.

وكذلك حُبُّ اللهِ ورسوله، وخشيةُ الله والإنابة إليه وإخلاصُ الدِّين له، والصبرُ على حكمه، والشكرُ لنِعَمه، والرِّضا بقضائه والتوكُّل عليه والرَّجاء لرحمته والخوف من عذابه، وأمثالُ ذلك من العبادة»(١)، وهكذا تمتُّد العبادةُ وتتَّسِعُ دائرتُها لتشمل جميعَ الأقوال والأفعال بل لتشملَ اليقظةَ والمنامَ كما أمر اللهُ رسولَه ﷺ بقوله: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**(١٦٢)﴾ [الأنعام]، ولذلك كان النبي ﷺ **إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ قَالَ:** « **وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ** »(٢)،

قال ابنُ القيم: « والتَّحقيقُ بمعنى قوله « **وَأَنَا عَبْدُكَ** » التزامُ عبُوديَّته من الذُّل والخضوعِ والإنابة، وامتثالُ أمرِ سيِّدْه واجتنابُ نهيه ودوامُ الافتقار إليه واللُّجوءُ إليه والاستعانةُ به والتوكُّل عليه، وعَياذُ العبد ولِياذُه به، وأن لا يتعلَّق قلبُه بغيره محبةً وخوفاً ورجاءً، وفيه أيضاً: أنِّي عبدٌ من جميع الوجوه صغيراً

---

(١) مجموع الفتاوى(١٤٩و١٥٠/١٠).

(٢) م(٧٧١/٥٣٤ـ٥٣٦/١)،ت(٣٤٨١/١٤٩و١٥٠/٥)،د(٧٤٦/٤٦٣ـ٤٦٧/٢)،ن(١٣٠/٢)

وكبيراً، وحيّاً وميِّتاً، مطيعاً وعاصياً، معافاً ومبتلىً، بالرُّوح والقلب واللسان والجوارح. وفيه أيضاً : لا أتصرَّف فيما خوَّلتني من مالي ونفسي إلاَّ بأمرك ، كما لا يتصرَّف العبدُ إلاَّ بإذن سيده، وأني لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً»(١).

فحين يتصوَّر المسلِم هذه المعانيَ ويتحقَّق بها يكون عبداً خالصاً لله ويستشعرُ وهو في مصنعه أنَّه في عبادة، كما يستشعرُ ذلك وهو في المسجد، كما يستشعرُ ذلك أيضاً وهو في مزرعته، وهو في سوقه، وهو في محلِّه أياً كان يستشعر أنَّه عبدٌ لا ينفكُّ عن العبوديَّةِ أبداً أين كان كما يتلبَّس بها في المسجد فهو مُتَلبِّسٌ بها في جميع الأزمنة والأمكنة، حتى في فراشه وهو يأتي شَهْوتَه ويقضي وطرَه يعلم أنَّه في عبادة، فاللهُ هو الذي أمرَه بذلك فقال تعالى: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ(١٨٧)﴾ [البقرة]، وهو الذي بيَّن له مَحَلَّ الإتيان فقال تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ(٢٢٢)﴾ [البقرة]، فهو حيث يلتزم بذلك فهو يطيع اللهَ ويعبدُه، فله على ذلك الأجرُ والثَّوابُ من الله كما قال ﷺ : "**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا**»(٢).

فإذا نام بعد ذلك واحتسب نومَه كان في عبادة، كما قال معاذُ بنُ جبل: " **إِنِّي لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي**" . فإذا أصبح فصلَّى الصُّبحَ ثم خرج إلى عمله فهو في طاعة الله متلبس بعبادته لأنَّه خرج يسعى على رزقه ويطلبه كما أمره ربه﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ**

---

(١) نضرة النعيم(٣/٧٢٧٤٣ من الفوائد).

(٢) م(٦/١٠٠٦/٦٩٧/٢).

رِزْقِهِ(١٥)﴾ [الملك]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ(١٠)﴾ [الجمعة]، وكان بعضُ الصالحين إذا خرج من صلاة الجُمعة قال: "اللهمّ إنِّي قد أجبتُ دعوتَك وأديّتُ فريضتَك وانتشرتُ كما أمرتني فارزقني فأنتَ خيرُ الرازقين"(١)، ولذلك جاء في الحديث:

عن كعب بن عجرة قال: مر على النبي ﷺ رجل فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه فقالوا: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل الله، فقال النبي ﷺ : "إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان"(٢).

هذه هي حقيقةُ العبادة التي هي حقُّ الله على العباد كما في الحديث:

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ كُنْتُ رِدْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ قَالَ: فَقَالَ: يَا مُعَاذُ! تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ قَالَ: قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ: قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَايُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"(٣).

وهذا من فضل العبادة أنَّها تقي صاحبها من العذاب كما قال تعالى:﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوارَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٢١)﴾ [البقرة].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٣٦٧) .

(٢) صحيح : [ص.ج : ١٤٤١] ، طب (١٩/١٢٩/٢٨٢) .

(٣) متفق عليه :خ(٦/٥٨/٢٨٥٦)، م(١/٥٨/٣٠)، ت(٤/١٣٥/٢٧٨١و١٣٦)، جه(٤٢٩٦/ ١٤٣٥و٢/١٤٣٦).

ومن فضلها أنَّها من موجبات الجنة :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ قَالَ: " تَعْبُدُ اللَّهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ الْمَكْتُوبَةَ وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا شَيْئًا أَبَدًا وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُ فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»(١)،

ومن فضلها أنَّها تعصمُ العبدَ من الشيطان﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ(٦٥)**﴾ [الإسراء]، وقد اعترف العدوُّ نفسه أنَّه لا قبلَ له بعباد الله فقال: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ(٨٣)**﴾ [ص]،

ومن فضلها أنَّها تُذْهِبُ الهمَّ والغمَّ في الدنيا ولذلك **كَانَ النَّبِيُّ ﷺ : " إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى »**(٢)، **وكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُول : "وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ»**(٣)،

ومن فضلها أنَّها تُوجب الأمنَ إذا خاف النَّاسُ والفرحَ إذا حزنوا كما قال تعالى:﴿**يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ(٦٨)الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ(٦٩)ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ(٧٠)يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٧١)وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٧٢)لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ(٧٣)**﴾ [الزخرف].

---

(١)متفق عليه :خ(٣/٢٦١/١٣٩٧)، م(١/٤٤/١٤).

(٢)حسن :[ص:د ١١٧١]،د(٤/٢٠٢/١٣٠٥).

(٣)حسن صحيح :[ص:٣٩٤٩]، ن(٧/٦١).

ومن فضلها أنَّها توجب التوفيق كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: "**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**"(١).

ومن فضلها أنَّها توجب محبة الناس كما في الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ"(٢).

ومن فضلها أَنَّ الملائكةَ تحفُّ أهلَها وتَلزَمُ مجالِسَهم فلا تُغادِرُها حتى ينصرفوا هم كما في حديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ"(٣).

وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَلاَئِكَةً سَيَّارَةً فُضُلاً يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا"(٤).

---

(١) خ(٦٥٠٢/٣٤٠و٣٤١/١١).

(٢)متفق عليه :خ(٧٤٨٥/٤٦١/١٣)، م(٢٦٣٧/٢٠٣٠/٤)، ت(٥١٧١/٣٧٨/٤).

(٣) م(٢٦٩٩/٢٠٧٤/٤)مطولاً، د(١٤٤٢/٣٢٨/٤).

(٤)متفق عليه :خ(٦٤٠٨/٢٠٨/١١)، م(٢٦٨٩/٢٠٦٩/٤)، ت(٣٦٧٠/٢٣٧/٥).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ "(١).

عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الْفَرَسُ ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ فَانْصَرَفَ وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَا يَرَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: " اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ فَخَرَجَتْ حَتَّى لاَ أَرَاهَا قَالَ وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟ قَالَ: لاَ قَالَ: تِلْكَ الْمَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لاَ تَتَوَارَى مِنْهُمْ "(٢).

فيا عبادَ الله ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا(٣٦)﴾ [النساء]، في حياتكم ولا عند مماتكم كما حكى اللهُ عن الأنبياء والحُكماء ، قال اللهُ تعالى حكايةً عن لقمان: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لاِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(١٣)﴾ [لقمان]، ومرُوا أهليكم بذلك كما أمركم اللهُ ورسولُه ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(١٣٢)﴾ [طه]، وَ **"مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بِالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ"(٣)**، ووصُّوهم بذلك عند الموتِ اقتداءً بالأنبياء والمرسلين قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا

---

(١)صحيح :[ص.د:٣٠٩٦]، د(٣٦٢٦/٧٥/١٠)، ت(٢٧٨٤/١٣٧/٤).

(٢) خ تعليقاً(٥٠١٨/٦٣/٩).

(٣)حسن :[ص.ج:٥٨٦٨]، د(٤٩١/١٦٢/٢) وهذا لفظه، حم(٨٤/٢٣٧/٢).

تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها (١٣٣)﴾ [البقــرة]، وسلُوا اللهَ أن يُعينَكم على عبادته كمــا وصَّاكم رسولُ الله ﷺ :

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: " يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ فَقَالَ: أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لاَ تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ تَقُــولُ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ"(١).

ولذلك اقترنت الاستعانةُ بالعبادة في السؤال في آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُـدُ وَإِيَّـاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة]، "فعبادةُ الله غايةُ مُرادِهم والوسيلةُ إليها إعانةُ ربِّهم، فهــم يسألونه أَن يُعينَهم عليها ويُوفِّقهم للقيام بها، وهذا هو أعظمُ سُؤالٍ وأنفعُ دعــاء، كما قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميه: تأمَّلتُ أنفعَ الدُّعاء، فإذا هو سُؤال العَوْنِ علــى مَرْضاته، ثم رأيتُه في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ "(٢).

* * *

---

(١)صحيح : [ص.ج:٧٩٦٩]، د(١٥٠٨/٣٨٤/٤)، ن(٣/٥٣).

(٢) تهذيب مدارج السالكين(٦٥).

دلائل التوحيد

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٢١)الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٢)﴾ [البقرة].

"لمَّا أمر اللهُ تعالى النَّاس كافةً بعبادته وحده لا شريك له بيَّن لهم أَنَّ هذا حقُّه عليهم لا يستَحقُّه غيرُه، لأَنَّه خلقَهم وخلَق آباءهم الأوليين، وما يعبدون من دونه لا يخلقُون شيئاً وهم يُخلقون، ومن لا يَخْلُق يكون عاجزاً، والعاجزُ لا يصلح أن يكون إلهاً"[١].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ يعني حين عبَدوا معه غيرَه مِنْ خلقه العَجَزة الضَّعفَة، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٧٤)﴾ [الحج]، فهو المستحقُّ وحدَه للعبادة وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا(٣)﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية(٨٧).

فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩)فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١)وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ(١٩٢)﴾[الأعراف]،

فالذي خَلَق هو الذي يجبُ أَن يُعبَد، ولذلك أنكر الأنبياءُ على المشركين عبادةَ المخلوقين من دون الله ربِّ العالمين فقال الخليلُ إبراهيم: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥)وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ(٩٦)﴾[الصافات]، وقال إلياس: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥)اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَائِكُمُ الأَوَّلِينَ(١٢٦)﴾[الصافات].

ومن دلائل التوحيد: خَلْقُ السموات والأرض ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا(٢٢)﴾[البقرة] سهلاً ممهَّداً مريحاً، قد يتركُ الإنسانُ الفُرُشَ المرفوعةَ وينام على الأرض الموضوعة، فيجد عليها راحتَه بل إنَّ الإنسان قد يمرض فيكون من العلاج أن ينام على الأرض، ولكنَّ "الناسَ ينْسَوْن هذا الفراش الذي مهَّده الله لهم لطول ما ألفوه، ينْسَوْنَ هذا التوافُقَ الذي جعلَه الله في الأرض ليمهِّد لهم وسائلَ العَيْشَ وما سخَّره لهم فيها من وسائل الرَّاحة والمتاع، ولولا هذا التوافُقُ ما قامت حياتُهم على هذا الكوكب في مثل هذا اليُسْرِ والطُّمأنينة"(١)،

والذي جعل الأرضَ فِراشاً هو الذي جعل ﴿السَّمَاءَ بِنَاءً(٢٢)﴾[البقرة]، "فيها متانةُ البناء وتنسيقُ البناء، والسَّماءُ ذاتُ علاقةٍ وثيقةٍ بحياة الناس في الأرض وبسهولةِ هذه الحياة، وهي بحرارتها وضَوْئها وجاذبيَّة أجرامها وتناسُقها وسائر النِّسب بين الأرض وبينها تُمهِّد الحياةَ على الأرض وتُعين عليها"(٢)،

---

(١) في ظلال القرآن(١/٥١).

(٢) المصدر السابق(٥٢).

ومن دلائل التوحيد: المطَر: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ(٢٢)﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤)أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥)ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦)فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧)وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨)وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً(٢٩)وَحَدَائِقَ غُلْبًا(٣٠)وَفَاكِهَةً وَأَبًّا(٣١)مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ(٣٢)﴾ [عبس]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠)يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(١١)﴾ [النحل]، «فالماءُ النَّازلُ من السماء هو مادَّةُ الحياة الرئيسيَّة للأحياء في الأرض جميعاً، فمنه تنشأُ الحياةُ بكلِّ أشكالها ودرجاتها كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ(٣٠)﴾ [الأنبياء] سواءٌ أنبت الزَّرعَ مباشرةً حين يختلط بالأرض أو كوَّن الأنهارَ والبُحيْرات العذبْةَ أو انساح في طبقات الأرض فتألَّفت منه المياهُ الجوفيَّة، التي تتفجَّر عُيوناً أو تُحفَر آباراً، أو تُحفر بالآلات إلى السطح مرة أخرى»(١)، فهذا الماء النَّازلُ من السماء آية من آيات التوحيد ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨)ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩)لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ(٧٠)﴾ [الواقعة]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ(٣٠)﴾ [الملك]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ(١٨)﴾ [المؤمنون]،

ومن دلائل التوحيد في سورة البقرة قولُه تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ

---

(١) في ظلال القرآن(١/٥٢).

فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ الْمُسَخَّرِ ... السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فزاد على ما ذكرنا اختلافَ اللَّيل والنَّهار بالطُّول والقِصَر ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ[١٣]﴾ فيطول النهارُ ويقصر اُللَّيل ﴿ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ[١٣]﴾ [فاطر] فيطولُ اللَّيلُ ويقصرُ النَّهار، ويخلُف كل منهما الآخر بنظامٍ ثابتٍ لا يتغيَّر، كلٌّ ذلك من دلائل التوحيد قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا [٦١] وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا[٦٢]﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ [٣٧] وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [٣٨] وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ [٣٩] لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ[٤٠]﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً[١٢]﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّه يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ [٧١] قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّه يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ [٧٢] وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[٧٣]﴾ [القصص].

ومن دلائل التوحيد السُّفنُ التي تجري في البحر بأمره، فَمَن الذي علَّم الإنسان صُنْعَها؟ ومَن الذي سخَّرها وسيَّرها؟ ومن الذي يحفظُها مِنَ الغَرق ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ

الأَنْهَارَ(٣٢)﴾[إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ(٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣)أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ(٣٤)﴾[الشورى]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١)وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ(٤٢)وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ(٤٣)إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ(٤٤)﴾ [يـس].

ومن دلائل التوحيد الرِّياحُ والسَّحابُ المسخَّرُ بين السماء والأرض ليكونَ المطرُ متى شاء الله، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا(٤٨)﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ(٤٣)﴾ [النور]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(٤٨)﴾ [الروم]،

ولمَّا بيَّن سبحانه وتعالى أَنَّه المستَحِقُّ للعبادة وحده نهاهم عن الشِّرْكِ به فقال تعالى: ﴿ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا(٢٢)﴾ [البقرة] أيّ " أشباهاً ونُظراءَ من المخلوقين فتعبدُونهم كما تعبدُون اللهَ وتُحِبُّونهم كما تُحبُّون الله، وهم مِثْلُكُم مخلُوقون مرزُوقون مدبَّرون لا يملكون مثقالَ ذرةٍ في الأرض ولا في السماء ولا ينفعونكم ولايضرون"(١) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا

---

(١) السعدي (١/٥٨).

يشركون(٤٠)﴾ [الروم]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٢)﴾ [البقرة] جملة حالية متعلقة بالنهي الذي قبلها والمعنى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ "أنَّ الله ليس له شريكٌ ولا نظيرٌ، لا في الخلق والرزق والتدبير ولا في الألوهية والكمال"[1]، وذلك أنَّهم كانوا يعلمون أنَّ الله هو الخالقُ الرازقُ المدبِّر، وكانوا يُقرُّون بذلك ويعترفون به كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ(٨٧)﴾ [الزخرف]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١)اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢)وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(٦٣)﴾ [العنكبوت]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١)فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢)كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ(٣٤)﴾ [يونس]، ومع ذلك جعلوا له أنداداً كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ(١٦٥)﴾ [البقرة] وهذا من أعجب العجب كما قال القائل :

فواعجباً كيف يُعصى الإلهُ ... أم كيف يجحُده الجاحدُ

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنَّه واحدُ

ولذلك جاء هذا التعجُّب في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ

---

(١) السعدي (١/٥٨).

باللَّه وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٢٩)﴾ وتكرَّر مثلُ هذا الإنكار في مواضعَ منها: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(١٢)﴾ [فصلت]، وفي مطلع سورة النحل عـدَّد الله نعمَـه وآياتـه الكونيَّة والإنسانيَّةَ ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ(١٧)﴾، وكـذلك فَعلَ في مَطْلَعِ سُورة الزُّخرف ثم قال منكراً على المشركين ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ(١٥)﴾، وقال فـي مَطْلَـعِ سـورة لقمـان: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ(١١)﴾.

وهكذا "جمعتْ هذه الآيةُ بين الأمرِ بعبادة الله وحده والنَّهْيِ عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجُوبِ عبادته وبُطلانِ عبادة ما سواه. وهو ذِكْرُ توحيد الرُّبوبيَّةِ المتضمِّنِ انفرادَه بالخلق والرِّزق والتدبير، فإذا كان كلٌّ أحدٍ مقراً بأنَّه ليس له شريكٌ في ذلك فكذلك فليكن الإقرارُ بأنَّ الله ليس لـه شـريكٌ فـي عبادته، وهذا أوضحُ دليلٍ عقليٍّ على وحدانيَّة الباري تعالى وبُطلان الشرك"[١].

إنَّ جَعْلَ الأنداد للهِ أكبرُ الكبائر وأعظمُ الذنُّوب:

---

(١) السعدي(٥٨).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ »(١)،

وَعَنْهُ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ »(٢).

واتِّخاذُ النِّد على قسمين: شِرْكٌ أكبر لا يُغْفرَ: وهو أن يجعلَ العبدُ لله شريكاً في المحبّة والرَّجاء والخوْفِ والدُّعاء، والتعظيم والإجلال، والتوكُّلِ والإنابة، والخَشْيةِ والاستعانة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ(١٦٥)﴾[البقرة]، "فأخبرَ سبحانَه أنَّ من أحبَّ مع الله شيئاً غيرَه كما يُحبُّه فقد اخذ نِداً من دونه، وهذا هو العَدْلُ المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ(١)﴾[الأنعام] أيّ يعدلون به غيرَه في العبادة فيسوُّون بينَه وبين غيرِه في الحُبِّ والعبادة، وقد أخبر سبحانه أنَّهم سيندمون على هذه التسوية فقال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤)وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ(٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦)تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٩٨)﴾[الشعراء]، ومعلومٌ أنَّ هذه التسويةَ لم تكن بينَهم وبين اللهِ في كونِهم خَالقيهم فإنَّهم كانوا مقرِّين بأنَّ الله وحده هو ربُّهم وخالقُهم، وإنَّما كانت هذه التسويةُ بينهم وبينَ الله في المحبَّة والعبادة، فمن أحبَّ غيرَ الله تعالى وخافه ورجاه وذلَّ له كما يُحبُّ الله ويخافُه ويرجوه فهذا هو الشِّرْكُ الأكبر الذي لا يغفره الله"(٣)، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ

---

(١) متفق عليه خ(٨/١٦٣/٤٤٧٧)، م(١/٨٠/٨٦)، ت(٦/١٧/٣٢٣٢)، د(٦/٤٢٢/٢٢٩٣).
(٢) خ(٣/١١٠/١٢٣٨).
(٣) القاسمي(٢١و٣/٢٢).

تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٢٤)﴾ [التوبة]، ولذلك كانت أركانُ العبادة ثلاثةً: المحبَّةُ والرَّجاءُ والخوف، فمن رجي شيئاً أو خافه دون أن يُحبَّه ويخضعَ له ويَذلَّ فليس عابداً، فكانت المحبة هي الأصل ولذلك خصَّها بالذكر.

والثاني: شركٌ أصغر ومنه: الرِّياء، وقولُ الرَّجُل للرَّجُل ما شاءَ اللهُ وشئتَ، عن ابن عباس في قوله الله عزوجل: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ قال: الأنداد هو الشِّرك أخْفَى من دبيب النَّمل على صفاةٍ سوداءَ في ظلمةِ الليل، وهو أن يقول واللهِ وحَياتِك يا فلان وحَياتي، ويقول لولا كلبةُ هذا لأتانا اللصوصُ البارحةَ، وقولُ الرَّجلُ لصاحبه ما شاء اللهُ وشئتَ، وقولُ الرَّجُل لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً هذا كلُّه به شرك» (١).

* * *

(١) ابن كثير (٥٧و١/٥٨).

أعظم آية في كتاب الله

قال تعالى: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ(٢٥٥)﴾[البقرة].

هذه هي آيةُ الكُرْسيِّ، وهي آيةٌ ذاتُ شأنٍ عظيم، فقد صحّ عن النبي ﷺ أنَّها أعظمُ آيةٍ في كتاب الله عزَّ وجلَّ:

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَا أَبَا الْمُنْذِرِ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ قُلْتُ ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ"(١).

وفيها اسمُ اللهِ الأعظمُ كما في الحديث:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ فِي سُوَرٍ ثَلاَثٍ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَطه"(٢).

أَمَّا البقرة ف ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وأَمَّا آل عمران ف ﴿الم (١) اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ(٢)﴾ وأَمَّا طه ف ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا(١١١)﴾.

---

(١) م(٨١٠/٥٥٦/١)، د(١٤٤٧/٣٣٤/٤).

(٢) حسن: [ص. جه: ٣١١٠] ، جه (٣٨٥٦/١٢٦٧/٢) .

فاسمُ اللهِ الأعظمُ الذي إذا سُئِلَ به أعطى وإذا دُعِيَ به أجاب هو: الحيُّ القيوم، ولذا **كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا كَرَبَهُ أَمْرٌ قَالَ: "يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ"**(١).

ولقد كان النبيُّ ﷺ يحثُّ على قراءة هذه الآيةِ دُبَر كلِّ صلاةٍ فيقول: **"من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلاَّ الموت"**(٢).

وفي الحديث **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ فَفَعَلَ ذَلِكَ ثَلاث، ثُمَّ قَالَ له في الثالثة: لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ(٢٥٥)﴾ حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ قَالَ: مَا هِيَ؟ قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وَقَالَ لِي لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : "أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: لا قَالَ ذَاكَ شَيْطَانٌ"**(٣).

---

(١) حسن :[ص.ت:٣٥٢٤]، ت(٣٥٩٣/٢٠١/٥).

(٢) صحيح :[ص.ج:٦٤٦٤]، طب(٧٥٣٢/١٣٤/٨).

(٣)خ(٢٣١١/٤٨٧/٤) تعليقاً.

قال الزَّمخشري: " فإنْ قلتَ: لِم فُضِّلتْ هذه الآيةُ حتى وردَ في فَضْلِها ماورد؟ قلت: لِمَا فُضِّلَتْ له سورةُ الإخْلاصِ من اشْتِمَالها على تَوحيدِ الله تعالى وتعظيمهِ وتمجيده وصفاته العظمى، ولا مذكورَ أعظمُ من ربِّ العزة، فما كان ذِكْراً له كان أفضلَ من سائر الأذكار "[١].

وقال أبو حيَّان: " ومناسبةُ هذه الآية لِمَا قبلَها أَنَّه تعالى لَمَّا ذكَر أَنَّه فضَّل بعضَ النبيِّين على بعض، وكان تفضيلُ المَتْبوُعِ يُفْهَم منه تفضيلُ التابع، وكانت اليهودُ والنَّصارى قد أحدَثُوا بعد أنبيائهم بِدَعاً في أديْانهم وعقَائِدهم، ونسَبُوا إلى اللهِ تعالى ما لا يجوز عليه، وكان رسولُ الله ﷺ بُعِثَ إلي الناس كافة ومنهم العرب، وكانوا قد اتَّخذوا من دون الله آلهةً وأشْرَكوا، فصار جميعُ النَّاس المبعوثُ إليهم ﷺ على غير استقامةٍ في عقائدهم، وذكر تعالى أنَّ الكافرين هم الظالمون وهم الواضِعُون الشيءَ في غير مواضعه، أتى بهذه الآيةِ العظيمةِ الدَّالة على إفرادِ الله تعالى بالوَحْدانيَّة، والمتضمِّنة صفاتِه العُلا، من الحياةِ والانفرادِ بالمُلك، واستحالةِ كوْنه محلاً للحوادث، ومُلْكِه للسموات والأرض وامتناعِ الشَّفاعةِ عنده إلاَّ بإذنه، وسعَةِ علْمِه، وعدم إحاطةِ أحدٍ بشيء من علمه إلاَّ بإرادته، وباهرِ ما خلَق من الكرْسيِّ العظيم الاتِّساع، ووصفِه بالمبالغةِ في العلوِّ والعظَمة، إلى سائرِ ما تضمَّنَتْه من أسمائه الحسنى وصفاته العلا فنبَّههم بها على العقيدةِ الصحيحة التي هي مَحْضُ التَّوحيد وعلى طَرْح ما سواها"[٢].

وقد اشتمَلتْ هذه الآيةُ على عَشْر جُمَلٍ مستقلَّة، كلُّ جُمْلَةٍ منها تحتاج إلى طولِ بيان، ولولا مخافَة السآمةَ لفعلنا، ولكنَّنا سنحاوِلُ أَنْ نُلمَّ بها كلِّها جملةً واحدة إنْ شاء الله تعالى، فنقول وبالله التوفيق:

---

(١) الكشاف(١/١٥٤).

(٢) البحر المحيط(٢٧٦و٢/٢٧٧).

﴿اللَّهُ﴾ علمٌ على ذاتِ الرَّبِّ تبارك وتعالى، ولم يسمَ به غيرُه.

وجملة ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ خبرٌ عن تفرُّده سبحانه بالإلهيَّة، وأَنَّه لا شريكَ له ولا نِدَّ له، بل هو الله الواحدُ الأحد، الفردُ الصَّمد الذي لا إله إلاَّ هو، أي لا معبودَ بحقٍّ غيرُه، فهو الإلهُ المستَحِقُّ للعبادة دونَ سواه من الآلهة الباطلة.

وبهذه الكلمة أرسلَ اللهُ الرُّسل، وأنزل الكُتبَ، وخلَق الجنَّة لأهلها، والنَّار للمستكبرين عنها قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ(٢٥)﴾ [الأنبياء]،

وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ(٢)﴾ [النحل]،

وقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا(١٧٣)﴾ [النساء]،

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً"(١).

وقوله: ﴿الْحَيُّ﴾ يعني الذي له جميعُ معاني الحياة الكاملةِ من السَّمع والبَصر والقُدْرة وغيرِها من سائر الصفات الذاتيَّة.

---

(١) صحيح : [ص.ت:٣٥٤٠]، ت(٣٦٠٨/٢٠٨/٥).

وحياةُ الله أزليَّة أبديَّة، لا تبدأ من مبدأ ولا تَنْتهي إلى نهاية، فهو الحيُّ الذي لا يموت، وهو الذي يُحْيِ ويُميت، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧)﴾ [الرحمن]،وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾ [القصص].

وقوله: ﴿الْقَيُّومُ﴾ أي: القائمُ بنَفْسِه، المُسْتَغْنِي عن عباده، والقائمِ على كلِّ نفسٍ بما كسبت، فهو سبحانه قائمٌ بتدبير هذا الكوْن وما فيه، وهو قائمٌ بمصالح عبادِه، يَحْفَظُهم ويكلَؤُهم ويرزقُهم، ويُحْصِي عليهم ما يعملون من خيرٍ وشرٍّ، فجميعُ الموجوداتِ مفتقرةٌ إليه وهو غنيٌّ عنها، ولا قِوامَ لها بدوُن أمره، كما قال تعالى: ﴿ ومن آياته أن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ (٢٥)﴾ [الروم].

وقوله: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ لكمالِ حياتهِ وقيُّوميَّته، لا يعتريه نَقْصُ ولا غَفْلةٌ ولا ذُهولٌ عن خَلْقه، بل هو قائمٌ على كل نفسٍ بما كسبت، شهيدٌ على كل شيءٍ لا يغيبُ عنه شيءٌ ولا تخفى عليه خافية، وهذا توكيد لقيامه سبحانه على كل شيء وقيامِ كل شيء به.

والسِّنَةُ هي النُّعاس، والنَّوم أقوى منها، وهذا ترقٍّ في نَفيْ النَّقص، فمن لا تَغْلِبُه السِّنة قد يغلبُه النَّوم فقال سبحانه: ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ .

وقولـه: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فهم جميعاً مِلْكُه وعبيدُه، وهو المالكُ ذو الجلال والإكْرام، صَاحِبُ التَّصرُّف والسُّلطان ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾ [مريم]،

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَديرٌ(٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)﴾ [آل عمران]،

وقال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩)أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ [الشورى].

قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ فالشَّفاعَةُ مُلْكُه: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ (٤٤)﴾ [الزمر]،

ويومَ القيامة يقومُ النَّاس لربِّ العالمين لا يجرؤ أحدٌ أَنْ يسألَه الشَّفاعة، ولذا كلُّ نبيٍّ يقول: "**إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي**»(١).

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا(٣٨)﴾ [النبأ]،

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ(١٠٥)﴾ [هود]،

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى(٢٦)﴾ [النجم]،

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦)لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧)يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨)﴾ [الأنبياء].

---

(١) متفق عليه: خ(٤٧١٢/٣٩٥/٨)، م(١٩٤/١٨٤-١٨٦/١)، ت(٢٥٥١/٤٣-٤٥/٤).

قولـــه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من الأمور المستقبليَّة التي لا نهايـــةَ لهـــا ﴿خَلْفَهُمْ﴾ من الأمور الماضيَة، وهو تعبيرٌ عن العِلْـــمِ الشَّـــامل الكامـــل، المستقصي لكل ما حولَهم فهو يشملُ حاضرَهم الذي بيْن أيديهم، ويشملُ غيْـــبَهم الذي كان ومضى، والذي سيكُون وهو عَنْهم محجوب.

وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَـــا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا(٦٤)﴾ [مريم].

وقد أخبر سبحانه عن إحاطَةِ علْمِه بجميع الأشياء فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾ [الطلاق].

وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِـــي الْبَـــرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْـــبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)﴾ [الأنعام]،

أَمَّا العبادُ فعلْمُهم محدُود، وهو مُستَمَدٌ من علم الله تعالى، ولذا قال تعالى: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ فكلُّ ما وصلَ إليه الإنســـانُ مـــن علمٍ فهو بإذن الله، والله هو الذي فتحَ له بابَ هذا العلم، ولولا إذنُ الله له في هذا العلم لظلَّ جاهلاً، ومع ذلك فإنَّ كثيراً من النَّاس حين يُفْتَحُ لهم بابٌ مـــن العلـــم جديدٌ ينسِبُونه إلى أنفسِهم ويتكبَّرون على الخَلْق بسببه، ويَنْسَون فضلَ الله وأنَّـــه الذي آتاهم هذا العلمَ وفتحَ لهم هذا البابَ وينسَوْن قولَ الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢)﴾ [البقرة].

فالواجبُ على النَّاس إذا فُتِحَ لهم بابٌ عِلْمِ جديدٍ، أو أُذِنَ لهم في معرفةٍ جديدة أَنْ يذْكرُوا فضلَ الله، وأَنْ يشكُروه علىٍ ما علَّمهم، وأَنْ لا يكون هذا العِلمُ سبيلاً إلى التكبُّر في الأرضِ بغَيرْ الحقِّ، فلولا اللهُ ما أحاطُوا بهذا الأمر الجديد عِلْماً، وهم على كَثْرَةِ ما وقَفْوا عليه من العلم لا يزالُ عِلْمُهمْ محدُوداً قاصِراً، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**(٨٥)﴾ [الإسراء].

قوله: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ الكُرْسِيَّ مَوضِعُ القَدَمَيْن من العرش، وهو بالنِّسبةِ للعَرْش كحلَقةِ من حديد أُلْقِيَتْ بينْ ظهرانى فلاةٍ من الأرض، وهو مع هذا وَسَع السمواتِ والأرضَ، فما بالنا بالعرش.

قوله: ﴿ **وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا**﴾ أي لا يُثْقُله ولاَ يكْتَرِثُه حِفْظُ السَّموات والأرضِ ومن فيهما وما بينهما، بل ذلك سَهْلٌ عليه يسيرٌ لديْه، وهو القائِمُ على كلِ نفسٌ بما كسبت الرَّقيب على جميع الأشياء، فلا يَعْزُبُ عنه شيءٌ ولا يغيبُ عنه شيءُ والأشياء كلُّها حقيرةٌ بين يديْه، متواضعةٌ ذليلةٌ صغيرة بالنسبة إليه، وهو الغنيُّ الحميد، الفعَّالُ لِمَا يريد، الذي ﴿**لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**(٢٣)﴾ [الأنبياء]،

وهو القاهِرُ لكلِّ شيء، الحسيبُ على كل شيء.

قوله: ﴿**وَهُوَ الْعَلِيُّ**﴾ بذاتِه على جميع مخلوقاتِه، وهو العليُّ بعظَمة صفاته، وعلوّ القدرة وعلوّ القهر.

وهو: ﴿**الْعَظِيمُ**﴾ الجامعُ لصفاتِ العَظَمة والكبْرياء، والمجدِ والبهاَء، الذي تمجِّدُه القلُوب، وتعظِّمُه الأرْواح، ويعرف العارِفُون أَنَّ عظمةَ كلِّ شيءٍ وإنْ جلَّت عن الصِّفة فإِنَّها مُضْمَحِلَّةٌ في جانب عظَمة العليِّ العظيم .

* * *

أولياء الرحمن وأولياء الشيطان(*)

قال تعالى: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**(٢٥٧)﴾ [البقرة].

« الولِيُّ مأخوذٌ من الوَلْيِ وهو القُرْب، يقال تباعدَ بعْدَ وَلْيٍ أيْ قُرْبٍ، وجلَس مما يلِيني أي يقارِبُني وكُلٌّ من وَليَ أمرَ آخرَ فهو وليُّه»(١)،

ومنه «وليُّ اليتيم الذي يلي أمرَه ويقومُ بكفايته، ووليُّ المرأةِ الذي يلي عقْدَ النِّكاح عليها ولا يدَعُها تستَبِدُّ بعقْد النِّكاح دونه»(٢).

« والوِلايةُ ضِدُّ العداوة، وأصْلُ الوِلايةِ المحبَّة والقُرْب، وأصل العَداوةِ البُغْضِ والبُعد،ووليُّ الله هو الموافِقُ المتَابِعُ له فيما يحبُّه ويرضاه ويُبْغِضُه ويَسْخَطُه، ويأمرُ به وينْهَى عنه »(٣).

ووليُّ الشَّيطانِ هو الذي خالفَ اللهَ فيما يحبُّه ويرضاه ويُبْغِضُه ويَسْخَطُه، ويأمرُ به وينْهَى عنه، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** (١١٥) **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا** (١١٦) **إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا**

(*) راجع الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

(١) نضرة النعيم (٨/٣٦٨٥).

(٢) لسان العرب(١٥/٤٠٧).

(٣) مجموع الفتاوى(١٦٠و١١/١٦١).

شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧)لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءاذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩)يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢٠)أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا(١٢١)﴾ [النساء]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ(٢٧)﴾ [الأعراف]،

ولذلك قال الخليلُ إبراهيمُ لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا(٤٥)﴾ [مريم]،

"قال تَغْلُب: كلُّ من عبَد شيئاً من دون الله فقد اتَّخذه ولياً"(١)،

وقد أمر اللهُ تعالى بمُوالاته ونهى عن مُوالاةِ الشيطان فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٢)﴾[البقرة]،

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥)إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ(٦)﴾[فاطر]،

ومع ذلك أبى الظالمون إلاَّ كفوراً، واتَّخذُوا الشَّياطينَ أولياء من دون الله، وقد أنكر اللهُ تعالى ذلكَ عليْهم في الدُّنيا فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ

---

(١) لسان العرب:(١٥/٤١١).

[illegible] (٥٠)﴾ [الكهف]،

وقال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٩)﴾ [الشورى]،

وأخبر سبحانه أَنَّه سيُوبِّخُهم على رُءوس الأشْهادِ يومَ القيامة فقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ(٣)﴾ [الزمر]،

وقال تعالى بعد ذِكْرِ نعيم أَهْلِ الجنَّة: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ(٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي ءَادَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠)وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١)وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(٦٣)اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(٦٤)﴾ [يس]،

فمن أراد السعادةَ في الدُّنيا والآخرةِ فليتولَّ اللهَ وحده، فإنَّ الله تعالى فرّق بينْ أولياءِ الرَّحمن وأولياء الشَّيطان في الحياة الدُنيا وفي الآخرة فقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ(٢٥٧)﴾ [البقرة]،

من ظُلُماتِ الكُفْرِ إلى نُور الإيمان، ومن ظلمات الشِّرْك إلى نُور التوحيد، ومن ظلمات الضلالِ إلى نورِ الهدى، ومن ظلماتِ الجهالةِ إلى نورِ العلم، فيمشي المؤمنُ بنورِ الإيمان في الدُّنيا لا يَزِلُّ ولا يَضِلُّ، فهو على صراط مستقيم، ويوم القيامةِ يسعى نورُهم بيْن أيديهم حتى ينتهوا إلى دار السلام .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ(٢٥٧)﴾ [البقرة]،

ظُلُماتِ الكُفْر والشِّرْك، وظلماتِ الشُّبهاتِ والشَّهوات، فهو لا يعرف معرُوفاً، ولا يُنْكِرُ منكراً، ولا يهتدي سبيلاً، بل يمشي مُكباً على وجْهِه في الدُّنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿**وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآَخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً(٧٢)**﴾ [الإسراء]،

وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا(٩٧)**﴾ [الإسراء]:

" إنَّ الإيمانَ نُورٌ يَشرِقُ به كِيانُ المُؤْمنِ أوَّل ما ينبَثِقُ في ضميره، تَشْرُقُ به روحُه فتَشِفُّ وتصفو وتَشِعُّ من حولها نوراً ووضاءةٍ ووضوحاً.

نورٌ يكشف حقائقَ الأشياء وحقائقَ القِيمَ، وحقائقَ التَّصوُّرات، فيراها قلبُ المؤمنِ واضحةً بغيْر غَبش، بيِّنةً بغير لَبْسٍ، مستقرةً في مواضعها بغير أرْجَحةٍ، فيأخذ منها ما يأخذَ ويدعُ منها ما يدع في هوادةٍ واطمئنانٍ وثقةٍ وقرار لا أرجحةَ فيه.

نورُ يكشِفُ الطَّريقَ إلى النَّاموس الكوْني فيُطابِقُ المؤمنُ بيْن حركَتِه وحركَةِ النَّاموس الكوْني من حولِه ومَن خلالِه، ويمضي في طريقه إلى الله هيِّناً ليِّناً لا يتعسَّف ولا يصطَدِمُ بالنُّتوءات ولا يخْبَط هنا وهناك، فالطريقُ في فِطْرته مكشوفٌ معروف، وهو نورٌ واحدٌ يهدي إلى طريق واحد .

فأَمَّا ضلال الكُفْرِ فظلماتٌ شتَّى مُنوَّعة، ظلمةُ الهوى والشَّهوة، وظلمةُ الشَّرُود والتيه، وظلمةُ الكِبْرِ والطَّغيان، وظلمُة الضَّعف والذِلَّة، وظلمةُ الرِّياء والنِّفاق، وظلمةُ الطَمع والسَّعر، وظلمةُ الشَّك والقلَق، وظلماتٌ شتَّى لا يأخذُها الحَصْرُ تتجمَّع كلُّها عند الشُّرودِ عن طريقِ الله، والتَّلقِّي من غيرِ الله، والاحتكامِ

لغير مَنْهجِ الله، والعاقبةُ اللائقةُ بأصحابِ هذه الظُلُماتِ هي ظلماتُ النَّار ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥٧)﴾ [البقرة]»(١).

وقد بيَّن ربُّنا سبحانه هذه الحقيقةَ في قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٢٢)﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٣٥)﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ(٤٠)﴾ [النور]،

وفرّق ربُّنا سبحانه بيْن المؤمنينَ الذين يمْشُون بنُور اللهِ والكافرينَ الذين يتخبَّطون في الظُّلمات فقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٢٢)﴾ [الملك]،

ومن ثمراتِ ولايةِ الله: أنَّها تَعْصِمُ الإنسانَ من الشَّيطان قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ

---

(١) في ظلال القرآن(٤٢٨و٤٢٩/١).

هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ(١٠٠)﴾ [النحل]،

ومنها: أنَّها توجب للوَلِيِّ الأمنَ والأمانَ والفرحَ والسُّرورَ قال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ(٦٤)﴾ [يونس]،

وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١)خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ(٢٢)﴾ [التوبة]،

وقد أمر النبيَّ ﷺ أنْ يبشّرَهم بهذه البُشْرَى في الدُّنيا فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥)﴾ [البقرة]،

وأخبر أنَّ الملائكةَ تُبشِّرُهم بذلك عند المَوْت وفي القبْرِ وبعدَ البعث، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(٣٠)﴾ [فصلت]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ(١٠١) لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢)لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(١٠٣)﴾ [الأنبياء]،

وفي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ أنَّ ملكَ الموْتِ يقول للمُؤْمن عندَ الموْت: **«أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ» ، «قَالَ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ لَهُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ**

الصَّالِحُ»(١)،

ومنها: أنَّها تُوجب النَّصر والتأييدَ والتَّمكينَ في الأرض قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا(٤٥)﴾ **[النساء]،**

وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ(٧٨)﴾ **[الحج]،**

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ(١١)﴾ **[محمد]،**

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ(٥١)﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(٨)﴾ [الشورى]،

وفي الحديثِ القُدُسيِّ أَنَّ الله تعالى قال: « **مَنْ عَادَى لِيَ وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»(٢)،**

ومَنْ حاربَه اللهُ فهو مُحارَب، ومن حاربه اللهُ فهو خاسر، فوليّ الله منصورٌ ولو اجتمعتْ عليه قُوىَ الأرضِ كلِّها، فهو لا يُبالي ولا يكْتَرِثْ ما دام في وِلَايَةِ الله، ولذلك تحدّى النبيُّ ﷺ العربَ أجمعين ووقفَ فِي وجْههم شامِخاً مُعْتَزاً بوِلَايَةِ ربِّه له، وهو يُنْكِرُ على المشركين شِرْكَهم واتِّخاذَهم الأَصْنَام أولياءَ من دون الله، ثم يدعُوهم بكلِّ ثقةٍ إلى أَنْ يُحارِبُوه كيفما شاءوا وأَنْ يستَعينُوا عليه بما شاءوا لأَنَّه في كلأ الله ورِعايتِه بسبب وِلَايَتِه، يقول الله تعالى:

---

(١) صحيح : [الجنائز:١٥٩]، حم(٧/٧٤/٥٣)، د(١٣/٨٩/٤٧٢٧).

(١) خ(٦٥٠٢/٣٤٠و١١/٣٤١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧)﴾ [الأعراف]،

ومنها: أَنَّها تُوجبُ محبَّةَ الله للعبْد وتوفيقَه له كما في الحديث القدسي: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(١).

فإِنْ قيل: فهلْ لأوْلياءِ الله من علاماتٍ يُعْرَفُون بها؟ فالجواب أَنَّ اللهَ تعالى عرّف أولياءه بقوله ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)﴾ [يونس]، فكلُّ مؤمنٍ تقيٍّ فهو للهِ وليّ .

«وأولياءُ اللهِ يُعْرَفُون بصفاتِهم وأَفْعالِهم وأحْوالِهم التي دَلَّ عليها الكتابُ والسُّنة، ويُعْرَفُون بنُور الإيمان والقرآن، بعقائد الإيمانِ الباطنة، وشَرائعِ الإسلام الظاهرة.

وليس لأولياءِ اللهِ شيءٌ يُعْرَفُون به عن النَّاس في الظاهِر من الأمُورِ المُباحة، فلا يُمَيَّزُون بلباسٍ دُونِ الناس ولا بَحلْقِ شَعْرٍ ولا تَقْصيره أو ضَفْرِه.

إلاَّ إِنَّهمُ مُتَفاوتُون في الوِلاَيةِ بِحسَبِ تفاضُلِهم في الإيمان والتقوى.

---

(١) خ (٦٥٠٢/٣٤٠و١١/٣٤١).

فإنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقُص ويقوى ويضعُف، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا(٢)﴾ [الأنفال]،

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(١٢٤)﴾ [التوبة]،

وكذلك التَّقْوى تزيدُ حتى تحفَظَ سماءَ القَلْبِ من كلِّ عارضٍ يعرِضُ له من

الشُّبهاتِ أو الشَّهوات، فتمرُّ الشَّهْوةُ أو الشُّبْهَةُ بسماءِ القَلْبِ فتجدُه محروساً فيرجُمها بنُورِ الإيمان فيطردُها عن الإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ(٢٠١)﴾ [الأعراف]،

وأحيانًا تضعف التَّقوى فتجدُ الشَّهوةُ سبيلاً إلى القلب فيشرُبها ثم لا ينْتَبِهُ الإنسانُ إلاَّ بعَد الفَراغ والانتهاءِ كما قال تعالى فى حقِّ المقصِّرين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ(١٣٥)﴾ [آل عمران]،

وكلما ازداد الإيمانُ في القلْبِ وقَوِيَتِ التَّقْوى فيه ، كلما ازداد الوَلِيُّ رِفْعةً في دَرَجاتِ الوِلاَية، وكلَّما نقصَ الإيمانُ ونقصَت التَّقوى كلما هبَط الإنسانُ في سلَّمِ الوِلاَية ولذلك كان أولياءُ اللهِ على طبقَتَين:

سابِقُون مقرَّبون، وأصحابُ يمينٍ مقتصدون، فالمُقْتَصِدُون هم الذين تقرَّبوا إلى الله بأداءِ الفَرائِضِ وتَرْك المُحرَّمات، ولم يُكَلِّفُوا أنفسَهم بالاجتهادِ في المندُوبات ولا ترك المكروهات .

والسَّابقون المقرَّبون هم الذين فعلُوا الواجباتِ والمستحبَّاتِ وتَركُوا المحرَّمات والمكرُوهات، وإلى هذا أشار ربُّنا سبحانه في آخرِ سُورَةِ الرَّحمن وأوَّلِ سُورَةِ الواقِعةِ وأوَّل سُورةِ الإنسانِ ، وجاء ذلك في الحديث القدسي:

«مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(١)،

وإذا كان أولياءُ اللهِ الذين يتقرَّبون إليه بفِعْل ما يُحِبُّ وَتَرْكِ ما يكْرَه، فإنَّ المجانينَ والأطفالَ غيرَ المميِّزين لا يصلُح أَنْ يُطْلَقَ عليْهم أولياءُ الله ، لأَنَّ المجنونَ لا تصحُّ عبادَتُه باتّفاق بل ولا مُعامَلاتُه، لأَنَّ أقوالَه وأفعالَه كلَّها لَغْوٌ لا يتعلَّق بها حُكْمٌ شرْعِيٌّ ولا ثَوابٌ ولا عقابٌ .

بل إنَّ المجنُونَ لا يصلُح لوِلايَةِ الخَلْق فضلاً عن وِلاَية الحَقِّ لأَنَّ جميعَ العُقلاَء لا يَرْضَوْن بوِلاَيةِ السّفيه فضلاً عن المَجْنُون، ولا يَرْضَوْن بنِسْبَته إلى ولايتهم، واللهُ أجلُّ وأعْظَمُ من أَنْ يُنْسَب إلى وِلايةِ فُلانِ المجْنون، فضلاً عن غيره من المخبُولين الذين يُباشِرُون النَّجاسات ، ويأْوُون إلى مواضِعِ الزِّبالةِ والحمَّامات، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ(٢)﴾ [الحشر].

وإذا عُلِمَ هذا فليعلم أيضاً أَنَّ أولياءَ اللهِ تجبُ مُوالاتُهم، وأولياءَ الشَّيطانِ تجبُ معادَاتُهم كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ(٥٥)﴾ [المائدة]،

ونهى سبحانه عن مُوالاةِ أعدائه أولياءِ الشَّيطان فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا

---

(١) خ(٦٥٠٢/٣٤٠و٣٤١/١١).

بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ(١)﴾ [الممتحنة]،

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥١)﴾ [المائدة].

فمِنْ مُوالاةِ الله أَنْ تُوالِيَ أولياءَه وتُعادِيَ أعدَاءه، فمنْ عادَى أولياءَ اللهِ فقد عادى الله، ومن والى أعداء الله فقد عادىَ اللهَ أيضاً.

وموالاةُ أولياءِ الله معْنَاها مَحَبَّتُهم والتَّودُدُ إلى إحيائهم والترحُّمُ على أَمْواتِهم والدُّعاء لهم والاستغفار.

ولا يجوز الإسرافُ في محبَّة الأولياءِ حتى يُفْضِيَ بالمُحِبِّ إلى اتخاذِهم أندادًا من دُونِ الله، فإنَّ الله تعالى عابَ على من أحبَّ غيرَه كحُبِّه فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ(١٦٥)﴾ [البقرة]،

فكيف بِمَنْ أفْرَط في حُبِّ الأولياءِ حتى اعتقد أَنَّهم يتصرَّفُون في الكَوْن ويَمْلِكُون النَّفع والضُّرَّ، هذا شِرْكٌ باللهِ والعِياذُ بالله، والله تعالى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا(٤٨)﴾ [النساء].

* * *

إبطال التقليد وذم المقلدين

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَيَعْقِلُونَ (١٧١)﴾ [البقرة].

بعثَ اللهُ تعالى رسولَه بالهُدى ودينِ الحقِّ وأنزلَ عليه كتاباً مباركاً فيه هُدًى ونور وشفَاءٌ لما في الصُّدور وأمرَه باتباعه فقال تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦)﴾ [الأنعام]،

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾ [يونس]،

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢)﴾ [الأحزاب]،

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ (١٨)﴾ [الجاثية]،

وقد صرَّح ﷺ أكثرَ من مرَّة باتباعه لوَحْيِ ربِّه وتَمسُّكه به، قال تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ (٥٠)﴾ [الأنعام]،

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي (٢٠٣)﴾ [الأعراف]،

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ(١٥)﴾[يونس]،

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ(٩)﴾[الأحقاف]،

وأمر اللهُ تعالى النَّاس جميعاً باتِّباع الرَّسُولِ ﷺ وما أُنْزِلَ عليهِ من ربِّه . فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ(٣١)﴾[آل عمران]،

وقال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥٨)﴾[الأعراف]،

وقال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٥٥)﴾[الأنعام]،

وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ(٣)﴾[الأعراف]،

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾[الزمر]،

ولمَّا كان النَّاسُ قِسْمَيْن: أولياءُ الرَّحمنِ وأولياءُ الشَّيطان فقد استجابَ أوْلياءُ الرَّحمن لمَا أمرهم به من اتِّباع رسُولِه ﷺ واتِّباع القُرآن ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ(١١٦)﴾[هود]،

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥١)﴾[النور]،

وقال تعالى عن أولياءِ الشّيطان ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا(١٧٠)﴾ [البقرة]،

" فاكْتَفَوْا بتقليدِ الآباء وزَهدُوا في اتِّباع الأنبياء، وهذا دليلٌ على إعْراضِهم عن الحقِّ ،ورَغْبَتِهم عنه وعدَمِ إنْصَافِهم، فلو هُدُوا لرُشْدِهم وحُسْنِ قَصْدِهم لكان الحقُّ هو القَصْد، ومَنْ جعلَ الحقَّ قَصْدَه ووازَن بيْنه وبيْن غيْرِه تبيَّن له الحقّ قطعاً واتَّبعه إنْ كان مُنْصِفاً"[١].

ثم أنْكَر اللهُ عليهم تقليدَ الآباء فقال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة]،

" والهَمْزةُ للإنكارِ والتَّعجُّبِ وهي داخِلَةٌ على فِعْلٍ حُذِفَ للعِلْم به من القرينة، ولَوْ للغاية، لا تحتاجُ إلى جواب، والتَّقدير أيتَّبِعُون ما أَلْفُوا عليه آباءهم في كلِّ حالٍ وفي كلِّ شيءٍ ولو كان آباؤهم لا يعقِلُون شيئاً من عقائد الدِّين، ولا يهتدُون في أحكامِه وأعمالِه لِوَحْيٍ من الله بما جاءهم به رسولٌ من عند الله، أي أيتَّبِعُونهم حتَّى في تجرُّدِهم من دليلِ العَقْلِ والنَّقل"[٢].

كما أبطل اللهُ تعالى عقيدتَهم في المَلائكةِ ببيانِ أنَّها عقيدةٌ فاسِدَةٌ خالِيَةٌ من دليلِ العَقْلِ والنَّقل و لا تستند إلاَّ على مطلق التقليد فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١)بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢)وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ

---

(١) السعدي(١/٢٠٢).

(٢) المنار(١/١٢٧).

قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ(٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(٢٥)﴾ [الزخرف]،

«فقولُه ﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١)﴾ [الزخرف]،

يعني أَنَّ القولَ الباطِلَ الذي حكاه اللهُ عنهم لم يُثْبِتُوه بدليلِ العَقْلِ لأَنَّ اللهَ قال: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ(٢٠)﴾ [الزخرف]، ولم يُثْبِتُوه بدليلِ النَّقل لأَنَّ الله قال: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا﴾ أي هلْ وَجَدُوا ذلك الباطلَ في كتابٍ أُنْزِل من قبل القرآنِ فتمسَّكُوا به، فلَمَّا لم يَثْبُتْ لهم دليلٌ عَقْلِيٌّ ولا دليلٌ نَقْلِيٌّ تبيَّن بُطْلانُ قَوْلِهم.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢)﴾ [الزخرف]،

والمقصودُ أَنَّه تعالى لَمَّا بيَّن أَنَّه لا دليلَ لهم على صِحَّةِ ذلك القَوْلِ البتَّة تبَيَّن أَنَّه ليس لهم حامِلٌ يَحْمِلُهم عليه إِلاَّ التَّقليدُ المَحْضُ، ثم بيَّن أَنَّ تمسُّكَ الجُهَّالِ بطريقةِ التَّقليد أمرٌ قديمٌ فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ(٢٣)﴾ [الزخرف]، يعني أَنَّ الدَّاعيَ إِلى القَوْل بالتقليد الحامِلَ عليه إِنَّما هو حُبُّ التنعُّم في طيِّباتِ الدُّنيا وحُبُّ الكَسلِ والبَطالةِ وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلالِ»[١].

---

(١) الرازي(٢٠٣-٢٠٧/٢٧) بتصرف.

قال الرَّازي: " إنَّما ذكر اللهُ تعالى هذه الآيةَ عقبَ الزَّجْر عن اتِّباع خُطواتِ الشَّيطان تنبيهاً على أنَّه لا فرْقَ بينْ مُتابَعة وَسَاوسِ الشَّيطان وبيْن مُتابَعةِ التَّقليد، وفيه أقوى دليلٍ على وُجوبِ النَّظرِ والاسْتدلالِ، وترْك التَّعويل على ما في الخاطرِ من غيْرِ دليلٍ أو على ما يقولُه الغيْر من غيْرِ دليل"(١).

ثم ضرب اللهُ تعالى لهؤلاءِ الكُفَّار الذين كفَرُوا بربِّهم تقليداً لآبائهم مَثَل السَّوْءِ فقال تعالى: **﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ(١٧١)﴾** [البقرة]،

أي " **﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** في صِفَتِهِمْ في تقليدِهِم لآبائهم ورؤسائِهم **﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾** أي كصِفَةِ الرَّاعي للبَهائم السائِمة، الذي يَنْعِقُ ويَصيحُ بها في سَوْمِه إلى المرْعَى، ودَعْوتِها إلى الماء، وزَجْرِها عن الحمَى، فتُجيبُ دَعْوتَه وتَنْزَجِرُ بزَجْرِه بما أَلِفَتْ من نِعاقِه بالتِّكْرار، وهي لا تَعقِلَ مما يقول شيئاً، ولا تفهم له معنى .

﴿صُمٌّ﴾ لا يسمَعُون الحقَّ سماعَ تدبُّرٍ وفَهْمٍ **﴿بُكْمٌ﴾** لا ينطقون به عن اعتقادٍ وعِلمٍ **﴿عُمْيٌ﴾** لا ينظُرون في آياتِ الله في أنفسهم وفي الآفاق حتى يتبيَّن لهم أنَّه الحقِ **﴿فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾** مبدأ ما هُم فيه ولا غايتَه"(٢).

ويتجلَّى أثرُ التَّقليد في فسادِ عقيدةِ المُقلِّد في رَفْضِ أبي طالبِ دَعْوة رسُولِ الله ﷺ له إلى التوحيد وإصْرارِه على دين الآباء والأجداد:

عَنْ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ

---

(١) الرازي(٥/٧).

(٢) مختصر المنار (١٢٧و١٢٨/١).

الْمُغِيرَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَبِي طَالِبٍ يَا عَمِّ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ »[١].

ولقد فطر اللهُ النَّاس جميعاً آباءَ وأبناءً على التَّوحيد فأخذَ عليهم العَهْدَ والميثاقَ بذلك وهم في صُلْبِ أبيهم الأوَّل آدمَ حتى لا يعتَذِرَ الأبْناءُ عن ضلالهم بضَلالِ آبائهم، فقال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)**﴾ [الأعراف]،

" أي إنَّما امتحنَّاكُم حتى أقرَرْتُم بما تقرَّر عندكم من أنَّ اللهَ ربُّكم، خشيةَ أَنْ تُنْكِرُوا يومَ القِيَامةِ فلا تُقِرُّوا بشيءٍ من ذلك وتَزْعُمونَ أَنَّ حُجَّةَ الله ما قامَتْ عِنْدَكم ولا عِنْدكم بها عِلمٌ بل أنتُم عنها غافلون"[٢]،

﴿**أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ**﴾ " فقلَّدْناهم في شرْكهم"[٢]، ﴿**أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ " فقد أوْدَعَ اللهُ في فِطَرِكُم ما يدُلُّكم أَنَّ ما مع آبائكم باطل، وأَنَّ الحقَّ ما جاءتْ به الرُّسل"[٣].

والواجبُ على الإنسانِ إذا عَقِلَ وبَلَغ سنَّ الرُّشْد أَنْ ينظُرَ في أحْوَال آبائه وملَّتِهم واعْتِقَادِهم، فإِنْ وجدَهم على غيْر هُدى ولا كتابٍ منير ووجد عقيدَتهم

---

(١) متفق عليه: خ(١٣٦٠/٢٢٢/٣)، م(٢٤/٥٤/١)، ن(٩٠و٩١/٤).

(٢) السعدي(١١٣و١١٤/٣).

(٣) الرازي(٥٦/١٥).

تُخَالِفُ دينَ الفِطْرة الذي فطرَ اللهُ النَّاسِ عليها، وتخالف دينَ الحقِّ الذي أرسل اللهُ به رُسُلَه، وأنزل عليهم كُتُبَه تَركِ مِلَّتهم وخالفَ عقيدَتهم واتّبع الدِّين الحقَّ، كما فعل الخليلُ إبراهيمُ عليه السلام، فقد تبَّرأ عليه السلام من عقيدةِ أبيه وقَوْمه وأسْلَم وجْهَهُ لله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ ممَّا تَعْبُدُونَ(٢٦)إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ(٢٧)وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢٨)﴾ [الزخرف].

وقد أمر اللهُ تعالى بالتأسِّي بالخليلِ في البَراءة من الكافرين فقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَممَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٤)﴾ [الممتحنة].

وإِنْ نظَر العاقِلُ في مِلَّة آبائه وعقيدتِهم فوجدَهم على الحقِّ اتَّبعهم وتبرَّأ ممَّنْ خالَفهم كما فعل يوسفُ عليه السلام حيث حكى اللهُ تعالى عنه أنه قال لصاحبى السِّجن ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧)وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ(٣٨)﴾ [يوسف]،

ولم يقِف التقليدُ الأعْمَى من الأبناءِ للآباءِ عند حُدودِ الاعْتِقَادِ بل امتدَّ ليشملَ البدهيَّاتِ التي تستقبِحُها عقولُ الصبْيَانِ والبنات .

فقد كان العربُ في الجاهليَّة إذا أرَادُوا الطَّوافَ بالبَيْت تجرَّدوا من ثيابهم كما ولدتهم أُمَّهاتُهم وقالوا لا نطيع الله في ثياب عصيناه فيها،

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهِيَ عُرْيَانَةٌ تَقُولُ الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّهُ قَالَ فَنَزَلَتْ ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ(٣١)﴾ [الأعراف] "(١).

والتَّعرِّي في ذاته فاحِشَةٌ مُسْتَقْبَحةٌ في نظرِ العُقلاءِ إلاَّ أَنَّ حُجَّةَ القَوْمِ فيه أَنَّ آباءهم كانُوا يفْعلُون ذلك ولابُدَّ أَنْ يكونَ اللهُ أمرَهم بذلك، قال تعالى مُنْكِراً عليهم ذلك ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٢٨)﴾ [الأعراف].

قال الطبريُّ : "تأويل الكلام: وإذا فعلَ الذينَ لا يُؤْمِنُون بالله، الذين جعلَ اللهُ الشَّياطين لهم أولياءَ قبيحاً من الفعْلِ وهو الفَاحِشَة، وذلك تعرّيهم للطّواف بالبيّت وتجردهم له، فعُذلوا على ما أَتْوا من قبيحِ فِعْلهم، وعُوتبِوا عليه قالُوا وجدْنا على مِثْلِ ما تفعل آباءنا، فنحنُ نفعلُ مثْلَ ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهَدْيهم، ونستنُّ بسُنَنِهم، واللهُ أمَرنا به، فنحن نتّبع أمْرَه فيه، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ لرسُوله: قل لهم يا نبيّنا **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ** أيها الناس **عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**"(٢).

وهكذا تبيَّن لنا بطلانُ التَّقليد وذمّ المُقلِّدين، مما يوجب علينا أَنْ نكونَ متَّبعين في كلِّ شيء : في عقيدتِنا وعبادتِنا ومُعاملتِنا، متمسّكين بالدِّين الحقِّ في ذلك كلّه ، ونكونَ على يقين فيما نعتقده وفيما نتقرَّب به إلى الله، وفيما نُعاملُ به النَّاسِ، وأَنْ نكون على بيِّنة من أَنَّ الله قد رَضِيَ هذا القولَ أو ذلكَ العملَ قبل أَنْ نقولَ أو أَنْ نفعل .

---

(١) م(٣٠٢٨/٢٣٢٠/٤)، ن(٢٣٣و٢٣٤/٥).

(٢) الطبري(١٥٤/٨).

أَمَّا أَنْ نَعتقِدَ ما يَعتقِدُه النَّاس ونعبدُ اللهَ كما يعبدُه النَّاس فإِنَّ هذا هو التقليدُ الأعْمى الذي يُردي بصاحبه، ولا يليق بمُسلم.

إِلاَّ أَنَّ الناظرَ في أحْوالِ المسلمين اليومَ يرى أَنَّهم قد وقَعُوا في التَّقليد في كلِّ شيء: فهناك من يعتقدُ في الأقطابِ والأبْدالِ وأَنَّهم يجتَمِعُون في كلِّ عام لتدبيرِ الكَوْن، وهنَاك من يعْتَقِدُ في الأولياءِ أَنَّهم ينْفَعُون ويضرُّون، بل ويَسمْعُونَ من يدعونهم، مع أَنَّ الكفار الذين كانوا يعبدُون الأصنام لم يعتَقِدُوا فيهم أَنَّهم يسمعون أو ينفعون أو يضرُّون، قال تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ** (٦٩) **إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ** (٧٠) **قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ** (٧١) **قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ** (٧٢) **أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ** (٧٣) **قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ** (٧٤)﴾ [الشعراء]،

وهناك من يَنْذِرُ للأولياءِ ويَذْبحُ لهم، ويزُورهم ويعتَكِفُ عِنْدَهم ويتمسَّحُ بتُرْبَتِهم، ولا حُجَّةَ معه فيما يَعتقِدُ ويفْعَلُ إِلاَّ كثرةُ من يفعل ذلك .

وهناك من الشَّباب المتحمِّس الغَيُور على دينه مَنْ سَمِعَ بأَنْ مُرْتَكِبَ الكبيرةِ كافر فاعتقدَ هذا تقليداً لمن سَمِعَه دُون أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ ذلك مَذْهَبُ الخَوارج

وهناك من النِّساء المتبرِّجاتِ الكاسياتِ العارياتِ الكثيرات والكثيرات ولا حُجَّةَ معهنَّ على جوازِ فِعْلِهِنَّ إِلاَّ أَنَّ كلَّهنَّ كذلك والمُوضَة هكذا .

وهناك من الرِّجال الكثيرين الذين حَلَقُوا لِحَاهم وأسْبَلُوا ثِيابَهم وليس معهم حُجَّةٌ إِلاَّ أَنَّ الناس كلَّهم كذلك.

وأَمَّا جَرْيُ شبابِنا وراءَ التَّقليد الأعْمَى فحدِّث عنه ولا حَرَج: فهذا شابٌّ أَرْخَى شعرَه لماذا؟ لأَنَّ فلاناً أَرْخَى شعْره، وثانٍ حلَق رأسْه، لماذا؟ لأَنَّ فلاناً حلَقَ رأْسَه، وثالثٌ لَبِسَ لِباساً يُخَالِفُ عادَتَه لماذا؟ لأَنَّ فلاناً لَبِسَ هذا اللباس .

ولو أَنَّ الأمر اقتصَرَ في التقليد في العادات على الصالحين والصالحات لقلت:

فتشبَّهوا إنْ لــــم تكونــــوا مِثْلَهم إنَّ التشبُّهَ بالكِرام فَلاح

ولكنَّ التَّقليدَ الأعْمى هو للكــافرين والكــافرات، والفنَّــانين والفنَّانــات، والممثِّلين والمُمثِّلات ﴿**بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً**[٥٠]﴾ [الكهف]،

والنبيُّ ﷺ يقول: "**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**"[١]،

﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**[٢]﴾ [الحشر]، ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا**[١٠]﴾ [الطلاق].

وأَمَّا تقليدُ النَّاس بعْضِهِم بعْضاً في البُنْيانِ ولا سيِّما عند الـزَّواج فَـأَمْرٌ عظيمٌ خطرُه، جسيمٌ ضررُه، فقد كلَّف النَّاسَ ما لا يُطِيقُون ودَفَعهم إلى القَـرْضِ الربَوِي، وأوْدى بِكثيرٍ مِنهم إلى السجن بعد أَنْ عَجزُوا عن السَّداد، ولو أَنَّ النَّاسَ يعلمون أَنَّ اللهَ فضَّل بعضَهم على بعضٍ في الرِّزق ورَفَعَ بعضَهم فَوْقَ بعـضٍ درجات، وقال: ﴿**لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ**[٧]﴾ [الطلاق]،

لو عَلِمَ النَّاسُ ذلك لأراحوا واستَراحوا، ولكنَّه التقليدُ الأعْمى: بنتُ فُــلانٍ دَخلتْ بثلاَّجة، فلابُدَّ أَنْ تدخُلَ بِنْتِي بثلاَّجة، وبنتُ فُــلانٍ دخلَــتْ بغسَّــالة فــل أوتوماتيك فلابُدَّ أَنْ تدخُلَ بِنْتِي بغسَّالة فل أوتوماتيك، وليس معه منْ ثَمَنِ الغسَّالة ولا الثلاَّجة شيء ولكنَّه التقسيط موجود، وبلا مُقدَّم، والنِّهايةُ العَجْزُ عن السداد، وإِمَّا الدَّفع وإِمَّا الحبس ، فإمَّا أَنْ يبيع دارَه التي يسكنُ فيها وإِمَّا أَنْ يسكُنَ السِّجْنَ وكلاهما مُرٌّ.

* * *

---

(١) حسن صحيح :[ص.د:٤٣٠١]، د(٤٠١٠/٧٢و١١/٧٣)، جه(٣٦٠٧/١١٩٢و٢/١١٩٣).

الفهـــــرس

الموضــــــوع | رقم الصفحة

الموضـــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــــوع رقم الصفحة

الموضـــــوع	رقم الصفحة

الموضوع | رقم الصفحة

* * *